دكتور حسن حنفي

الدين والثورة في مصر ١٩٥٢ - ١٩٨١

١

الدين والثقافة الوطنية

الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

الدين والثورة في مصر ١٩٥٢ - ١٩٨١

١ - الديـن والثقـافة الوطنيـة

دكتور حسن حنفي

الناشر
مكتبة مدبولي
٧٥٦٤٢١

تصميم الغلاف : محمد عمر

الاهـــــداء .....

الى أحـــزاب المعارضـــة المصـــرية

د. حســـن حنفى

مقدمة الطبعة الأولى

« الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ — ١٩٨١ » سجل لتاريخ مصر الحديث عن الدين والثورة ابان الفترتين الرئيسيتين فى عمر الثورة المصرية . الأولى فترة الثورة وحلم الستينات (١٩٥٢ — ١٩٧٠) ، والثانية فترة الثورة المضادة وواقع السبعينات (١٩٧٠ — ١٩٨١) . لذلك كان من ضمن الاختيارات للعنوان « الثورة والثورة المضادة فى مصر ١٩٥٢ — ١٩٨١ » . وهو أقرب الى الكتاب الوثائقى يقص بداية الثورة ونهايتها فى مصر فى غمرة الأحداث التى عصفت بها . وقد كتب معظمه للصحافة داخل مصر وخارجها . وبالتالى غلب عليه الأسلوب الخطابى ، واتسم بالنبرة العالية . كانت الغاية مخاطبة الجماهير العربية فى مصر وخارجها والتوجه لها مباشرة بالنداء .

وقد كتب معظمه فى الفترة ١٩٧٦ — ١٩٨١ أى على مدى خمس سنوات فى عنفوان الثورة المضادة فى مصر ، وبعد قانون الاستثمار فى ١٩٧٤ وبداية الانفتاح الاقتصادى ، وبعد انتفاضة يناير ١٩٧٧ ، والمعاهدة المصرية الاسرائيلية فى مارس ١٩٧٩ ، ومقاومة التطبيع ابتداء من ١٩٨٠ ، ثم مذبحة سبتمبر ١٩٨١ ، وأخيرا اغتيال الرئيس فى أكتوبر من نفس العام . كتب فى غمرة الأحداث التى مرت بمصر ابان التحول عن ثورتها والتى هزت وجداننا القومى وقناعاتنا الأولى .

ويتكون الكتاب من جزأين : الأول « فى الثقافة الوطنية » والثانى « فى اليسار الدينى » . وكان قد أعلن عنهما من قبل انهما يمثلان قضايا معاصرة ؛ الجزءان الثالث والرابع . ولكنى لم أشأ استبقاء العنوان القديم الذى صدر منه جزءان سابقان ، الأول « فى فكرنا المعاصر » ، والثانى « فى الفكر الغربى المعاصر » والذى يعبر عن الأحداث التى مرت بمصر بعد هزيمة ١٩٦٧ والى ١٩٧١ . وبالتالى أكون قد شهدت على عصرى مرتين : الأولى فى « قضايا معاصرة » فى الستينات فى فترة ما بعد

الهزيمة فى ١٩٦٧[١] ، والثانية فى « الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ – ١٩٨١ » فى السبعينات فى فترة الثورة المضادة فى مصر ١٩٧١ – ١٩٨١ .

وفى كلتا الفترتين ، حاولت الجمع بين العلم والوطن ، وأن أمارس دورى كعالم ومواطن كما كان يفعل الفقهاء القدماء . فلا فرق عندي بين الجامعة والوطن ، ولا بين البحث العلمى والالتزام السياسى . وقد استغرق ذلك من العمر ما يقرب من السنوات العشر على فترتين . فما كان يعقل والمنزل يحترق ، والأرض محتلة ، والاستقلال الوطنى ضائع ، والحريات منتهكة ، والتفاوت الطبقى بين الأغنياء والفقراء فى اتساع ، والأمة مجزأة يحارب بعضها بعضا ، والهوية مهددة ، والجماهير لا مبالية أن أواصل « التراث والتجديد » وهو مشروع العمر الذى يؤصل مآسى العصر ويتعرف على أسبابها وطرق مواجهتها فى التراث القديم باعتباره مخزونا نفسيا عند الجماهير والمكون الرئيسى لثقافتنا الوطنية[٢] .

ولما لم يكن فى العمر بقية ، وكان مشروع « التراث والتجديد » هو الابقى على المدى الطويل فقد آثرت أن أكتفى بهاتين الشهادتين على أحداث العصر والتى كلفتنى عشر سنوات من التوجه المباشر من خلال الصحافة الى جماهير الشعب . وأن أخصص ما بقى من عمر لمشروع « التراث والجديد » ، واصدار أجزائه تباعا بعد أن تأخر الجزء الأول « من العقيدة الى الثورة » أكثر من خمسة عشر عاما بسبب أحداث العصر[٣] وأصبح السؤال الآن : متى يتم انجاز هذا المشروع بجبهاته الثلاث : موقفنا من التراث القديم ، وموقفنا من التراث

---

(١) دار الفكر العربى ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٦ – ١٩٧٧ ، الطبعة الثانية ١٩٨٧ – ١٩٨٨ ، (الطبعة العربية الاولى دار التنوير ، بيروت ١٩٨٠) .

(٢) « التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم » ، الطبعة الأولى ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨٠ ، الطبعة الثانية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٧ (الطبعة العربية الاولى ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١) .

(٣) « من العقيدة الى الثورة ، محاولة لاعادة بناء علم أصول الدين » خمسة اجزاء ، مدبولى ، القاهرة ١٩٨٧ – ١٩٨٨ .

الغربى ، وموقفنا من الواقع أو نظرية التفسير اذا ما استنفذ الجزء الأول من الجبهة الأولى رصيد العمر ؟

لذلك يصدر هذا الكتاب ولم يعد فى العمر بقية لشهادة ثالثة على أحداث العصر القادمة . وأترك ذلك لأجيال أخرى تقوم بها أكثر شبابا وحماسا ، بل أكثر وعيا وادراكا . وباصدار هذين الجزأين أقول وداعا للصحافة[1] .

وقد أهديته الى « أحزاب المعارضة المصرية » . فقد كتبت معظم مقالات هذا الكتاب وأنا أعمل معها خاصة مع حزب « التجمع » الذى تعلمت منه الكثير ، حوارا مع قياداته الفكرية ، وعملا مع كوادره الحزبية ، واتصالا بجماهيره الثورية .

حسن حنفى

القاهرة نوفمبر ١٩٨٧

---

(١) نظرا لتضخم الفصول ، ورغبة فى الوصول الى الجماهير الواسعة ، وحتى لايستأثر وشياخنا الاجلاء بنواصى الطرق واكشاك الصحف ثم اصدار كل فصل فى جزء مستقل . فصدر الكتاب فى ثمانية أجزاء على النحو الآتى :

١ — الدين والثقافة الوطنية .

٢ — الدين والتحرر الثقافى .

٣ — الدين والنضال الوطنى .

٤ — الدين والتنمية القومية .

٥ — الحركات الاسلامية المعاصرة .

٦ — الأصولية الاسلامية .

٧ — اليمين واليسار فى الفكر الدينى .

٨ — اليسار الاسلامى والوحدة الوطنية .

ويصدر الكتاب عن (دار ثابت) التى نشرت أعمال المفكر الاسلامى الكبير خالد محمد خالد . ككتاب « الدين فى مصر ١٩٥٢ — ١٩٨١ » نحو استقلال لووح « من هنا نبدأ » ، « مواطنون لا رعايا » ، « الديموقراطية ابدا » ، « الدين فى خدمة الشعب » ، « لله والحرية » ، « لكى لا تحرثوا فى البحر » ، « انه الانسان » ، « نحن البشر » .. الخ . فلها منا خالص الشكر

الجزء الأول

الدين والثقافة الوطنية

فى الثقـــافة الوطنيـــة

أولا : مقدمة : ماذا تعنى الثقافة الوطنية ؟

الثقافة الوطنية هى المسكون الرئيسى لمزاج أى شعب يستمد منها تصوراته للعالم وبواعثه على السلوك ، تظهر سماتها فى الافراد وفى الشعوب على حد سواء ، فى الوعى الفردى وفى الوعى الاجتماعى وفى الوعى التاريخى • وقد حاول البعض ربط الثقافات الوطنية بأنماط الروح الانسانية وبنماذج مسبقة تتحكم فى بنيتها • فهناك روح أبوللو العاقل فى مقابل روح ديونيزيوس الانفعالى كما هو معروف عند نيتشة • ومع ذلك فهى تعبير عن أمزجة الشعوب وطبائعها وتاريخها على نحو استقرائى مكتسب ، وليست نمطا مثاليا مسبقا على نحو استنباط أولانى • وقــد يسميها البعض الثقافة « القومية » بدلا من « الوطنية » ، وهى أيضا تسمية صحيحة • فارتباط الثقافة بالوطن ارتباطها بالقوم • اذ لا وطن بلا قوم ولا قوم بلا وطن • وسيرد اللفظان مترادفين • الا أن لفظ « القومية » قد يدل على مذهب معين للقوميين فى حين أن لفظ « الوطنية » يشارك فيه الوطنيون جميعا قوميين أو ليبراليين ، ماركسيين أو اسلاميين •

وتتكون الثقافة الوطنية من عناصر عديدة فى مقدمتها الدين والتراث الدينى والحكم والأمثـال العاميـة وسـير الابطال والملاحم الشعبية وشواهد من تاريخ البطولة وحكمة الشعوب • فمازال الدين أهم روافدها لا العلم ولا التقنية ولا التصنيع ولا حتى الاصـلاحات الاجتماعيـة والانجازات الثورية والخدمات العامة الأخيرة • والتراث مخزون نفسى فى ثقافة الجماهير[1] • لا يختلف فى ذلك التراث الاسلامى عن التراث المسيحى أو التراث اليهودى • فهناك الدين الشعبى ، الدين الاشراقى الشعائرى ، كأساس واحد ومنبع متصل لها ، يوحد بينها من الأساس •

---

(1) أنظر كتابنا التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم ص ٩ ــ ١٨ ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨٠ [اكتفينا فى معظم الاحالات بالاشارة الى دراساتنا السابقة اكمالا لموضوع تطرقنا اليه كثيرا وليس اغماضا لمساهمات الباحثين العرب فى هذا الميدان] •

أما الوافد المعاصر من مظاهر الحداثة للعلم والتقنية والتصنيع وأساليب الحياة الحديثة فهي حديثة العهد على الثقافة الوطنية ، معاصرة في طبقة محددة وان اتسع أثرها في باقي الطبقات الشعبية بعد هجرة العمالة المصرية الى الخارج وزيادة قدرتها على الشراء بعد العودة خاصة فيما يتعلق بالاجهزة الكهربائية الحديثة • ويحدث أثرا مضادا تحت وطأة التغريب وذلك برفع الثقافة الوطنية نحو رافدها الأول وهو الدين والتراث حماية لها من الوقوع في الثقافة الوافدة ، ودفاعا عن ثقافة الموروث ، وبالاضافة الى هذين المصدرين الرئيسيين للثقافة الوطنية ، الموروث والوافد ، هناك الواقع المباشر الذى منه نشأت بتشابكه ، وتضارب مصالحه ، واختلاف طبقاته ، وصراع قواه • الثقافة الوطنية اذن على مفترق طرق ثلاثة : الموروث الديني ، والوافد العلماني ، والواقع الحي المباشر[٢] •

وان اعادة بناء الثقافة الوطنية في البلاد النامية يحل اشكالها الرئيسي وهو ازدواجية الثقافة بين المحافظة الموروثة والعلمانية الوافدة ثم انعزال كليهما عن الواقع الحي للناس ولصالح الجماهير وتحديات العصر • وهي أساس التحديث الشامل سواء التغير الاجتماعي أو نقل المجتمع كله من مرحلة تاريخية الى مرحلة تاريخية أخرى • ان اعادة بناء الثقافة الوطنية هو جزء من تحديث المجتمعات وضمان لاستمرار ثورتها حتى لاتصاب بالردة أو النكوص أو الانقلاب الى ثورة مضادة • ما أسهل وما أسرع من تغيير المجتمعات بقرارات ثورية من السلطة السياسية تنتهي بمجرد انتهاء القيادة الثورية ، وما أصعب وما أطول من تغيير المجتمعات باعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث تكون هي الضامنة والحارسة لاستمرار الثورة والابقاء على التغيرات الاجتماعية ومكاسب الثورة حتى ولو تغيرت القيادة الثورية • وتلك أهم قضية لدى

---

(٢) انظر دراستنا : « موقفنا الحضاري » بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الأول ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ وأيضا في « دراسات فلسفية » ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ •

الشعوب النامية على خلاف ما هو عليه الحال لدى الشعوب المتقدمة . فمازالت الشعوب النامية تمر بمرحلة انتقال من التقليد الى الحداثة ، من القديم الى الجديد ، من التراث الى المعاصرة . ومازال الاختيار لم يحسم بعد بين كافة البدائل : القطع مع القديم باسم الجديد ، رفض الجديد دفاعا عن القديم ، الجمع بين الاثنين عن طريق التجاور والتمييز بين المستويين ، قديم فى السلوك الشخصى وحديث فى السلوك العام أو حديث فى السلوك الشخصى ، قديم فى السلوك العام ، الجمع بين الاثنين عن طريق تطوير القـديم من داخله بأسـاليب الحداثة المطوية فيـه[٣] . وهو النمط المطروح أمامهـا الذى يلاقى موافقـة الأغلبية ، نمط « التغيير من خلال التواصل » . أما النموذج الغربى فانه يقوم على الانقطاع بين التراث والتجديد ، بين التقاليد والتحرر ، بين القديم والجديد . وبقدر ما يتم نقد القديم ورفضه يتم التحرر منه وابداع الجديد ، وبقدر مايتم التخلص من التراث والفك من اسازه يتم اطلاق قيد العقل وممارسة حرية الفكر واستقلاله ، وبقدر التخلص من اللاهوت القديم يتم اكتشاف الطبيعة والانسان ، وبقدر مايتم الخلاص من المعارف الالهية المعطاة سلفا يتم الثقة بالعقل وبقدرته على اكتشاف مناهج جديدة ، توصله الى العلم ، وتساعده على كشف الحقائق . وبقدر مايتخلص من الشرائع الكنسية وسلطاتها يتم اكتشافه الشرائع الانسانية والقانون الوضعى .

والثقافة الوطنية هى الأساس الذى منـه تخرج الايديولوجيات السياسية . وان أية أيديولوجية سياسية ترد من خارج الثقافة الوطنية يسهل حصارها وعزلها ثم استبعادها . وقد استطاعت الثقافة الوطنية كأية أيديولوجيات سياسية وهويات قومية تثوير الشعوب . فقد كان الأدب الروسى هو الوعاء الذى منه خرجت الثورة الروسية ، وكانت حلقات الأدباء نواة تخرج منها حلقـات الثوار . كمـا كانت الثورة

---

(٣) انظر مقالنا : « التواصل والتراث والتغير الاجتماعى » فى دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ وأيضا ، التراث والتجديد ، ص ٣١ — ٣٤ .

الفرنسية ابنة حركة التنوير • وكانت الثورة الامريكية امتدادا للتنوير الفرنسي والتنوير الأمريكي عند توماس بين • وكانت الثورة الايرانية تحقيقا للاسلام كهوية قومية وايديولوجية سياسية فى مواجهة التغريب الفكرى والسياسى ابان حكم الشاه • وقد استطاعت الثقافة الوطنية فى تاريخنا الحديث أن تكون المهد الذى منه خرجت حركاتنا الاصلاحية وثوراتنا الحديثة منذ عرابى حتى عبد الناصر[٤] • الثقافة الوطنية هى جمع بين العلم والمواطنة ، وهما شرطان لتقدم كل شعب • فلا علم بلا التزام قومى ، ولا التزام قومى بلا علم[٥] •

واذا كانت الثقافة الوطنية تشمل كل « البناء القومى » من قيم وسلوك فأنها تكون مزاج الفرد وروح الشعب وتراث التاريخ • وبصرف النظر عن المدارس السلوكية ومدى ابرازها عامل الثقافات فى سلوك الافراد والجماعات فانه مما لاشك فيه أن الثقافة أحد مكونات السلوك • ليست المسألة فقهية صرفة ومماحكات نظرية لا حل لها ، فيها قولان ، ولا مخرج منهما : أيهما أسبق البناء التحتى أم البناء الفوقى ؟ أيهما علة وأيهما معلولا ؟ أن وضع الاشكال على هذا النحو من أجل حل أحادى الطرف وضع غير علمى وحل غير علمى ، خاضع لعقلية الثنائية المتعارضة التى سادت الوعى الأوربى ، تجزئة الحقيقة الواحدة الى عدة عوامل متنافرة متضاربة ثم رد الكل الى أحد أجزائه • ان الواقع كل متشابك ، جدل بين العلل ، أثر متبادل بين البنيتين • وهو ما يؤكده التفسير الجدلى • ويتم الجدل بين البنيتين فى طرف ثالث وهو الشعور الفردى والجماعى ، الوعى الانسانى والحضارى • ومن هنـــا تأتى أهمية ظاهريات هيجل وظاهريات هوسرل •

---

(٤) انظر مقالاتنا : « الدين والثورة فى الثورة العرابية » ، « عبد الناصر والدين » ، « عبد الناصر والشاه » ، « عبد الناصر والحلف الاسلامى » . الفصل الرابع ، الدين والثورة الوطنية •

(٥) انظر مقالاتنا : « الاصلاح الجامعى » ، « الجامعة والوطن » ، « المصدر السابق » ، الفصل الاول ، الدين والثقافة الوطنية وأيضا « رسالة الجامعة » فى قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ص ٢٠٨ — ٢٢٦ •

والثقافة الوطنية ليست وحدة متجانسة تعبر عن نسق واحد ، عن مذهب محكم بل تضم مكونات عديدة متنافرة ومتناقضة ، بل الايجاب والسلب ، بها الأمثال العامية والحكم الشعبية بل والعقائد المذهبية التى تحث على العمل والجهد ، وترفض الظلم والقيم والاستكانة والخنوع ، وبها أمثلة مضادة تدعو الى ترك الأمور تسيرها المقادير والى الاستسلام للمكتوب . ويرجع هذا التناقض الى أن مكونات الثقافة الوطنية افراز لعديد من الظروف المتباينة ، وتعبير عن كافة الطبقات الاجتماعية بمصالحها المتعارضة . ويكون التحدى الأعظم هو كيف يمكن تحييد الجوانب السلبية وابراز الجوانب الايجابية من أجل تنشيط الذهن وتعبئة الجماهير . فاذا ما اعتمدت نظم القهر والطغيان على الجوانب السلبية تأكيدا لحق السلطان وواجب الطاعة فان فرق المعارضة تستطيع الاعتماد على الجوانب الايجابية تأكيدا لحق الشعب وواجب الثورة(٦) .

وأخيرا ، تعبر الثقافات الوطنية عن خصوصيات الشعوب ضد ما يسمى بالثقافة العالمية التى ما تكون فى العادة الثقافة الغربية وضد شمولية العلم الذى هو فى العادة أيضا العلم الغربى نظرا لأن الثقافة المعاصرة والعلم الحديث قد ظهرا فى عصر الريادة الأوربية فى القرون الخمسة الأخيرة . وبالتالى فهى قادرة على حماية الشعوب من هيمنة ثقافة على أخرى . ان الثقافة الواحدة الشاملة والعلم الواحد الشامل انما هو أسطورة تروجها الثقافة الرائدة والعلم الحديث من أجل الهيمنة الثقافية ونقل العلم من المركز الى المحيط . كل ثقافة هى ثقافة محلية بالضرورة . وكل علم هو أيضا محلى بالضرورة نظرا لأن العلم هو أحد الأنشطة الذهنية ، يعكس البنية الثقافية للحضارة التى ينشأ فيها هذا العلم . ان خصوصيات الثقافة الوطنية لا تعنى وجود جزر منعزلة لا رابط بينها ولا اتصال . فهناك الترجمة والنقل بين الثقافات ، وتبادل الالفاظ واستعاراتها ، واكمال المعانى ورؤية الاشياء . وقد حدث ذلك

---

(٦) انظر دراستنا : « موقفنا من التراث الغربى » ، فى قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فى الفكر الغربى المعاصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة .

بين الثقافة الاسلامية والثقافة اليونانية والفارسية والهندية القديمة . كما أن تشابه الامثال العامية وترادف حكمة الشعوب التي تخترق كل الثقافات انما تدل على وجود طبيعة بشرية واحدة وراء الرصيد الانساني المشترك . هناك اذن مستويات للروابط بين الثقافات : مستوى المعاني والماهيات عن طريق الترجمة والنقل والتبادل الحضاري ، ومستوى التجارب البشرية المشتركة ووحدة الطبيعة الانسانية وتجانسها عبر الزمان (٧) .

ثانيا : الثقافة الوطنية والايديولوجيات المعاصرة فى مصر .

كان اغفال أهمية الثقافة الوطنية فى تاريخنا المعاصر أحد أسبابه تعثر نهضتنا الحديثة وردة ثورتنا المعاصرة . فاذا كنا قد عرفنا خمس أيديولوجيات للنهضة فانها جميعها وعلى درجات متفاوتة لم تؤسس ابنيتها باحكام تام على مكونات الثقافة الوطنية للشعب . فجاءت محاضرة مبتسرة ، معزولة عن ثقافة الجماهير على النحو التالى :

١ ـ لقد استطاعت « الليبرالية » الممثلة فى حزب الوفد والتى حكمت مصر حتى قبل الثورة المصرية الحديثة أن تؤسس نفسها على التراث الوطنى المصرى منذ ثورة ١٩١٩ وما بعدها . وخرج كتابها ، وبصرف النظر عن ولائهم الحزبى لهذا الجناح أو ذاك ، يدعون للحرية ، ويطالبون بأعمال العقل ، ويدافعون عن الدستور والنظم البرلمانية وتعدد الاحزاب . وظهر فى هذا الاطار « حياة محمد » ، « فى منزل الوحى » .. الخ . ولكن ظلت الليبرالية محصورة فى طبقة الباشوات ، وظل التجديد أحد انجازاتها . أما ثقافة الجماهير فظلت دينية تقليدية محافظة ترفض الانقطاع عنها والعنف معها كما حدث مع « الاسلام وأصول الحكم » ، « الشعر الجاهلى » ، « تحرير المرأة » ، « من

---

(٧) هذا بحث شامل من أجل ان يكون مظلة عامة لكل البحوث الموجودة فى هذين الجزئين من « الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ ـ ١٩٨١ » بأقسامهما التسعة . وقد ألقى فى الأصل كمحاضرة فى ندوة الخميس فى منزل صديقنا د. عبد المنعم تليمة عام ١٩٧٦ ، وقد قمنا بصياغة هذا البحث فى سبتمبر ١٩٨٧ من النقاط العلمية التى كونت هذه المحاضرة .

بعثا نبدأ » •• الخ • ظلت الليبرالية أقرب الى الايديولوجية الوافدة منها الى الايديولوجية الموروثة ، تقليدا للغرب وليس بعثا للقديم ، أسوة بأوربا وليس احياء للمعتزلة • فلم ينجح تركيب الليبرالية الوافدة على الأشعرية والتصوف المكونين الرئيسيين للثقافة الشعبية • لذلك سرعان ما انهارت أمام المحافظة التقليدية والموروث القديم • كانت الليبرالية مجرد نتوء سطحى فى الحياة السياسية ، ولم تكن رافدا أصيلا فى ثقافة الجماهير •

٢ — ثم اعقبتها « الاشـــتراكية العربية » بعـــد تطورها من التمصير الى الاشتراكية الديمقراطية التعاونية ونهايتها فى الاشتراكية الديمقراطية ابان الثورة المصرية[٨] • وعلى الرغم من تعبيرها عن مصالح الجماهير الا أنها لم تنبثق من ثقافتها الوطنية بالرغم من أدبيات الاشتراكية والاسلام التى غلب عليها الطابع الدعائى الذى قام به جهاز الدولة لتبرير قرارات السلطة السياسية • ولو أن الســـلطة اختارت الرأسمالية طريقا للتنمية وعادت الاشتراكية لخرجت أدبيات الاقتصاد الحر فى الاسلام كما يحدث الآن فى البنوك الاسلامية وشركات توظيف الأموال واتهام الاشتراكية بالشيوعية والالحاد باسم الاسلام • لم ترتبط الأهداف القومية بالثقافة الوطنية ارتباطا عضويا ، وظلت فى مجموعها أهدافا علمانية أو على أكثر تقدير تعبيرا مباشرا عن مصلحة الجماهير مثل التحرر من الاستعمار ، تذويب الفوارق بين الطبقات ، تكوين القطاع العام ، اعطاء حقوق العمال ، الاصلاح الزراعى ، توزيع الأرض على الفلاحين ، التصنيع ، مجانية التعليم ، تحالف قوى الشعب العامل ، الوحدة العربية ، سياسة عدم الانحياز ••• الخ • بل تمت معادات كل محاولة جادة لتأصيلها عن اقتناع وصدق قبل الثورة وبعدها مثل « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » ، « معركة الاسلام والرأسمالية » « السلام العالمى والاسلام » •• الخ ، حرصا على السلطة ، واحتكارا للفكر والممارسة ، وخوفا من تحول الأصالة الفكرية الى تيار سياسى

---

(٨) انظر دراساتنا : الدين والتنمية ، الدين وتوزيع الدخل القومى فى مصر ، الفصل الخامس ، الدين والتنمية القومية •

وتنظيم شعبى وحركة جماهيرية بديلة عن السلطة السياسية ، سلطة الضباط الأحرار • نشأ الصراع بين ممثلى المكون الرئيسى للثقافة الوطنية وهم الاخوان المسلمون وبين حاملى الاهداف القومية الجديدة وهم الضباط الأحرار وانتصر الضباط الأحرار فانزوى الاسلام فى القلوب ، وانحسر عن المشاركة فى الحياة العامة ، وتحول تحت وطأة التعذيب والحصار الى اسلام محافظ راغب فى الانتقام ، رافض لكل شىء • استشهد سيد قطب ، واستمر التعذيب بين جدران السجون ، ولم توجد جماعة اسلامية علنية تقوم بمهمة التربية الاسلامية مما نتج عنه اصابة المجتمع بالتفسخ والانحلال وبالتالى دفع الاسلام المحافظ الى التشدد والى مزيد من المحافظة • ولقد استعمل هذا المكون الرئيسى للثقافة الوطنية لضرب هذه الأهداف ذاتها بطريق غير مباشر نظرا لأن هذه الأهداف صورت على أنها خارجية وافدة مفروضة على الناس • وما أسهل ما تنشط الثقافة الوطنية فتجند الجماهير ، وتجرف أمامها كل ثقافة اعلامية وكل سلطة سياسية • وكان نتيجة لتقوقع الاسلام على ذاته دفاعا عن نفسه ضد مضطهديه أن اعتبرت الثقافة الوطنية غاية فى ذاتها وليست وسيلة لتحقيق الأهداف القومية • وحتى تزايد السلطة السياسية على أنصار الاسلام المضطهد أمام الجماهير كثر الحديث عن تأكيد الهوية وكأنها غاية فى ذاتها ، وتم تأسيس فرق الفنون الشعبية ولكن دون تسييس ودون أن تكون وسيلة عضوية ، لا اعلامية ، لتحقيق الأهداف القومية •

٣ ـــ أما جماعة « الاخوان المسلمين » واستمرارها فى الجماعات الاسلامية الحالية فانها تمثل المكون الرئيسى للثقافة الوطنية وهو الاسلام • وبالرغم من أنها على حق من حيث المبدأ الا أن الثقافة الوطنية التى تمثلها ونظرا لتهميش الجماعة بقوة الطرد المركزى اما الى داخل السجن أو الى خارج البلاد لم تمتلأ بالدافع الذى تعيشه الأمة ، وظلت فارغة بلا مضمون متقوقعة على ذاتها وكأنها غاية فى ذاتها وليست وسيلة لتحقيق مصالح الناس تستعمل كشعار واعلان بعد أن تم

استئصالها من كافة أجهزة الاعلام . وقد عادت بعض الممارسات فى سلوك الجماهير على أساس أنها بدع مع أنها أصبحت جزءا من الدين الشعبى مثل الموالد والاعياد الدينية والطرق الصوفية مع أنها يمكن أن تتحول الى مهرجانات سياسية وخلايا حزبية قادرة على تجنيد الجماهير فى الزوايا كما حدث فى المهدية فى السودان والسنوسية فى ليبيا . كما تم اغفال خصوصية الشعوب من أجل عالمية الاسلام مع أن الاسلام ثقافة وطنية تختلف باختلاف الشعوب . الاسلام فى أندونيسيا متزاوج مع الهندوكية ، وفى افريقيا متزاوج مع الثقافات الزنجية ، وفى آسيا مع البوذية . فالاسلام الاسيوى والاسلامى الزنجى كلاهما ثقافات وطنية لشعوب آسيا وأفريقيا . وان أسطورة الثقافة العالمية التى يروجها الغرب كأحد وسائل الهيمنة الثقافية أولا ثم السياسية والاقتصادية والعسكرية ثانيا هى نفس أسطورة الاسلام العام الشامل الذى يغفل قضية الواقع من أجل المبدأ . كما ساد الرأى الواحد والمذهب الواحد على التعدد الفكرى والمذهبى الذى يميز الثقافات الوطنية مما يؤدى الى تسكينها ويفقدها القدرة على الحركة واثارة الاذهان والقدرة على الحوار الخلاق والنقاش الحر . ولما كانت الثقافة الوطنية ثقافة مضمون تلقائية خلاقة فان مايقتلها هو الوقوع فى التفسير الحرفى لمكونها الرئيسى وهو الاسلام ، والنزول من النص الى الواقع بدلا من الصعود من الواقع الى النص . وقد يستعمل الرافد الرئيسى للثقافة الوطنية للوصول الى الحكم عن طريق القفز على السلطة دون اعادة بناء للثقافة الوطنية وقبل تعبئة الجماهير ، واعتمادا على جدل الكل ولاشىء ، اما أن يؤخذ الاسلام كله أو يترك كله ، وبنوع من الغضب والتشنج وضيق الصدر وفاعا عن حق الله وليس دفاعا عن حقوق الانسان[٩] .

٤ ــ أما « الماركسية » فانها تبدو وكأنها تعتمد على الثقافة الوطنية ، وتشجع الفنون الشعبية ، وتكثر الحديث عن الشعب والثقافة الجماهيرية ،

---

(٩) انظر مقالاتنا : ماذا كسبت مصر من جماعة الاخوان ؟ ماذا خسرت مصر بالقضاء على جماعة الاخوان ؟ كيف يمكن تطوير فكرة الاخوان ، الجزء الثانى « فى اليسار الدينى » الفصل الثامن : اليمين واليسار فى الفكر الدينى .

وتنشأ المجلات باسم « الثقافة الوطنية » الا أنها ترى أن الايديولوجيا ليست علما ، وأن الثقافة الوطنية أشبه بالايديولوجيات ، وبالتالى فهى ليست علما • الماركسية وحدها فى العلم ، علم المادية التاريخية أو المادية الجدلية • وبالتالى فهى ترتفع على الثقافة الوطنية وتعتبرها أقرب الى الفن والتسلية منها الى العلم الاجتماعى • وتبتسر الماركسية من الثقافة الوطنية الفن والأدب باعتبارهما عنصران مكونان لأمزجة الشعوب ، وتترك السياسة للماركسية كعلم شامل مع أن الثقافة الوطنية أيضا مليئة بالرؤى السياسية ، وكأن الهدف هو اثبات المبدأ أى الالتزام بثقافة الشعب على مستوى الفنون الشعبية من أجل افساح المجال للعلم الشامل أو للايديولوجيا العلمية وهى الماركسية والتى هى فى الحقيقة أقرب الى الثقافة الغربية منها الى العلم الشامل • وكثيرا ما تعزو الماركسية الثقافة الوطنية الى ثقافة الطبقة • ولما كان الصراع بين الطبقات هو أساس الحراك الاجتماعى فان الثقافة الوطنية ماهو الا السلاح الايديولوجى الذى تستعمله كل طبقة لكسب هذا الصراع • وهنا تضيع وحدة الثقافة الوطنية كما تضيع وحدة الشعب • انه ممالاشك فيه أن الثقافة الوطنية افراز لكافة الطبقات الاجتماعية خاصة الطبقات الشعبية التى تعبر عن نفسها بالامثال والحكم اكثر مما تعبر عن نفسها بالفن الرفيع كما هو الحال فى الطبقات العليا • ولكن ذلك لايعنى عدم وجود ثقافه وطنية واحدة لشعب تظهر فيها روح الشعب من خلال تعدد الطبقات الاجتماعية وتضارب مصالحها •

٥ ـــ أما عن الحزب الوطنى حزب « مصر الفتاة » الذى حاول الجمع بين الوطنية والاسلام فانه اعتمد بالفعل على الاسلام كأساس وطنى وليس كنظرية سياسية ، مجرد عاطفة دينية لتحميس الناس وليس كرؤية سياسية تحقق مصالحهم • كما ارتبط الاسلام بدولة الخلافة أكثر من ارتباطه بالثقافة ، وبسياسة المحاور أكثر من ارتباطه بالتراث • كان الارتباط بين الوطنية والاسلام على أساس خطابى وليس على أساس علمى عقلى عن طريق اعادة فهم الاسلام بناء على متطلبات

الأمة وفى مواجهة تحديات العصر • وكان يغلب عليه طابع الممارسة العملية أكثر من طابع التأصيل النظرى • ولا يستبعد العنف كأحد وسائل الممارسة مما قد يتعارض مع روح الشعب وبنية الثقافة الوطنية •

ثالثا : الثقافة الوطنية والمفاهيم الموازية :

وقد نشأ مفهوم الثقافة الوطنية من عدة مصادر فى تاريخ الفكر أصبحت كلها مفاهيم موازية ومتبادلة مع مفهوم الثقافة الوطنية • وتندرج كل ثلاثة مفاهيم تحت مجموعة واحدة فمثلا مفاهيم روح العصر **Zeitgeist** وروح الشعب **VolKsgeist** وروح الحضارة **Kulturgeist** تندرج كلها تحت مفهوم الروح فى الفلسفة الألمانية • أما مفاهيم الشخصية القومية **National Character** والايديولوجيا وتصورات العالم **Weltanschauung** فهى أيضا تندرج تحت الجانب النظرى والعملى ، العرفى والسلوكى للوعى الفردى والوعى الاجتماعى • أما مفاهيم الدين والتقاليد والتراث ، وقيم الطبقة ، والعادات والأعراف فانها أقرب الى علم الاجتماع الوضعى والى السلوك والعقل الجمعى • اما علم اجتماع المعرفة ، وأنثروبولوجيا الثقافة ، وعلوم التفسير فهى أهم العلوم التى تتطرقت لمفهوم الثقافة الوطنية وأصبحت مرادفة لهـا • وأخيرا كانت حركات التحرر الوطنى ، وايدلوجيات العـالم الثالث ، وعلاقات الشرق والغرب الحضارية مفاهيم موازية حاملة لمفهوم الثقافة الوطنية •

١ — « روح العصر » • ويعنى المصطلح عند هيجل أن لكل عصر روحه وطابعه ومحوره وقصده وهدفه الرئيسى • ففى عصر الوثنية ينشأ الاتجاه الطبيعى ، وفى عصر الرومانسية ينشأ الاتجاه الدينى أو الذاتية الفردية • وفى كل فترة هناك روح غالبة : العقل عند اليونان ، والايمان فى العصر الوسيط ، والعلم فى العصر الحديث • كما أن روح العصر تعبر عن نفسها فى علم أو فى فن أو فى فلسفة وتكون فيه الأولوية لاحدى قوى النفس على قواها الأخـرى • ففى عصر العقل وحضارته ينشـأ

المنطق الصورى ، وفى عصر الصراع الاجتماعى ينشأ المنطق الجدلى ، وفى عصر العلم ينشأ المنطق التجريبى ، وفى عصر الرياضيات ينشأ المطق الرياضى والرمزى ... الخ .

٢ — « روح الشعب » . ويعنى المصطلح عند هردر أن لكل حضارة روحا وقصدا وابداعا . هناك حضارة الواحد فى مقابل حضارة التعدد والكثرة ، وهناك حضارة الروح فى مقابل حضارة الطبيعة . وهناك حضارة يغلب عليها الطابع الصورى المجرد واخرى يغلب عليها الطابع المادى الملموس . وقد لاحظ ابن سينا ذلك من قبل فى تمييزه بين خصائص المنطق اليونانى والشعر العربى ، الأول يقيس الاشباه بالاشباه والنظائر بالنظائر بينما الثانى يصف الشخصيات والافراد . وقد اشتهر هذان المفهومان فى القرن الماضى وكانا المفهومين الرئيسيين حول أدبيات كثيرة عن « سيكولوجيا الشعوب » . Psychologie des Peuples

٣ — « روح الحضارة » وهو نفس المفهوم السابق مع تنوع جديد وتركيز على الحضارة اكثر من التركيز على العصر أى المرحلة التاريخية أو الشعب أى على الخصائص القومية . وقد استعمله اشبنجلر وتوينبى وريبيرو . Ribiero . نشأ هذا المفهوم من ثنايا فلسفة التاريخ وتتابع الحضارات . يطلق اشبنجلر على الحضارة الاسلامية « حضارة الكهف » أى نصف الخط الدائرى كالقبو مشيرا الى نشأة الدولة وسقوطها كما فعل ابن خلدون . كما يطلق على الحضارة الأوربية « حضارة السهم » أى الخط المستقيم المرتفع مشيرا الى مسار التقدم . ولكل حضارة عدة محاور رئيسية مثل الله والشعب والأرض فى اليهودية ، والخلود فى مصر القديمة ، والرئيس فى حضارات الشرق ، والدولة فى الصين ، والانسان والطبيعة فى الحضارة الغربية الحديثة . وكل حضارة لها شخصية وطنية تجسدها مثل جان دارك أو ديجول فى فرنسا ، وجوته أو بسمارك فى المانيا وسرفنتيس فى اسبانيا ، وشكسبير أوكرومويل فى انجلترا ... الخ .

٤ — « الشخصية القومية » هى أيضا احد المفاهيم الموازية لمفهوم الثقافة الوطنية • وقد كان هو المفهوم الرئيسى فى أوربا فى القرن الماضى بعد تفتت الامبراطوريات النمسوية والمجرية وبداية العصر الحديث ، عصر القوميات • وقد حمل هذا المفهوم « علم نفس الشعوب » وبدايات الاستشراق والدراسات حول خصائص الشعوب وطبائعها لاحكام السيطرة على الشعوب اللاوربية ومعرفة عناصر القوة لدى الشعوب الأوربية • وعادة ما يصبح الافراد المتميزون ضحية التعميمات والانتقال من الملاحظات الجزئية الى الأحكام الكلية •

٥ — « الأيديولوجيا » ويعني هذا المفهوم مجموعة العقائد والتصورات والقيم التى تعبر عن فترة تاريخية معينة عند شعب معين تحدد رؤاه للعالم وتعطيه بواعث للسلوك • تنبع من واقع كنظرية كى تعود اليه كممارسة هناك أيديولوجيا المانية ، ومن نقدها نشأت الماركسية • وهناك أيديولوجيا فرنسية عند الفلاسفة الفرنسيين الشبان • وهناك محاولات لابراز « الايديولوجيا العربية المعاصرة » • ومفهوم الايدلوجيا من المفاهيم التى راجت فى فكرنا المعاصر ، وانجذب اليها شباب المثقفين سدا للنقص النظرى واشباعا لحاجة ملأ الفكر اذا ماانزوى الدين فى العقائد ، وغابت رؤية الطبيعة ، وعز التنظير المباشر للواقع • وبالرغم من المعركة التى دارت حول نهاية الايديولوجيا وبداية التكنولوجيا الا أن هذا الحكم ذاته حكم ايديولوجى صرف ، حكم على واقع لم ينته بعد • كما أن التكنولوجيا تحمل فى طياتها ايدلوجيا ضمنية تظهر فى التصميم والتخطيط والأثر الاجتماعى والثقافى والحضارى • تصميم السد العالى يكشف عن الايديولوجيا الباطنة (قناة واحدة كبيرة فى مقابل قنوات متعددة) والحسابات الآلية الصغيرة (اليابان) تكشف عن روح حضارة وخصائص شعب فى مقابل الحاسبات الآلية الضخمة (ألمانيا ، أمريكا) •

٦ — « فلسفات تصورات العالم » • وقد ساعدت على بلورة مفهوم الثقافة الوطنية • وهى الفلسفة التى وضعها دلتاى مؤسسا بها

الوعي التاريخي كرد فعل على النزعة التاريخية الصماء التي سادت القرن الماضي في الغرب • فالفن والعلم والدين والفلسفة كلها تساهم في تكوين تصورات العالم في كل عصر • ومايظهر في أحد فروع المعرفة يظهر في فرع آخر بصورة أخرى • وتساهم علوم التفسير في التعرف على تصورات العالم التي ترتكز على أسس نفسـية وتعبيرية لغوية • تصورات العالم هي الوحدات الثقافية الأولى التي تجب مفاهيم الشعب والشخصية القومية •

٧ ــ « الدين والتراث » وقـد يتخصص مفهوم الثقـافة الوطنية ويصبح مرادفا لأهم مكوناته وهو الدين والتراث بمالهما من قدرة على الترسب في الوعي القومي التاريخي • ويتضح ذلك في ثقافتنا الوطنية التي ترسبت فيها قيم الصبر والتوكل والرضا والقناعة الموروثة من علم التصوف • كما سادتها عقائد القضاء والقدر وانكار العلل المباشرة الموروثة من علم أصول الدين وتخللتهـا قيم وتصورات مثل أولوية الفضائل النظرية على الفضائل العملية ، وسيادة التصور الهرمي للعالم ، وغياب الانسان الموروث من علوم الحكمة[١٠] •

٨ ــ « قيم الطبقة » وهو مفهوم ماركسي يخصص الثقافة الوطنية ويراها من خلال التركيب الطبقي للمجتمع • صحيح أن لكل طبقة قيمها • قيم الطبقة العليا في الحرية والعقل والفردية والجمال والانسانية والعلم والتحضر والتمدن وكل مامن شأنه الاعلاء من شأن الفرد ومن مميزات الطبقة • وقيم الطبقة الوسطى تتركز في القانون والنظـام والآداب العامة « والاتيكيت » الاجتماعي وكل مامن شأنة الابقاء على الوضع القائم • وقيم الطبقة الدنيا تدور حول الرضا والقناعة والتوكل والصبر

(١٠) انظر مقالاتنا : مخاطر في فكرنا القومي ، مخاطر في سلوكنا القومي ، مخاطر في وجداننا القومي . الفصل الأول ، الدين والثقـافة الوطنية . وأيضا لمـاذا غاب مبحث الانسان في تراثنا القديم ؟ لماذا غاب مبحث التاريخ في تراثنا القديم ؟ دراسـات اسـلامية ص ٣٩٣ ــ ٤٥٦ ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨١ .

والاستسلام للمقادير قبل أن تتحول الى قيم الحياة والنضال والفعل فى لحظات الثورة[11] •

٩ — « التقاليد والعادات والاعراف » • وهنا تتحول المفاهيم والمصطلحات الى مجرد لغة شائعة تشير الى أحد مكونات الثقافة الوطنية • فهذه جزء رئيسى فيها • ليست الثقافة فقط عقائد نظرية وقيم وتصورات مجردة بل هى أيضا مجموعة من الممارسات العملية تكشف عن أنماط محددة فى السلوك • لقد كتب كثيرا عن عادات الشعوب وأعرافها حتى أصبحت سمات مميزة لها : حديث الانجليزى عن الطقس ، واعجاب الفرنسى بجمال المرأة وتذوقه للفنون التشكيلية خاصة الرسم ، قدرة الالمانى على الموسيقى والميتافيزيقا ، حب الروسى للأرض ، صوت الايطالى العالى فى حياته العامة وفى حبه للغناء الأوبرالى ، فظاظة الروسى ، نكتة المصرى ، طيبة السودانى ، سذاجة الأمريكى • وقد جسدت الأداب شخصيات قومية مميزة مثل جحا العربى ، وماريوس الفرنسى ••• الخ •

١٠ — « علم اجتماع المعرفة » درس أيضا الثقافة الوطنية وان اختلفت اسماؤها • فان كان علم اجتماع المعرفة يدرس العلاقة بين المذاهب والأفكار والاراء والنظريات من ناحية وبين الظروف الاجتماعية التى منها نشأت هذه النظريات فان الثقافة الوطنية هى أيضا العلاقة بين الابنية النظرية وتصورات العالم وموجهات السلوك ومعاييره وقيمه عند شعب معين من ناحية وبين الظروف التى يعيشها الآن ، وكيف يمكن أن تكون هذه الثقافة والمعتقدات والقيم أحد وسائل التغير الاجتماعى ايجابا أم سلبا ، باعثا أم عائقا • انما المهم عدم الوقوع فى الرد الاجتماعى Sociological Reductionism أى اعتبار الثقافة الوطنية مجرد انعكاس للظروف الاجتماعية وتعبير عنها دون أن تكون لها الأولوية عليها والاستقلال عنها والفاعلية والتأثير فيها • فالثقافة الوطنية هى

(١١) أنظر مقالنا : التفكير الدينى وازدواجية الشخصية فى قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ، ص ١١١ — ١٢٧ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ •

ثقافة سياسية Political Culture وان كان المكون الغالب عليها فى البلاد النامية هو الموروث الدينى .

١١ – « الانثروبولوجيا الحضارية » أو « انثروبولوجيا الثقافة » .
وهى أحد العلوم مثل علم اجتماع المعرفة الذى يدرس موضوع الثقافة الوطنية بطريقته الخاصة عن طريق دراسة ثقافات الشعوب فى عصورها التاريخية المختلفة من أجل العثور على عناصر ثابتة فيها ثم قياس نسبة الثوابت من المتغيرات بصرف النظر عن الدوافع وراء التعرف على خصائص الشعوب من أجل سيطرة شعب واحد على باقى الشعوب ، ومن أجل هيمنة ثقافة واحدة على باقى الثقافات ، وبصرف النظر عن النتائج فيما يتعلق بالأحكام العامة وخلق موضوعات وهمية مثل العقلية البدائية La Méntalité Primitive أو الفكر البرى La Pensée Sauvage

١٢ – « علم التفسير » Hermeneutics . وقد تعرض هذا العلم الى موضوع الثقافة الوطنية عن طريق الكشف عن البيئة الثقافية الشعبية التى منها خرج النص نشأة وتكوينا ، وصياغة وتقنينا والتى اليها يعود قراءة وتأويلا ، فهما وتفسيرا . فلا يفهم نص الانجيل الا بالرجوع الى البيئات الثقافية اليهودية واليونانية فى فلسطين . ولايفهم نص القرآن الكريم الا بالرجوع الى الثقافات العربية فى شبه الجزيرة . ولا يمكن فهم نص التلمود الفلسطينى أو البابلى الا بالرجوع الى البيئة الثقافية فى فلسطين وفى العراق[١٢] .

---

(١٢) لنا دراسات كثيرة فى علوم التفسير وأهمها :
Les Méthodes d' Exégèse, Essai Sur La Science des Fondements de la Compréhension, ilm Usul al - Fiqh, Le Caire, Paris, 1965, L' Exégèse de la phénoménologie, L' état actuel de la Méthode phénoménogique et son application au phénomène religieux. Paris, 1966, Le Caire 1978 ; La Phénoménolgie de L' Exégése, Essai d'une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, Paris, 1966. Le Caire. 1988 : Hermeneutics as Axiomatics, in : Religious Dialogue and Revolution, Le Caire, 1977.

انظر دراستنا : مدرسة الاشكال الادبية ، مجلة الف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
« قراءة النص » ، مجلة ألف ، القاهرة ، ١٩٨٨ وأيضا فى « دراسات فلسفية » ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ ، « هل لدينا نظرية فى التفسير ؟ » ، « أيهما أسبق : =

١٣ — « حركات التحرر الوطني » . قامت هذه الحركات بفضل الثقافة الوطنية واعتمادا على اليهودية الثقافية باعتبارها هوية قومية ضد التعريب والفرنسية والتتريك والبلشفة . كما ساهمت هي نفسها في خلق تيارات ثقافية جديدة تربط بين الثقافة والوطن في الفكر والعلم والفن وتفسير الدين والقانون والتاريخ . وهي تدل على البعد العملي في الثقافة الوطنية لايقل أهمية عن بنائها النظري .

١٤ — « أيديولوجيات العالم الثالث » . وقد كثر الحديث عن الثقافة الوطنية في أيديولوجيات العالم الثالث باعتبارها محاولة للاستقلال الفكري والثقافي والحضاري عن المذاهب الفكرية والسياسية في الحضارة الغربية آخذة في الاعتبار قضايا الأوطان . وقد وضح ذلك في : « الوجدانية » لنكروما ، « المعذبون في الأرض » لفانون ، « مقال في الاستعمار » لاميه سيزير ، « أوجاما » لنيريري ، المقاومة السلمية عند غاندي ، « الاسيوية الافريقية » لمالك بن نبي ، « النظرية الثالثة » للقذافي ، « فلسفة الثورة » لعبد الناصر ، ايديولوجية البعث عند ميشيل عفلق ... الخ . وهناك كثير من الكتابات الايديولوجية في العالم الثالث تبدأ من الثقافة الوطنية كموضوع بديهي وواقع ملموس . بل انها استطاعت أن تتحول الى ايديولوجيات سياسية سواء في التحديث الداخلي للمجتمعات مثل التجربة الصينية مثلا أو في العلاقات الدولية بين الشرق والغرب مثل عدم الانحياز ، الحياد الايجابي ، تضامن الشعوب الاسيوية الافريقية ، القارات الثلاث ... الخ .

١٥ — « ثقافات الشرق والغرب » . وأخيرا تمتد الثقافات الوطنية خارج حدود الاوطان الى ثقافات الشرق والغرب . وكما هو معروف من فلسفات التاريخ ومن الأدباء والشعراء يوجد تقابل بين الشرق الفنان والغرب العالم ، بين الشرق الروحاني والغرب المادي ، بين الشرق حيث بدأت الحضارات فيه حول انهاره العظيمة في الصين والهند ومصر وبين الغرب الحديث الذي لا تمتد جذوره في التاريخ أبعد من العصور

= نظرية في التفسير أم منهج في تحليل الخبرات ؟ » ، « عود الى المنبع أم عودة الى الطبيعة ؟ » قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، في فكرنا المعاصر ، ص ١٦٥ — ١٧٦ .

الحديثة • وإذا كانت الحضارات قد بدأت قديما من الشرق وسارت نحو الغرب بما فى ذلك اللغات الهندية الأوربية فانها الآن ، وبعد عصر انتهاء الريادة الغربية ، قد تعود الى الشرق من جديد على ما هو معروف الآن باسم « ريح الشرق » • وعلى الرغم مما يكون فى هذا المفهوم الأخير من شوفينية شرقية أو رد فعل على العنصرية والهيمنة الثقافية الغربية الا أنه يمكن أن يتحول الى علم دقيق لتأسيس فلسفة جديدة للتاريخ تتجاوز عصر المركزية الأوربية •

رابعا : المادة العلمية للثقافة الوطنية •

الثقافة الوطنية ليست مفهوما ثقافيا عاما أو مفهوما فنيا أو مفهوما سياسيا بل تتكون من مادة علمية يمكن وصفها وتحليلها • هى ليست شعارا يطلق بل عملية تصنع ، وبناء يكتشف • ويتكون هذا الرصيد من الثقافة الوطنية من الآتى :

١ ـ الدين سواء كان الدين كما هو موجود فى الكتب المقدسة ، فى القرآن والانجيل والتوراة وكما هو مطوى فى كتب التراث أو كان الدين كما يلقن فى المساجد والكنائس والمعابد والمدارس وأجهزة الاعلام أو الدين الشعبى كما هو ممارس فى الاضرحة والمزارات والاعياد والموالد والطرق الصوفية • فلا يوجد حد قاطع بين الدين الرسمى والدين الشعبى ، بين دين النصوص ودين الممارسة ، بين دين الكتب ودين الشوارع •

٢ ـ العقائد السائدة التى ترسبت فى وجدان الشعب سواء العقائد الرسمية النمطية مثل التوحيد والنبوة والمعاد أو العقائد فى صياغاتها الموروثة من خلال الفرقة التى سادت وانتصرت على مدى ألف عام وهى الاشعرية أى تراث السلطة فى مواجهة تراث المعارضة الذى لم يعش طويلا ، ولم يترسب الكثير منه فى وجداننا القومى مثل تراث الخوارج (المعارضة المسلحة العلنية من الخارج) وتراث الشيعة (المعارضة السرية المسلحة من الداخل) وتراث المعتزلة (المعارضة العلنية الفكرية من

الداخل) • ويمكن أخذ نماذج أخرى من الكونفوشيوسية فى الصين ابان المسيرة الطويلة ابان حرب التحرير •

٣ ـــ العلوم الدينية القديمة سواء ما ترسب منها فى الوعى القومى

وبقى مثل العلوم النقلية ، علوم القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه ، أو العلوم العقلية النقلية مثل علوم التصوف الاشراقى أساسا وعلم أصول الدين الاشعرى ، وعلوم الحكمة الاشراقية ، وعلم أصول الفقه النصى الافتراضى • وهى العلوم التى تمتلأ بها المكتبات العامة وترددها أجهزة الاعلام وتمتلىء بها كتب التربية الدينية والتى تروج فى المطابع ، ويعظم منها الكسب ، ويكثر منها الاقتباس ، ويعتمد عليها فى التعالم ، وطلب السلطة ، وطاعة الجماهير •

٤ ـــ التاريخ الحى للصحابة الأوائل والذين عاشوا قدوة فى وجدان الشعب مثل عمر ، وأبو بكر ، وأبو ذر ، وعمرو بن عبد العزيز ، وفقهاء الأمة الأجلاء مثل المعز بن عبد السلام ، ورموز الشهادة مثل الحسين وعمار بن ياسر • يقرأ تاريخهم الصغار والكبار بعد أن أصبحوا نماذج للسلوك ومثلا عليا للتربية • وفى حضارات أخرى يوجد هذا التاريخ الحى لدى آلهة اليونان وأبطالهم : جان دارك ، وبوليفار ، وجيفارا ، وتوريز (١٣) وداود ، وسليمان ، وابن عقيبة • ومن أدبائنا شعراء العرب وفرسانها • ومن تاريخنا الحديث المهدى ، السنوسى ، عمر المختار ، عبد الحميد بن باديس ، حسن البنا ، سيد قطب ، محمد باقر الصدر ، الامام موسى الصدر ، بن بلا ، علال الفاسى ••• الخ •

٥ ـــ التاريخ الوطنى الحديث والزعماء الوطنيون الذين مازالوا روادا للحركة الوطنية • تملأ صورهم الحجرات ، وتعم تماثيلهم فى الميادين ، يقتدى بهم الطلاب ، ويذكرون بتخليد أسمائهم كأسماء للشوارع أو المؤسسات العامة وذلك مثل عرابى ، سعد زغلول ، عبد الناصر ، بن بلا • وفى ثقافات وطنية أخرى زعماء مثل ماوتسى تونج ، هوشى

---

(١٣) انظر دراستنا : « كامليو توريز القديس الثائر » قضايا معاصرة ، الجزء الأول ص ٢٨١ ـــ ٣١٨.

منه ، غاندى ، نهرو ، تيتو ، نكروما ، ومعظم قادة التحرر فى العالم الثالث الذين مازالوا يلهبون خيال عدة أجيال •

٦ ـ الأمثال العامية والأغانى الشعبية والحكم المأثورة ، والحكايات والاساطير والسير والملاحم والمغازى ••• الخ • وهى المصدر الدنيوى للثقافة الشعبية بعد مصدرها الدينى فى الدين والعقائد والعلوم الدينية • وتحفظ الشعوب تراثها الشعبى قدر حفظها تراثها الدينى • يغنى الناس للمطربين ، ويطربون لسماع القرآن • ولقد تكون الوجدان القومى والمزاج الشعبى فى كل حضارة وكما يظهر ذلك خاصة فى فنون الغناء والموسيقى وفنون الرسم والنحت والعمارة من اجتماع هذين الرافدين ، الفن الدينى والفن الشعبى وكما هو واضح فى تاريخ الفنون فى الغرب •

خامسا : الأهداف القومية والثقافة الوطنية •

ان التحدى الأعظم أمام المثقف السياسى وعالم السياسة هو كيف يمكن للثقافة الوطنية وهى العنصر الرئيسى فى التكوين النفسى للجماهير أن تكون حاملا للأهداف القومية ؟ كيف يمكن أن نجد فيها عناصر ثقافية قادرة على أن تكون أساسا نظريا للتحرر من الاستعمار ، وتحرير الأرض من الغزو الأجنبى ، والقضاء على الاحتلال وهو الهدف القومى الأول فى فلسطين وسبته ومليلية وأفغانسان وكشمير ؟ كيف يمكن أن نجد عناصر أخرى فى الثقافة الوطنية تكون أساسا لتحقيق الهدف القومى الثانى وهو التحرر من القهر الداخلى والقضاء على الطغيان السياسى ؟ ثالثا ، هل هناك دوافع فى الثقافة الوطنية قادرة على تحقيق أكبر قدر ممكن من العدالة الاجتماعية ، وتقريب الهوة الشاسعة بين الأغنياء والفقراء ، بين الذين يموتون بطنة وشبعا وبين الذين يقضى نحبهم جوعا وعطشا ؟ رابعا ، هل فى الثقافة الوطنية تصورات لقضايا الوحدة فى مواجهة التجزئة والتشرذم والفتن الطائفية ومعارك الحدود بين الاخوة الاعداء ؟ خامسا ، هل توجد عناصر فى الثقافة الوطنية قادرة على أن تدفع نحو تحقيق التقدم والتنمية فى مواجهة

شتى مظاهر التخلف ؟ سادسا ، هل تستطيع الثقافة الوطنية أن تحمى الهوية فى مواجهة الموجات المتتالية من التغريب ؟ سابعا ، هل فى الثقافة الوطنية مفاهيم قادرة على تجنيد الجماهير وتحويل الكم فيها الى كيف ، وتأسيس تنظيمات شعبية فعالة قادرة على الحركة وسط الناس ؟(١٤)

والرد على هذه الأسئلة كلها بالايجاب ، ففى الثقافة الوطنية مفاهيم وتصورات وبواعث يمكن أن تكون أسسا نظرية ودوافع سلوكية على تحقيق هذه الاهداف القومية التى مازالت تحدد معالم المشروع القومى منذ أن صاغه محمد على لأول مرة عمليا ثم حدده الأفغانى مرة ثانية نظريا ، وحاول عبد الناصر تحقيقه مر ثالثة عمليا . ومازال مطروحا حتى الآن بل ولعدة أجيال قادمة اذ لم يتحقق منه شىء بعد الا تحققا نسبيا جزئيا خاصة فيما يتعلق بالهدف الأول وهو تحرير الأرض . بل ان الأمور تزداد تعقيدا وتشابكا بالرغم من وهم الاستغلال . ويتطلب ذلك وعيا نظريا وجدية علمية بدونهما يقع المثقف السياسى فى الخطابة أو يتلمس الشعارات هنا وهناك مكتفيا بالاعلان دون بضاعة . وهو عمل يتم فى الجامعات وفى مراكز الابحاث قبل أن يتم فى مدارس الاحزاب وتثقيف الكوادر وأجهزة الاعلام . ويمكن أن يتم ذلك على النحو الآتى :

١ ــ التمييز بين الأهداف القومية الرئيسية التى لايختلف عليها اثنان . وهى ما زالت منذ فجر النهضة الحديثة سبعة : التحرر من الاستعمار ، الحرية فى مواجهة أنظمة القهر والطغيان ، العدالة الاجتماعية حلا لمشكلة الغنى والفقر ، الوحدة القومية فى مواجهة التجزئة والتشرذم ، التنمية والتقدم فى مواجهة التخلف ، الهوية القومية فى وجه التغريب ، وأخيرا تعبئة الجماهير ضد السلبية واللامبالاة ــ وبين الاهداف الفرعية مثل التنمية القطرية اذ أنه لا تنمية قطرية الا فى اطار التنمية القومية حلا لمشاكل الغذاء والتجارة ، وتوفير رؤوس الأموال ، والعمالة ، والعلم والتكنولوجيا ، والتصنيع ، والامكانيات

---

(١٤) انظر دراستنا : الفكر الاسلامى والتخطيط لدوره الثقافى المستقبلى ، الكويت ، ١٩٨٣ ؛ دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ١٩٨٨ .

البشرية •• الخ • أما الأهداف الأخرى مثل السيطرة القطرية ، والزعامة القطرية ،ومعارك الحدود بدعوى الدفاع عن التراب الوطنى ، فهى كلها ليست أهدافا قومية بل نتيجة للتجزئة وحب الزعامة والرغبة فى التوسع والسيطرة ووهم الدولة ـ الشعب Nation - State بالرغم مما نسمع منذ الصبا عن الحدود المصطنعة التى وضعها الاستعمار للتفرقة بين أبناء الوطن الواحد وتجزئته وتقسيمه طبقا لمبدأ « فرق تسد » • الأهداف الرئيسية هى أهداف الأغلبية والأهداف الفرعية هى أهداف الأقلية • وان أهداف الأغلبية ، وهى أهداف الشعب الدائمة ، ليست بالضرورة هى أهداف القادة والأنظمة السياسية •

٢ ـ وحدة الأهداف واختلاف الوسائل • وذلك أن وحدة برنامج العمل وتعدد الأطراف النظرية تحقق أكبر قدر ممكن من شحن الطاقات الفكرية والعملية • فكل صاحب مذهب أو رأى أو عقيدة له دور فى تحقيق ما يستطيع من الأهداف القومية التى تمثل برنامج العمل الوطنى الموحد • وكل باعث أو دافع على الفعل شرعى ما دام يحقق الهدف المشترك • فقد يتم تحرير فلسطين دفاعا عن أرض الاسلام وذبا عن البيضة أو دفاعا عن حرية شعب فلسطين وتأسيسا للدولة الديمقراطية العلمانية التى يتعايش فيها كل المواطنون بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية والطائفية أو دفاعا عن الطبقة العاملة ضد استغلال أصحاب رؤوس الأموال أو تحقيقا للوحدة العربية • وهو درس من الأصوليين القدماء فى اعتبار النظر ظنا والعمل يقينا ، وأن الحق النظرى متعدد بينما الحق العملى واحد •

٣ ـ الانتقائية • وذلك أن الثقافة الوطنية تحتوى على الشىء ونقيضه ، على المثل العامى والمثل المضاد • ولا حل أمام المثقف الوطنى الا الانتقاء من اتجاهات الثقافة الوطنية ما يساعده على تحقيق الأهداف • فاذا كان الهدف القومى الأول هو التحرر من الاستعمار فله أن يختار من العقائد ما يساعده على ذلك مثل تلك التى تؤكد على علاقة

الله بالأرض وليس تلك التى تفصل بينهما[١٥] • وإذا كان التحرر من القهر الداخلي هدفا قوميا فيمكن أن يختار من الأمثال العامية والعقائد التى تدفع الى التحرر من الظلم ومقاومة الظالم لا تلك التى تدعو الى الاستكانة والاستسلام • الأهداف القومية اذن هى معيار الانتقاء ، وتحديات العصر هى مقياس الاختيار • الثقافة الوطنية اشبه بالوعاء العام الذى به كل شيء ، واحتياجات العصر ومتطلباته هى الأساس الذى يتم عليه اختيار هذا الجانب أو ذاك •

٤ — الوظيفية • ان الثقافة الوطنية بكل مكوناتها الدينية والشعبية وسيلة لاغاية ، طريق لا هدفا ، منهج لا موضوعا • طالما أنها فعالة وقادرة على اعطاء الجماهير الأساس النظرى والدافع العملى فهى صحيحة وشرعية • لا يوجد حق أو باطل على المستوى النظرى بل الحق والباطل بالنسبة الى ما يتحقق بالفعل • لا يوجد صدق فى ذاته بل الصدق هو مقدار الانجاز الذى يتم • وبهذه الطريقة يتم اخراج العقائد والثقافات من قوقعتها وانغلاقها على الذات والدفاع عنها أو الهجوم عليها متناسين الواقع ذاته الذى تدور فيه رحى القتال • ان الماهيات المستقلة ليست أحكاما مسبقة أو عقائد مذهبية تدعى الصدق المطلق والشمول الأبدى بل هى تحققات عيانية تأتى بعد الفعل ، وتثبت بعد الاستشهاد • فحقيقة المسيحية وصدقها ليست فى العقائد الظنية التى صاغها يوحنا أو بولس بل هى فى استشهاد مئات المسيحيين فى عصر الاضطهاد •

٥ — تحليل المضمون للعقائد والامثال من أجل معرفة اتجاهاتها الرئيسية والتى فى الغالب ما تتفق مع الأهداف القومية الرئيسية • ففى القرآن الكريم مثلا ، ذكر الله دائما مع الأرض فى « اله السموات والأرض » ، « رب السموات والأرض » ، « وهو الذى فى السماء اله وفى الأرض اله » • كما يظهر الله فى الاشباع بعد الجوع ، وفى الأمان بعد

(١٥) Hassan Hanafi : Theology of land ; God, Community and Land ; in : Religious Dialogue and Revolution ; pp 125 - 181

الخوف فى « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » • وتنهار المجتمعات بسبب البون الشاسع بين الاغنياء والفقراء ، بين القصور المشيدة والآبار المعطلة « وبئر معطلة ، وقصر مشيد » • وفى حركاتنا الاصلاحية الحديثة يذكر الأفغانى مكررا قول أبى ذر « عجبت لرجل لا يجد قوت يومه ولا يخرج للناس شاهرا سيفه » • وفى الحديث « ليس منا من بات شبعان وجاره طاو » فلا يوجد هدف قومى رئيسى واحد الا ويجد فى العقائد الدينية وفى الامثال العامة ما يؤيده ويدعمه ويحث عليه وينادى به •

٦ ــ تجديد اللغة • ويتم ذلك بالانتقال من لغة العقائد الى اللغة الشعبية ، ثم من اللغة الشعبية الى لغة السياسة • فالثقافة الوطنية لها مصدران : المصدر الدينى وهو قادر على أن يعطى مضمونا متفقا مع الأهداف القومية والمصدر الدنيوى الحامل لأزمات الواقع ولحكمة الشعوب • وبلغة الامثال العامية تتحرك العامة أولا ، وبلغة السياسة ثانيا يتأصل فكرها • فتصبح الثقافة الوطنية هى المنبع الأول للايديولوجية السياسية[١٦] • ان من أهم الأسباب التى تجعل الشعب لا مباليا ومحايدا وسلبيا بالنسبة للايديولوجيات السياسية هو دجماطيقية الايدلوجيات الدينية كما تظهر فى اللغة التقليدية من ثواب وعقاب ودنيا وآخرة ، وملاك وشيطان ، وجنة ونار •• وصعوبة الايديولوجيات العلمانية مثل الكم والكيف والايجاب والسلب ، والتناقض والنفى الى آخر ما هو معروف من مفاهيم المادية الجدلية كأساس نظرى للماركسية • ان اللغة المباشرة التى تستقى الفاظها من العرف اللغوى لأقدر على التعبير عن الثقافة الوطنية وتعبئة الجماهير •

٧ ــ عدم البداية بأية مسلمات عقائدية أو مذهبية بل البداية بالواقع ذاته وبرصد حاجاته الرئيسية ثم اعادة بناء الثقافة الوطنية طبقا لهذه الحاجات • الحاجات هى الغاية واعادة بناء الثقافة الوطنية هى الوسيلة لاتكون البداية بالنص بل بالواقع ، وليست بالنظرية

---

(١٦) « التراث والتجديد » متعلق التجديد اللغوى ص ١٢٣ ــ ١٥١

بل بالتجربة • تتم اعادة بناء الثقافة الوطنية بالمنهج الصاعد وليس بالمنهج النازل ، بالمنهج الاستقرائى وليس بالمنهج الاستنباطى ، بالمنهج الذى يبدأ من الاساس الى المؤسس • والفلسفة فى النهاية هى البحث عن الأساس Grund • ان العقائد أهواء ، والنصوص تقنين لهذه الأهواء وتشريع لها •

٨ ـ وتكون المهمة الرئيسية فى اعادة بناء الثقافة الوطنية الاعتماد على العناصر الايجابية فيها ثم تحويل العناصر السلبية الى ايجابية عن طريق تأويلها وبيان وظيفتها والغاية منها وأية طبقة أفرزتها ، وأية مصالح تدافع عنها • الدفاع عن الأرض يقتضى الاعتماد على عنصر ايجابى مثل علاقة الله بالأرض • وللدفاع عر الحرية يمكن تحويل القدرية ، وهى عنصر سلبى ، من المعنى الشعبى السلبى وهو الاستسلام للقضاء والقدر الى المعنى الايجابى الاصلاحى وهو الشجاعة اللازمة والطاقة المطلوبة لاداء الفعل كما قال الشاعر العربى واستشهد به الأفغانى :

واذا كان من الموت بد ∴ فمن العجز أن تموت جبانا(١٧)

وكما قال محمد اقبال أيضا داحضا احتجاج المسلمين بالقرآن فى القصور عن السعى

من القرآن قد تركوا المساعى ∴ وبالقرآن قد ملكو الثريا
الى التقدير ردوا كل سعى ∴ وكان زماعهم قدرا خفيا
تبدلت الضمائر فى اسار ∴ فمُا كرهوه صار لهم رضيا(١٨)

سادسا : نماذج لاعادة بناء الثقافة الوطنية •

ويمكن اعطاء نماذج عدة لاعادة بناء الثقافة الوطنية قد تختلف من بيئة ثقافية الى بيئة ثقافية أخرى ، ومن مجتمع الى مجتمع ، ومن

---

(١٧) جمال الدين الافغانى : رسالة القضاء والقدر فى الاعمال الكاملة ، ص ١٨١ ـ ١٨٧ نشر د. محمد عمارة ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٦٨ •

(١٨) محمد اقبال : ضرب الكليم ، الاستسلام للقدر ص ٩ ، ترجمة عبد الوهاب عزام ، جماعة الأزهر للنشر والتأليف ، القاهرة ١٩٥٢ •

عصر الى عصر حسب ظروف كل ثقافة وطبيعة كل مجتمع ونوعية المرحلة التي يمر بها • ويمكن اعطاء نماذج لاعادة بناء ثقافتنا الوطنية فى المرحلة الراهنة التي نمر بها عن طريق تغيير محاورها المركزية ، وتصوراتها للعالم ، ومناهجها فى المعرفة وانماط السلوك ، وأبعادها الانسانية ، ولغتها فى التعبير • وهي ليست مجرد تغيير محور بمحور أو استبدال تصور بتصور أو وضع منهج بدل منهج وقيمة بدل قيمة وترك بعد انسانى ايثارا لبعد آخر ، بل هي تغيرات جوهرية فى بنية الفكر ولغة تعبيره تجد مصداقيتها فى التجارب الوطنية وفى التفاعل المباشر مع الجماهير •

١ ـ تغيير المحاور المركزية • ويعنى ذلك ان كل ثقافة لها محاور رئيسية ترتكز عليها • وان اعادة بناء الثقافة الوطنية تبدأ بتعديل هذه المحاور وتغيير اتجاهاتها ومراكزها • وعادة مايؤدى هذا التغيير الى نقل الحضارة كلها من مرحلة الى أخرى • وقد يكون لنفس المحور أسماء عديدة ، وقد تنتج عنه محاور أخرى متداخلة معه ومع ذلك تبقى المحاور الرئيسية واضحة للعيان على النحو الآتى :

(أ) من الالهيات الى الانسانيات • ويقتضى تغيير هذا المحور الانتقال من التمركز حول الله الى التمركز حول الانسان باسم الوحى ، والوحى هو كلام الله الموجه الى الانسان • فالانسان هو القصد • وبالتالى فان موضوع الوحى أساسا هو علم الانسان Anthropology وليس علم الله Theology . الوحى يصف وضع الانســان فى المجتمع وفى الكون • والله هو بعد الشمول والعموم فى الحياة الانسانية الذى على أساسه يمكن التعامل مع الآخرين على قدم المساواة بضمان وجود معيار شامل للحكم ومقياس عام للسلوك • وقد تم ذلك فى الغرب ابان عصر النهضة فى القرن السادس عشر • هذا التغيير فى الحوار ليس تعديلا بل هــو تصحيح لوضع مقلوب وعود الى الشرعية الأولى بعيدا عن الاغتراب والوهم • فاذا كان الله يدافع عن الانسان ويأخذه موضوعا ومقصدا فكيف يأتى الانسان ويدافع عن الله ويأخذه موضوعا ومقصدا ناسيا

نفسه وخارجا عن الأمر الالهى ؟ ان فعل فانه يخرج عن القصد الالهى ويصبح موقفه لاشرعيا مغتربا[١٩] .

ويرتبط بذلك أيضا بمحاور فرعية مثل الانتقال من الله الى الطبيعة أو من الله الى الشعب . فالطبيعة وحى من الله بما تحمل من آيات أى دلالات عليه . والآية قد تكون كلمة أى لفظا وقد تكون ظاهرة طبيعية . فالوحى كتاب مغلق ولا يفتح الا عند القراءة . والطبيعة كتاب مفتوح دائما . ولاسبيل الى فهم كتاب الوحى المغلق أو تفسيره وتأويله الا بالرجوع الى كتاب الطبيعة المفتوح . وعند الأصوليين القدماء الطبيعيات تسبق الالهيات ، والحدوث هو الطريق الى اثبات القدم ، والعالم فى الاستدلال سابق على الله .

(ب) من الأخرويات الى الدنيويات . وهذا يمثل بعد الزمان فى الثقافة الوطنية حيث تتركز فى كثير من جوانبها على مايحدث خارج العالم وفى نهايته خاصا ما كان منها افرازا للطبقات المحرومة حيث تجد فيه تعويضا عن حرمانها واشباعا لحاجاتها . ويتضح ذلك فى العقائد عندما تم خلق عوالم الجنة والنار ، وأحوال القبر ، وأهوال القيامة ، ومشاهدات الاسراء والمعراج عن طريق الخيال الشعبى وبأدق التفصيلات . ولما كانت الغاية من اعادة بناء الثقافة الوطنية قبول تحديات العصر فان العودة الى هذا العالم من المستقبل الى الحاضر يكون أكثر قدرة على تحريك الجماهير وتجنيد قواهم ، والعودة من الخيال الى الواقع ، ومن الوهم الى الحقيقة .

وكما يتم الانتقال من المستقبل الى الحاضر يتم أيضا الانتقال من الماضى الى الحاضر ، ومن تاريخ الانبياء والرسل فى الماضى الى اعمال القادة والابطال فى الحاضر . فالهدف من قصص الانبياء فى الرافد

---

(١٩) Hassan Hanafi : « Théologie ou Anthropologie » : dans : La Renaissance du Monde Arabe pp. 233 - 64, Bruxelles, 1972

وأيضا « الاغتراب الدينى عند فيورباخ » عالم الفكر ، ابريل – يوليو الكويت ١٩٧٩ ، دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية القاهرة ١٩٨٧ .

الدينى للثقافة الوطنية هو اعطاء نماذج للبطولة وقيادة الشعوب ومقاومة الظلم والطغيان ، موسى وفرعون ، محمد وقريش .. الخ . نماذج الماضى قد تكون واقعا بل خيال . ليست هدفا فى ذاته للاستمتاع بها والترويح عن النفس بل وسيلة لشحذ الهمم والدخول فى معارك العصر . الابقاء على الماضى يحيل الحاضر الى ماضى وبالتالى تنشأ حركات العودة الى الماضى Primitivsm فى حين أن تحويل الماضى الى حاضر هو أساس الحداثة Modernism

٢ ـ تغيير تصورات العالم . وينشأ عن التمركز حول الله فى المحاور تصورات رأسية هرمية وتدرجية وثنائية للعالم . وكما تم الانتقال من الله الى الانسان والى الطبيعة كذلك يمكن الانتقال من التصورات الرأسية الهرمية والتدرجية والثنائية للعالم الى التصورات الأفقيـة الخطية والواحدية للعالم . فنظرا لأن المكون السائد فى الثقـافة الوطنية هـو للتمركز حول الله اصبح المحور الذى ترتكز عليه هو المحور الرأسى نزولا من أعلى الى أسفل وتحديدا لعلاقة التبعية بين الطرفين ، تبعية الأدنى للأعلى ، وسيطرة الأعلى على الادنى . وطالما تقوم الثقافة الوطنية على هذا المحور فلن تنجح أية خطة للتنمية تقوم على الاعتماد الذاتى ، ولن تنفع أية محاولة للتنمية المستقلة أو للاسـتقلال الوطنى طالما أن القاعدة تعتمد فى وجودها على القمة ، وأن الانسان ليس صاحب مصيره ولا سيده فى هذا العالم .

ويظهر المحور الرأسى فى التصور الهرمى للعالم الا أنه يتركز فى القمة ثم يتسع فى القاعدة . ومع ذلك تظل القمة هى المشرفة والمسيطرة على القاعدة كلها . وعلى هذا الاسـاس قامت الدولة الهرمية التى يسيطر عليها القائد الأوحد دون ما رقابه عليه أو مراجعة من القاعدة . وهنا أيضا يعاد بناء الثقافة الوطنية عن طريق ضغط المسافة بين قمة الهرم وقاعدته ووصفهما معا على مستوى واحد فى الوجود والقيمة .

ويقترب من هذا أيضا التصور التدريجى للعالم والذى هو أشبه بهرم سقارة منه بالهرم الأكبر . فالقمة تتضمن أعلى مراتب القيمة والوجود

وتتناقص تدريجيا حتى نصل الى أخس المستويات • كلما نزلنا قلت مراتب القيمة ، وكلما صعدنا زادت مراتب الشرف • هذا التصور هو الأساس الذى تقيم عليه المجتمعات الطبقية والنظم البيروقراطية • ويعاد بناء ذلك التصور الى تصور خطى مستو للعالم تصبح فيه كل الدرجات على مستوى أفقى واحد وبالتالى يفسح المجال نظريا لبناء مجتمعات لا طبقية وادارات لابيروقراطية •

أما التصور الثنائى للعالم الموروث فى كل ثقافة وطنية تقليدية فهو من بقايا التصور الرأسى لأن علاقة الطرفين أيضا علاقة تبعية فوقية • وهو أيضا تصور هرمى ، قمة واحدة وقاعدة واحدة • وهو أيضا تصور تدريجى بدرجتين فقط ، علة ومعلول ، صورة ومادة ، أول وآخر ، قوة وفعل ، واحد وكثير ، سكون وحركة ، زمان ومكان ، نفس وبدن ، عقل وحس ، فضيلة ورذيلة ، ملاك وشيطان ، جنة ونار ، ثواب وعقاب ، اله وعالم ... الخ • ويعاد بناء هذا التصور الى تصور واحدى للعالم تكون العلاقة بين الطرفين فيه علاقة مساواة أفقية وليست علاقة تبعية رأسية •

٣ ـ تغيير مناهج المعرفة وأنماط السلوك • اذ عادة ما يغلب على الثقافة الوطنية سيادة المناهج التقليدية فى المعرفة وانماط السلوك مثل كافة أنواع المعارف الاشراقية من الهام ونبوة وطيرة وفأل وقراءة للمستقبل وخط للرمل وضرب للحصى وقراءة الكف وشتى أنواع النبوءات الشعبية • ويعادل ذلك فى التراث الدينى مناهج النص واستدعاء سلطة الوحى وطاعة الرسول • حينئذ تعاد بناء المعرفة الشعبية فى الثقافة الوطنية الى المعرفة العقلية والاعتماد على البداهة والى المعرفة الحسية بالاعتماد على شهادة الحس • وفى التراث الدينى بدلا من الاعتماد على سلطة النص ومصادره يمكن الاعتماد على سلطة العقل والثقة بمناهجه واستدلالاته ومنطقه • وعلى هذا النحو تتحول السلطة فى المجتمع من سلطة الاشخاص والكتب والنصوص الى سلطة العقل • وبدلا من أن يتم صراع فقهى بين التفسيرات المختلفة ، كل منها تكشف عن مصلحة يتم الحوار والنقـاش بين كافة الآراء والاتجاهات • كما تسود الثقافة الوطنيـة التقليدية الحكايات

والأساطير والمغازى التى يقصد بهـا التسـلية والترويح عن النفس ، والاستمتاع بالرواية ، واثارة الخيال • ويمكن أن تتحول الى منطق محكم لنقل المعارف التاريخية وابراز الوعى التاريخى لدى الجماهير الشعبية كما • ورثنا مجموعة من القيم النظرية تجعل الفكر والنظر أعلى قيمة وأعظم شأنا من العمل والانتاج • ويمكن اعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث تبرز قيمة العمل ، وتكون دافعا على الفعل ، وباعثا على الانتاج • كما تنتج عن المعارف الاشراقية أحكام التحليل والتحريم وتقييد السـلوك الفردى بقوانين وقواعد فى عالم كله شـبهات ، وتحوف به المخـاطر ، وتملؤه الغواية • وبالتالى يصبح الفعل فيه اقرب الى الخطأ منه الى الصواب نظرا لما يسود الطبيعة من أهواء ، وما تقوم عليه من غرائز • ويعاد بناء هذا الجانب السلوكى فى الثقافة الوطنية عن طريق التحول الى السلوك الطبيعى الفطرى • ويقوى ذلك أيضا مفاهيم الفطرة والبراءة الأصلية ، وبراءة الذمة ، وأن الاشياء فى الأصل على الاباحة • وبالسـلوك الطبيعى تتحرر الجماهير ، وتصبح الثقافة الوطنية عاملا من عوامل التحرر •

وفى الجوانب الصوفية فى الثقافة الوطنية توجد بعض القيم السلبية تمنع الجماهير من الحركة وتأتى فى مقدمتها قيم مثل الصبر ، والرضا ، والتوكل ، والورع ، والزهد ، والقناعة ، والخوف ، والحزن ، والفقد ، والفناء ••• الخ • بعضها من المقامات والبعض الآخر من الأحوال • وقد نشأت هذه القيم فى الأصل كنوع من المقاومة السلبية ضد مظاهر البذخ والترف والتكالب على الدنيا من أجـل ترك الدنيا بما فيهـا على من فيها • وقد استعملها الحكام كنوع من أيديولوجيات الاستسلام تربى عليها الشعوب من خلال أجهزة الاعلام وخطب المساجد وبرامج التربية الدينية فى المدارس • ولما كانت الظروف قد تغيرت ، ولم تعد المقاومة أيضا ميؤوس منها وبالتالى يمكن تحويل هذه القيم السلبية الى قيم ايجابية ، من الاستسلام الى التمرد ، ومن القناعة الى الثورة ، ومن الرضا الى الغضب ، ومن الصبر الى الخروج ، ومن التوكل الى الجهاد ، ومن الزهد الى العدالة الاجتماعية ، ومن الفقر الى المطالبة

بحق الفقراء فى أموال الأغنياء ، ومن الخوف الى الشجاعة ، ومن الحزن الى الفرح ، ومن الفقد الى الوجود ، ومن الفناء الى البقاء(٢٠) .

٤ ـ تغيير الأبعاد الانسانية . وفى الثقافة الوطنية فى المجتمع التقليدى وكما تبدو فى مكونها الرئيسى وهو التراث الدينى ، كثيرا ما تغلب العبادات على المعاملات . وفى الامثال العامية أيضا يغلب وصف أحوال الفرد على أحوال الجماعة ، وتطغى هموم الفرد على الأوضاع العامة . ولما كانت أحوال الفرد ما هى الا انعكاسات للأوضاع العامة فان التحول فى الثقافة الوطنية من الفرد الى الجماعة يجعلها قادرة على الدخول فى تحديات العصر .

ونظرا لأن الثقافة الوطنية فى أحد جوانبها تعبر عن علاقة الحاكم بالمحكوم ففيها عقائد وأمثال عامية فى وصف الحاكم تؤيد سلطانه المطلق ، وتدعو الى طاعته . وهناك عقائد وامثال عامية مضادة تدعو الناس الى الثورة عليه . لذلك تهدف اعادة بناء الثقافة الوطنية الى تخليصها من أيديولوجية الدولة الى أيديولوجية الشعب ، ومن سلطة الحاكم الى سلطة المحكوم ، ومن فكر السلطة الى فكر المعارضة ، ومن عقيدة الحزب الواحد الى آراء الأحزاب المتعددة ، ومن عقيدة الفرقة الناجية الى عقائد الفرق الهالكة ، ومن احادية الطرف والتعصب الى الاختيار بين البدائل وحرية الحوار . ان الانتقال فى المحاور من الله الى الانسان والطبيعة هو أيضا انتقال من الله الى الشعب والارض . فالشعب قضية قومية فى الحكم والتنمية ، فى السياسة والاقتصاد . والثقافة الوطنية ذاتها ممثلة فى تراثها الدينى تزاوج بين الله والأمة « ان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . « وان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

٥ ـ تغيير لغة التعبير . وفى الثقافة الوطنية عدة لغات يغلب عليها لغة العقائد أو التاريخ أو القصص أو التشريع . وهى لغة محددة مغلقة لاتحمل أية دلالات على أحوال العصر . ويمكن تغييرها الى لغة اجتماعية

---

(٢٠) Hassan Hanafi : Mysticism and Development, Unesco, Paris, 1985. Religion, Ideology and Development, Dar al - Thakafa, Cairo, 1988 .

سياسية بمصطلحات العدالة الاجتماعية والمساواة وهي اكثر دلالة على أحداث العصر • كما يمكن تحويل لغة القصص والرواية وحوادث الماضى الى لغة الوصف والتقرير للحوادث الحاضرة • وبالتالى لا يستعمل المستمع فقط خياله بل يرى بفعله • كذلك يمكن تحويل لغة الانشاء القديمة للتأثير فى السامع الى لغة الخبر عن طريق اعطاء احصائيات عن من يملك ماذا ومن يقهر من ، وعن صراع القوى ومدى التسليح ومقدار نهب الشركات بحيث تكون لغة الواقع الاحصائى أبلغ من لغة الشعارات وفنون الخطابة • ويحدث هذا الانتقال فى نفس الخطاب بحيث يحدث التحول فى نفس السامع من لغة الى لغة • فان الاقتصار على اللغة القديمة وحدها لايجعل الثقافة الوطنية حاملة لأية رسالة معاصرة • كما أن اللغة الجديدة وحدها تلغى الثقافة الوطنية وتعطى علما سياسيا محكما قبل الآوان •

سابعا : أدوات التغير الثقافى •

والسؤال الآن ؟ من الذى سيقوم بعملية اعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث تكون قادرة على تحقيق الأهداف القومية ؟ هناك عدة أدوات أهمها ، بصرف النظر عن ترتيبها من حيث الأولوية والأهمية هى :

١ ـــ المثقفون الوطنيون • وهم الذين يجمعون بين الثقافة والوطن ، بين مهمة العالم ومهمة المواطن ، بين حق العلم وواجب المواطنة • هم مثقفون أى أنهم على وعى تام بالثقافة الوطنية وبأهمية الاعداد الايديولوجى للناس ، وبضرورة التنظير • وهم وطنيون لأنه لاثقافة بلا وطن كما أنه لا وطن بلا ثقافة • ولو قيل : أن المثقفين الوطنيين ينتمون الى الطبقة المتوسطة وبالتالى يصعب عليهم تحقيق هذا البناء ، وسينظرون الى الثقافة من خل طبقتهم كما سيصوغون الأهداف القومية لصالح طبقتهم فالحقيقة أن هناك فرقا بين الطبقة والوعى الطبقى[٢١] • قد ينتسب المثقفون الى الطبقة المتوسطة ولكنهم بوعيهم قد ينتسبون

---

(٢١) G. Luckac : Histoire et Conscience de Classe, Trad. Ayelos D. J. Bois, De Minuit, Paris, 1960

د. عبد الله العروى : العرب والفكر التاريخى ، دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٣ •

الى الطبقة الشعبية العاملة ، طبقة العمال والفلاحين وصغار الموظفين • هذا بالاضافة الى أن الطبقة المتوسطة مازال لها دور فى التحديث • فهى الطبقة التى تعلمت وتخصصت واصبحت فى مراكز القيادة العلمية والتقنية فى البلاد • كما أنها تمتاز بالعقلانية واعمال العقل • لاتسودها أهواء الطبقة العليا وميولها • ولا تئن تحت ضنك الحياة وقسوتها كما هو الحال فى الطبقة الدنيا • وهى تعتنق الليبرالية ومثلها فى التمدن والتحضر ، وتقبل النقاش ، وتبادر بالحوار • ولها قدر من الذوق الجمالى والحس المدنى ممايجعلها أقدر على أن تكون عصب الدولة • قد يكون لها تطلعاتها ومكاسبها • ولكن المهم أن يكون ولاؤها للأهداف القومية وليس لمكاسبها الشخصية أو للسلطة ، وأن تخطط لصالح الجماهير ، وأن تعيد بناء الثقافة الوطنية بحيث تكون حاملا للأهداف القومية الرئيسية محققة لصلحة الجماهير وليست مجرد ادوات اعلامية تبرر قرارات السلطة السياسية(٢٢) •

٢ ـ الجامعات الوطنية • وهى مؤهلة بطبيعتها للقيام بهذا الدور لأنها تجمع اكبر عدد ممكن من المثقفين ، طلابا واساتذة ، وفى نفس الوقت يحملون هموم الوطن وأحزان العصر • وقد ارتبط تاريخ جامعاتنا منذ نشأتها بتاريخ الحركتين الثقافية والوطنية للبلاد • خرج منها العلماء ، وسقط منهاالشهداء • والقادم الى جامعة القاهرة من على النيل الخالد يرى قبة الجامعة على مرمى البصر وقد احتوت أولا تمثال نهضة مصر (وسفارة اسرائيل على مقربة منه) ، وثانيا النصب التذكارى للشهداء قبيل الاسوار • لذلك كان قصر الجامعة على تكوين طبقة من المتعلمين التقنيين هو عزل لها عن الثقافة الوطنية • كما أن قصر دورها على العلم الذى لا وطن له بدعوى أنه لاسياسة فى الجامعة ولاجامعة فى السياسة هو أحد مظاهر تسلط النظام السياسى وخوفه من الجامعة • وقد استطاعت الجامعات الالمانية أن تكون أداة تحقيق للوحدة الالمانية • كما اندلعت الثورة الاسلامية فى ايران من حرم جامعة طهران • واستطاعت جامعة

(٢٢) انظر الدراسة التالية « مخاطر فى فكرنا القومى » •

سيول بكوريا الجنوبية أن تكون محورا للمعارضة الشـــعبية ضد القهر والطغيان . والجامعة المصرية جزء من تاريخ الحركة الوطنية المصرية ، نشأت باكتتاب أهلي ومصر في صراعها مع الاحتلال . كما نشأت الجامعات العربية كأحد مكونات الدول الحديثة في الحجاز وفي الخليج وابان النهضة العربية الكبرى في سوريا والعراق . لذلك كان للجامعـات حقهـا في الاستقلال العلمي والحريات الأكاديمية . فحرية البحث العلمي لا تتجزأ عن حرية الوطن . كما أن الاتحادات والتنظيمات الطلابية المستقلة جزء لايتجزأ من الحياة الجامعية . وهي قادرة بأنشطتها مثل نوادي أعضاء هيئة التدريس على المساهمة في اعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث تكون حاملا للأهداف القومية . ان الجمع بين العلم والوطن لايكون فقط في دور الجامعات كمؤسسات علمية بل أيضا في التصورات القومية للعلم خاصة للعلوم الانسانية التي فيها تنشأ فلسفات التاريخ والتي فيها يتبلور الوعي التاريخي للأمة . ان العلم لاينفصل عن تاريخه بما في ذلك العلوم الطبيعية حلا لأزماتها ، وكشفا عن مصادرها ، وقضاء على أسطورة العلم الابداعي الخالص الذي نشأ في حضارة معينة وفي عصر معين ، خلقا عبقريا على غير منوال ! ان الصياغات القومية للعلم تقوم بها كل حضارة في فجر نهضتها . ولكننا غالبا ما نأخذ العلم الغربي وهو قائم أيضا على تصور قومي غربي للعلم : بدايات العلم قبل العصور الحديثة ، وتطبيقات العلم بعدها ، وابداعات العلم احتكارها الخاص ، وانتشار العلم ونقل المعلومات منها الى غيرها ، من المركز الى المحيط . وعلى هذا النحو تكون اعادة بناء الثقافات الوطنيـــة جزءا من التحرر الثقـــافي للشعوب . ويمكن صياغة تصورات قومية للعلم دون المساس بموضوعية العلم . بل يمكن اعادة كتابة تاريخ العلم والثقافة والحضارات من منظور قومي صرف وكجزء من بلورة الوعي التاريخي للشعوب[٢٣] .

---

(٢٣) لنا دراسات عديدة من الجامعة منذ قضايا معاصـــرة « رســـالة الجامعة » ، « مناهج التدريس والعلاقات الداخلية في جامعاتنا » ، « الطلبة والمشاركة في العمل الوطني » ، « برنامج شباب اعضاء هيئة التدريس ، الجزء الأول في فكرنا المعاصر ، ص ٢٠٨ — ٢٣٣ ، وأيضا « الجامعة والوطن » ، « الاصلاح الجامعي » ، « رسالة الطالب » ، « وعلماؤنا بالداخل أيضا » .. الخ ، الجزء الأول ، الدين والثقافة الوطنية .

٣ ــ الجمعيات الثقافية • وهي الجمعيات والمنتديات الثقافية الأهلية مثل الجمعيات الأدبية والفنية والفلسفية والتاريخية والجغرافية والنفسية والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية •• الخ • والتى تجمع بين الثقافة والعلم ، بين الهم العام والتخصص الدقيق • وقد نشأت هذه الجمعيات ابان نهضة الأوطان مثلا فى مصر وفرنسا وألمانيا ، وبالتالى تكون مسؤولياتها فى الحفاظ على هذه النهضة وتأصيلها • كل جمعية تقوم باعادة بناء أحد جوانب التراث لنشاطها الدينى أو الأدبى أو الاجتماعى أو التاريخى •• الخ • فى حرية تامة دون حكر عليها أو تقييد لنشاطها • وان أى قانون يقلص مهمتها ويبعد عنها موضوع الدين أو السياسة أو الجنس ،وهى المحرمات الثلاثة فى فكرنا القومى ، انما يهدف الى وأدها ، ويقضى على دورها[٢٤] •

٤ ــ المساجد ودور العبادة • وهى الحزب الموجود سلفا بكوادره ونظمه وخلاياه وجماهيره وثقافته • فالدين هو المكون الرئيسى فى الثقافة الوطنية ، وبالتالى فليس فى حاجة الى منظر أو كتاب أو مذهب أو عقيدة كالماركسية أو الليبرالية أو الاشتراكية • كما أن جماهيره موجودة وهى جماهير الأمة التى تنتسب الى الدين بولائها لتراثها • وتنظيماته وخلاياه موجودة فى المساجد ودور العبادة والزوايا والمدارس والمعاهد والجامعات الدينية ودروس العصر والعشاء والجمعيات الدينية والشرعية • وبالتالى فلا يحتــاج الى تنظيمات وخــلايا وأماكن ومنــازل ومقار كما تحتاج الاحزاب • وكوادره موجــودة فى الأئمة والوعاظ ورجال الدين • وهم موضع ثقة من الناس • انما المهم هو تمثل الأهداف القومية والتوعية السياسية والاستقلال الفكرى دون توجيه من الدولة تبريرا لسياساتها ودون ارهاب منها فى حالة الخلاف بين الدولة وبين المؤسسة الدينيــة المستقلة •

٥ ــ الحزب الثورى • ويتكون من مجموعة من المثقفين الوطنيين آثروا اعطاء الممارسة الثورية النصيب الأكبر ، وقبلوا المســاهمة فى

---

(٢٤) انظر « المحرمات الثلاث » الجزء الأول ، الدين والثقافة الوطنية •

تعبئة الجماهير كعمل رئيسى من أجل الوصول الى مراكز السلطة عن طريق الانتخابات الشعبية الحرة • الحزب الثورى لا يعمل بالسياسة عملا مباشرا من أجل الوصول الى الحكم بوسيلة أو بأخرى بل هو الحزب الذى ينبع من ثقافة الجماهير ويقوم بتثويرها حتى تحمله الجماهير على الاعناق ، وتجعله معبرا عن روحها وجسدها ، مدافعا عن ماضيها وحاضرها ، حريصا على ثقافتها ومصلحتها • ويتم ذلك عن طريق مدارس الحزب من أجل تخريج الكوادر ، وعن طريق جرائد الحزب ومجلاته ونشراته وكتيباته ، وعن طريق الخلايا والأسر الحزبية • وقد قام الشيوعيون والاخوان المسلمون بذلك خير قيام فى تاريخنا الحديث ، وكونوا كوادر ثقافية وسياسية على مستوى رفيع من الثقافة الوطنية والالتزام السياسى[٢٥] •

٦ ــ الفنون الشعبية • وهى خير معبر عن الثقافة الوطنية فى صور فنية مثل الرقص والغناء والملاحم الشعبية والزخرفية وطراز المعمار والامثال العامية •• الخ • صحيح أن هناك فنونا أسهل فى التثوير من غيرها مثل الغناء كما هو الحال فى الأناشيد الوطنية والتمثيل كما هو الحال فى مسارح الشوارع ، والشعر والقصة والرواية كما وضح ذلك فى الأدب الروسى الثورى ولدى الأدباء الشبان عندنا • ومع ذلك فان الفنان الثورى قادر على ملأ أى فن بمضامين ثورية من حيث اشكال التعبير ومن حيث المضامين الفنية • فالغناء والرقص عامل موحد للأمة بين مختلف أقطارها • ومهرجانات الشعر احتفالات وطنية ، ولسان حال للأمة ، تعبر فيها عن أحزانها ، وتبث همومها ، وتقدم شكواها • ان الفن أسهل على الجماهير فى التذوق وأكثر قدرة على التأثير فيها • وان الامسيات الفنية والحفلات الغنائية هى أكثر الامسيات متابعة بين جماهير المشاهدين • تسمع الجماهير الأغانى الشعبية والقرآن الكريم على نفس الدرجة والحماس • ويقلب السائق محطات مذياعه بين هذا

---

(٢٥) انظر التنوير الدينى والتنظيم السياسى ، « مأساة الاحزاب التقدمية فى البلاد المتخلفة » ، الجزء الثامن : اليسار الاسلامى والوحدة الوطنية •

وذاك . كما أن الفنون الشعبية تبرز الشعب كقيمة ، وتثبته كقدرة خلاقة ، فلا تتنكر له سلفية ، ولا يقهره نظام . بل ان الفن الشعبى لقادر من خلال النكات والمسرح والشعر والقصة والرواية حتى الرسم والتصوير على نقد السلطة والسخرية منها[٢٦] .

٧ ـــ التنظيمات الشعبية . اذا كانت بعض أدوات التغير الثقافى والاجتماعى أقرب الى العمل فى ميدان الثقافة الوطنية منها الى ميدان الأهداف القومية الملموسة مثل الجامعات فان بعض الأدوات الأخرى قد تكون أقرب الى العمل فى ميدان الأهداف القومية منها الى العمل فى مجال الثقافة القومية مثل التنظيمات الشعبية من نقابات واتحادات وهيئات ومؤسسات . وهى قادرة على التعبير عن حاجات الجماهير ومطالب الفئات . ولكنها فى حاجة ايضا الى بناء نظرى تعبر من خلاله عن حاجاتها كما أنها فى حاجة الى مزيد من الوعى بالاهداف القومية الرئيسية من أجل وضع المصالح الخاصة للفئات فى اطار المصلحة الوطنية العامة . وان الانتفاضة الشعبية فى السودان فى ابريل ١٩٨٦ لخير شاهد على قدرة التنظيمات الشعبية والنقابات واتحادات الطلبة والعمال على أن تكون نواة لثورة شعب بأكمله ضد حكم الظلم والقهر والنفاق والعمالة والطغيان .

٨ ـــ أجهزة الاعلام . ويأتى دورها فى النهاية لأنها دائما فى يد السلطة فى بلادنا ، تأتمر بأوامر الدولة . ولأنها فقدت استقلالها بالنسبة للسلطة فانها أيضا فقدت مصداقيتها عند الجماهير . هى الآن أقرب الى أبواق الدعاية للنظم الحاكمة منها الى أدوات لتثقيف الشعوب بما فى ذلك الصحافة والاذاعة والتليفزيون . وهى أكثر أجهزة الثقافة الشعبية تأثيرا على الجماهير ، ولذلك فهى أشدها احتكارا من الدولة . هى أجهزة للدولة وليست منابر للشعب . وتدخل معها أجهزة وزارة الثقافة مثل الثقافة الجماهيرية باستثناء ما قد يفلت من نشاطها نظرا

---

(٢٦) التفكير الدينى وازدواجية الشخصية » ، « الفلاح فى الامثال العامية » ، « المثقفون والشيخ امام » ، قضايا معاصرة ، الجزء الاول فى فكرنا المعاصر ، ص ١١١ ـــ ١٢٧ ، ص ٢٦٩ ـــ ٢٨٠ ص ٢٣٥ ـــ ٢٤٥

لتعاونها مع الأدباء الشبان وفنانى الأقاليم . وتدخل فى ذلك أيضا الهيئات العامة المستقلة مثل الهيئة العامة للكتاب والمؤسسة العامة للسينما والمسرح . لذلك يعجب المثقفون المستنيرون بنظام الاذاعة البريطانية B. B. C وباستقلالها . وتحولت جماهير الشعب اليها والى غيرها لاستقاء الاخبار . اذ تعلم كافة جماهير الشعب أن أجهزة الاعلام لا تقول الحقيقة وانما تعرف الحقائق من الاذاعات والصحف الأجنبية ووكالات الأنباء العالمية ، فتهرب بذلك من زيف ، وتقع فى زيف آخر . ويبدو ذلك فى دولنا فى الخلط بين الاعلام والثقافة . فالاعلام ثقافة . والثقافة اعلام . كلاهما توجيه وارشاد قومى !

ثامنا : أهمية اعادة بناء الثقافة الوطنية .

ان اعادة بناء الثقافة الوطنية ليس ترفا فكريا أو عملا ثقافيا خالصا بل هو اعادة بناء لروح الأمة بعد أن توالت عليها الهزائم مرات عديدة ، وأجهضت نهضاتها الحديثة أكثر من مرة . بل انها مهمة ضرورية اذا ما أردنا ضمان ثورة دائمة ودرءا أخطار الكبوة والردة والثورة المضادة . ويمكن تلمس نتائج ذلك مسبقا على النحو الآتى :

١ ـــ تحقيق الوحدة الوطنية على أسس فكرية بدلا من الازدواجية القاتلة التى تشق صف الأمة بين الدينيين والعلمانيين ، بين القانون الالهى والقانون الوضعى ، بين حاكمية الله وحاكمية البشر . كما أنها قادرة على تحقيق الوحدة فى مناهج التعليم بدلا من ازدواجية التعليم التى نعيشها والتى هى أحد أسباب ازدواجية الثقافة الوطنية والشخصية القومية . هذه الوحدة الوطنية على مستوى الثقافة هى أساس الوحدة الوطنية على مستوى برنامج العمل الوطنى ثم على مستوى القيادة السياسية فى الجبهة الوطنية المتحدة .

٢ ـــ تمهيد الجو الثقافى لتأسيس أيديولوجية سياسية تستند الى الثقافة الوطنية وتحقق أهداف الأمة ، ومنعا للازدواجية الايديولوجية بين الأيديولوجيات العلمانية الواردة والأيديولوجيات الدينية الموروثة .

وعلى هذا النحو يمكن تعبئة الجماهير ومشاركة الأغلبية الصامتة فى العمل السياسى وفى الدفاع عن مكتسباتها فى حالة انقلاب القيادة السياسية الثورية الى قيادة سياسية مضادة • وأغلبية الجماهير حتى الآن لا تجد فى الأيديولوجتين المطروحتين ، الدينية والعلمانية ، ما يجعلها تتحمس له وتعبىء نفسها دفاعا عنه • وتئن تحت وطئة الحياة اليومية وبؤس الحياة • وبالتالى فان الأيديولوجية القادرة هى تلك التى تبدأ بواقع الجماهير تنظره تنظيرا مباشرا وتلقائيا بصرف النظر عن المداخل الثقافية وبالاعتماد على ما ترسب من ثقافة وطنية فى الوعى القومى •

٣ ــ سهولة تنفيذ برنامج العمل الوطنى الموحد على أساس من الثقافة الوطنية المشتركة والاتفاق على الاهداف القومية لأنه يجمع كل طوائف الشعب ، ويشرك كل مناهجه وعقائده ، ويسمح بأكبر قدر ممكن من تعدد الأطراف النظرية فى مقابل وحــدة العمل الوطنى • النظريات السياسية والمذاهب الاقتصادية المعدة سلفا والتى تحتاج الى تطبيق فى أى مكان ولدى أى شعب بصرف النظر عن ظروفه التاريخية وواقعه الثقافى هى أقرب الى المفترسات التى تبحث عن ضحايا ، صعبة الفهم ، حولها خلاف بين قبول البعض ورفض البعض الآخر ، يكفر بعضهــا بعضا • وبعد التطبيق لا يشفع النجاح النسبى أو الفشل النسبى لأحد منها ولا يعطيها شرعية أو صكا تاريخيا على بياض •

٤ ــ اتقاء شر الردة والنكوص والثورة المضادة التى تعتمد على الجوانب المحافظة فى الثقافة الوطنية وضعف ارتباط الأهداف القومية بالجوانب التقدمية فى الثقافة الوطنية من أجل ضرب هذه الأهــداف القومية ذاتها بدعوى الأصالة والمحافظة على التراث والدفاع عن الهوية الثقافية للأمة ضد التغريب الثقافى وضد المذاهب المستوردة التى تهدد ايمان الأمة وتنال من قيمها • ان جعل الجوانب التقدمية فى الثقافــة الوطنية حاملا للأهداف القومية يحفظ هذه الأهداف باعتبارها تحقيقا لمصلحة الأغلبية ضد أية أهداف مضادة لتحقيق مصالح الأقلية • كما أن ذلك يسحب البساط من تحت أقدام الثورة المضادة • وذلك باعادة تأويل

الجوانب المحافظة التى تعتمد عليها فى الثقافة الوطنية لتكسب نفسها شرعية تاريخية أمام جماهير متدينة ينقصها الوعي السياسى ، وجـدل الثورة والثورة المضادة[٢٧] .

٥ ـ الحفاظ على الخصوصية والعمومية فى نفس الوقت . فالثقافة الوطنية تعبر عن وضع خاص لشعب خاص فى مرحلة تاريخية ومع ذلك هي منفتحة على باقى الثقافات متفاعلة معها ، تأخذ وتعطى ، وتتحول تدريجيا من ثقافة الى أيديولوجيا ثم من أيديولوجيا الى علم . تفترق عن المحافظة الدينية التي تُرفض كل تعامل ثقافى مع الآخر ، كما تفترق عن العلمانية التى ترفض كل بداية فى الثقافة الوطنية بدعوى العموم والشمول والعلم الذى لا وطن له .

٦ ـ اثراء التجربة الثورية المعاصرة عن طريق تجربة فريدة فى التحديث بدلا من النظريات المسبقة والأيديولوجيات الجاهزة . فكل شعب له ثقافته ، ومرحلته التاريخية التى يمر بها ، وله قدرته على الخلق والابداع . وان التجارب الصينية والفيتنامية والفلبينية والسودانية والايرانية والعربية فى محاولات اعادة بناء الثقافة الوطنية لا ثراء للتجارب البشرية وتنويع على نماذجها المعروفة فى الثورة الفرنسية ، والثورة الأمريكية ، والثورة الروسية . وان خلق نماذج حاضرة ومستقبلة قد يكون أسهل بكثير وأكثر فاعلية وقبولا من تطبيق نماذج ماضية .

٧ ـ امحاء الفرق بين العلم والسياسة ، بين العالم والمواطن ، بين النظر والعمل ، بين النظرية والتطبيق . فالثقافة الوطنية تعطى الأساس النظرى لتحقيق الأهداف القومية . والأهداف القومية برنامج عمل وطنى يتم تحقيقه من خلال تنشيط الثقافة الوطنية واعادة بنائها من أجل تعبئة الجماهير . وطالما اشتكى قادتنا السياسيون ومثقفونا بل وجماهيرنا من عزلة الثقافة عن الحياة ، والجامعة عن المجتمع . كما

---

(٢٧) لذلك كان العنوان المقترح لهذا الكتاب « الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ ـ ١٩٨٩ » فى الاصل هو « الثورة والثورة المضادة فى مصر ١٩٥٢ ـ ١٩٨١ » .

تحدث البعض عن الابراج العاجية التى يقبع فيهـا المثقفون ، وعن الجدليات المذهبية والمماحكات اللفظية والمناقشات البيزنطية التى تغلب على بضاعتهم وأسواقهم • تكسب البعض منا بالعلم فتكسب البعض الآخر بالسياسة • والثقافة الوطنية تشق طريقها بين الفريقين كالتزام ثقافى وطنى تتطلبه مصلحة الأمة •

٨ — قد تكون اعادة بناء الثقافة الوطنية مهمة مرحلية محصنة من أجل تحويل الثقافة الوطنية الى أيديولوجية سياسية حتى يتم تحويل الأيديولوجيا السياسية فيما بعد الى علم السياسة • ومع ذلك ، فهى مرحلة ضرورية حتى يتم انتقال كل شعب من مرحلة التقليد الى مرحلة الحداثة انتقالا طبيعيا دون انقطاع • فلا تحدث الردة والعـودة الى القديم كما هو الحال فى تركيا وبولندا والمغرب المعاصر ودون ازدواجية ، فيقع الصراع الدامى بين الاخوة الاعـداء على ما هـو حادث الآن فى مجتمعاتنا الحالية • وان اغفال المرحلة الحاضرة لأحد الأسباب الرئيسية للعودة الى الماضى والحاق الحاضر به كما هـو الحال فى الحركات السلفية أو استباق المستقبل والحاق الحاضر به كما هـو الحال فى الدعـوات العلمانية •

تاسعا : خاتمة • اعتراضات وردود •

قد يقال ان اعادة بناء الثقافة الوطنية كحامل للأهـداف القومية مشروع له عيوبه ومخاطره ، وله حدوده وقدراته على النحو الآتى :

١ — لا يسـلم مثل هـذا المشروع من اتهام لـه بالعنصرية أو القومية أو « الشوفينية » نظرا لتأكيده على الهوية القومية والتمايز القومى والخصوصية القومية • وان هذه المغالاة فى النزعة القومية قد تؤدى الى صراع بين القوميات فى عالم يرنو الى السلام والى تبادل المصالح والحوار بين الأديان والحضارات • والحقيقة أن هذا الخطر يقل الى أقصى حد له نظرا لأن القومية هنا على المستوى الثقافى المحض وليست على المستوى العرقى • لذلك استعملنا لفظ « فكرنا » القومى ،

« سلوكنا » القومي ، « وجداننا » القومي ، و « النحن » هنا هوية ثقافية صرفة • والثقافة وطنية أى أنها تنتسب الى الوطن وليس الى القوم • والوطن قيمة ثقافية وليس مجرد حدود أو توسع أو غزو أو مجال حيوى • واعادة بناء الثقافة الوطنية تتم ليس فقط لتقدم شعب بعينه بل لنقل حضارة باكملها من مرحلة تاريخية الى مرحلة تاريخية أخرى فى اطار تطور عام لتاريخ البشرية كلها •

٢ ــ معاداة العلم لصالح الأيديولوجيا • وذلك لأن اعادة بناء الثقافة الوطنية هو عمل أيديولوجي صرف فى حين أن الاجتماع والسياسة والاقتصاد علوم انسانية تختلف بينها من حيث الدقة والاحكام ولكنها تبغى جميعا أكبر قدر من الموضوعية والشمول أسوة بالعلوم الطبيعية والرياضية • ولما كان أحد مقاييس التحول الاجتماعى واعادة بناء المجتمعات هو الانتقال من الأيديولوجيا الى العلم فان اعادة بناء الثقافة الوطنية سيبقى المجتمع فى نفس المرحلة أى الأيديولوجيا بصرف النظر عن نوعيتها دينية تقليدية وهو التيار الغالب على الثقافة الوطنية أو سياسية تقدمية وهو ما قد ينتج عن المشروع كله من مكاسب • والحقيقة أن هذا التقابل والتعارض بين الأيديولوجيا والعلم انما هو تقابل ماركسى تقليدى تأباه ماركسيات القرن العشرين ، وغير دال بالنسبة للشعوب اللا أوربية • فالأيديولوجيا حاجة ومطلب فى البلاد النامية وتثير فى أذهان الشباب حماسا وانتماء ربما أكثر مما يثيره العلم • والعلم فى الذهن الشعبى منقول عن الغرب ، دخيل وافد فى حين أن الأيديولوجيا تعبير عن الموقف الحالى ، وتأكيد للهوية الثقافية • كما أن العلم هو أخذ لكل مكونات الواقع فى الاعتبار • وفى البلاد النامية ، الثقافة الوطنية هى العنصر الرئيسى فى شخصيتها القومية قبل انماط الانتاج ووسائل الانتاج وفائض القيمة ، والسعر والأجر • والعلم ذاته له بعد انسانى وليس مجرد نقل للمعلومات • وهو أحد أبعاد الثقافة مثل الفن والدين والفلسفة • العلم جزء من كل هو الحضارة • وان اعادة بناء الثقافة الوطنية هو فى حد

ذاته علم الثقافة أو علم الحضارة أو علم الاجتماع الثقافي أو علم الأنثروبولوجيا الثقافية أو الحضارية .

٣ — قد تصبح أعادة بناء الثقافة الوطنية سلاحا ذا حدين . فكما يمكن توظيف الثقافة الوطنية بحيث تكون حاملا للأهداف القومية قد يجعلها نظام حكم حاملا لأهداف مضادة للأهداف القومية . وبالتالى يمكن استغلال الثقافة الوطنية على أية وجهة كانت طالما أنها تحتوى فى داخلها على الشيء ونقيضه كما هو واضح فى الأمثال العامية وأحيانا فى النصوص الدينية سواء كان هذا التعارض ظاهرا أو غير ظاهر ، وفى التراث الدينى القديم بعقائده ومذاهبه وفرقه المختلفة التى وصل الخلاف بينها الى حد الاحتكام للسيف . والحقيقة أن معارك الثقافة الوطنية كالدين والتراث جزء من صراع القوى الاجتماعية ، كل منها تؤولها لحسابها ولصالحها ضد القوى الأخرى . وان معارك الثقافة والتراث فى المجتمعات النامية باعتبارها مجتمعات تراثية لاخطر من معارك الصراع الطبقى . وان معارك الخيال والتصورات للعالم والثقافة والحضارة لأخطر بكثير من المعارك العسكرية وتضارب المصالح الاقتصادية بين القوى المتصارعة . وان اللجوء الى الثقافة الوطنية والتركيز على أخلاق القرية ، ورب الأسرة ، وكبير العائلة ، ومفاهيم الحب والايمان ، لاتقل أهمية عن اتفاقات الصلح مع العدو أو عقد اتفاقات عسكرية مشتركة ومناورات مشتركة مع احدى القوتين العظميين . بل ان هذا الاعداد الفكرى الثقافى النفسى هو مقدمة وتمهيد لهذه الاختيارات السياسية والعسكرية[٢٨] . والحقيقة ان الذى يحمى من ذلك كله هو تحديد الأهداف القومية باعتبارها معبرة عن مصالح الأغلبية لا مصالح الطبقة الجديدة التى وصلت الى السلطة السياسية بعد أن حصلت على القوة الاقتصادية . فاذا حاربت معارك الثقافة الوطنية واختارت من مفاهيمها وتصوراتها ما يساعدها على تفريغ

---

(٢٨) انظر « الدين والتنمية فى مصر » ، « الدين وتوزيع الدخل القومى فى مصر » . الجزء الرابع : الدين والتنمية القومية .

الوطنية واختارت من مفاهمها وتصوراتها ما يساعدهـا على تفريغ الثقافة الوطنية من مضمونها ، وربط مصالحها برأس المال الخارجى ، وربط سياساتها بسياسات احدى القوتين العظميين تنشأ معركة مضادة من أجل اعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث تكون حاملا للأهداف القومية تعبيرا عن مصالح الأغلبية ودفاعا عن التنمية الذاتية واستقلال الارادة الوطنية •

٤ ـ اذا كانت الثقافة الوطنية كما هى ممثلة فى الامثال العامية وفى التراث القديم تحمل اتجاهات متعارضة ، مايتفق منها مع الأهداف القومية التى تمثل مصالح الأغلبية وما يتفق مع مصالح الأقلية المضادة للأهداف القومية فكيف يمكن ايجـاد مقياس للاختيار بينها اختيـارا مسبقا وكلاهما على نفس مستوى الشرعية النظرية والأثر العملى ؟ والحقيقة أنه لا يوجد مقياس نظرى لصحة احدى الاتجاهات دون الأخرى مادامت كلها مخزونا نفسيا عند الجماهير ، ومع الاعتراف بأن المخزون النفسى المضاد للأهداف القومية قـد يكون أقوى وأرسخ وأظهر من المخزون النفسى المؤيد لهذه الأهداف القومية • المقياس عملى صرف ، وهو مدى ثقل الأهـداف القوميـة التى تمثل مصالح الأغلبية على الأهداف المضادة التى تمثل مصالح الأقلية • هذا التناقض بين اتجاهات الثقافة الوطنية هو فى حقيقة الأمر صراع اجتماعى كامن ، وجـزء من صراع القوى ، وأسلحة ممكنة قابلة للاسـتخدام من كلا الطرفين • والسلاح الأقوى مع حسن الاستخدام والقدرة على ادارة المعـارك هو الذى يحسم الصراع لصالحه •

٥ ـ ألا توجد عناصر ثابتة ودائمة فى الثقـافة الوطنية تكون مرادفة للعناصر الدائمة والثابتة المكونة للشخصية القومية ؟ هل اعادة بناء الثقافة الوطنية طبقا للأهداف القومية تجعلها دائمة التغير والانقطاع ، وبالتالى تفقد ديمومتها واتصالها ؟ والحقيقة أن هناك عناصر ثابتة فى الثقافة الوطنية ولكن المهم هـو كيفية قراءتها وطريقـة تأويلها ووجه استخدامها • فالتوحيـد عنصر دائم ولكن تختلف تحققـاته من عصر

الى عصر طبقا لحاجات كل منها المتغيرة • كمـا أن اعـادة البناء ليس انقطاعا فى الثقافة الوطنية بل هو مجرد قراءة لها طبقا للمتطلبات الحالية • فالتغيير فى المضمون لافى الشكل ، وفى التطبيق لافى الأصل • وبالتالى يحدث التغيير من خلال التواصـل • هذا بالاضافة الى أن الأهـداف القومية لاتتغير فى كل عصر • فمازال مشروعنـا القومى الذى وضعه الأفغانى فى القرن الماضى هو مشروعنا الحالى • وقد يبقى كذلك لعدة أجيال •

٦ ــ ألا يوجد أثر للتغيرات الاجتماعية على الثقافة الوطنية ؟ الا تفرض التغيرات الاجتماعية المتلاحقة ثقافاتها بحيث يصبح المعلول علة والعلة معلولا ؟ الا يفرض التصنيع ثقافته وبالتالى لاحاجة الى اعادة بناء ثقافة المجتمع الزراعى وهو مازال فى مرحلة الزراعة والا كنا كمن يريد أن يصب ماء فى لا وعـاء ؟ الا تتغير الثقافـة بتغير البنية الاجتماعية والتركيب الطبقى للمجتمع حتى ولو كانت ثقافته التقليدية غارقة فى الفيض والاشراق ؟ الحقيقة أنه مهما كانت قوة التغيرات الاجتماعية بل والمرحلة التاريخية التى يمر بها شعب ما فانها تظل مجرد تغير فى تحققات الثقافة الوطنية وليست فى ماهياتها • وتظل الثقافة الوطنية عبر التاريخ تحتل عنصر الديمومة والاتصال مرادفة للشخصية القومية • انما الذى يتغير هو دورها وفاعليتها وتوجهاتها طبقا لصراع القوى الاجتماعية • صحيح أن التغيرات الاجتماعية تكسب عادات جديدة ولكن يظل السلوك العام تعبيرا عن الثقافة الوطنية • وغالبا ما يقع الصدام بين النمطين فى السـلوك ، ويحسـم لصـالح احدهما على الآخـر أو لتجاورهما معا كنوع من تقسيم العمل أو تداخلهما فى وحدة عضوية نابعة من ثقة الثقافة التقليدية بقدرتها على التأقلم والحداثة ، وبأنه لاخوف عليها من الحداثة الوافدة لأنها تتفق مـع حـداثة الموروث الحالة فيه •

٧ ــ اليست البداية بالثقـافة الوطنية كمدخل لقضـايا التغير الاجتماعى تصورا رجعيا غربيا رأسماليا أو على الأقل تصور الطبقة

المتوسطة التى اوتيت قدرا من العلم والثقافة بحيث تريد أن تجد لها دورا متجددا فى وقت تتأزم فيه القضية الاجتماعية بحيث تهدد الطبقة المتوسطة ليس فقط فى دور مقابل أيضا فى وجودها ومستقبلها ؟ والحقيقة أن مفهوم الثقافة الوطنية ليس مفهوما برجوازيا تجد فيه الطبقة المتوسطة ليس فقط فى دورها بل أيضا فى وجودها ومستقبلها ؟ الرأسمالية دفاعا عن شرعيتها ضد الايديولوجيات الجذرية ، ولامثالية تجاوزتها المرحلة الحالية والتى اصبحت تمثل تحــولا نحو الواقعية الاجتماعية لأن الماركسية ذاتها انما بدأت عند ماركس الشباب كنقد للثقافة القومية كما مثلها الهيجليون الشبان . كما أن المشروع كله ، اعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث تكون حاملا للأهداف القومية ، سحب للبساط من تحت اقدام المحافظة التقليدية ، وهو التيار الأقوى الذى يعتمد على التراث الدينى وكأنه غاية فى ذاته ، ودون أن يجعله أحد المكونات لثقافة أوسع ، ودون أن يجعله حاملا للأهداف القومية . وهو فى نفس الوقت دحض حجة العلمانية بأن الثقافة الوطنية تقليدية محافظة لاتقوى على أن تكون عاملا فى التغير الاجتماعى . وفى البلاد النامية يكون النقد الفكرى بلاشك بداية التحديث . فالعقلية النقدية ليست حكرا على حضارة دون حضارة . ولقد ثبتت تجارب التنمية الأخيرة صعوبة التنمية الاقتصادية دون أن تواكبها التنمية الثقافية من أجل تحييد عناصر المحافظة وتنشيط عناصر الحداثة فيها وحتى يمكن تعبئة الجماهير ومشاركتها فى عملية التنمية .

٨ ــ اليس ذلك كله مثالية ترى الواقع فكرا ، والمجتمع ثقافة ، ويحيل الصراع الاجتماعى الى معارك فكرية ، فكرة بفكرة ، ورأيا برأى ، وهى معارك وهمية ، ترف ثقافى لا يقوى عليه الا المثقفون ، ولا تدرى عنه الطبقات الكادحة شيئا ؟ والحقيقة أن الفكرة ليست وهما والثقافة ليست ترفا . الفكر واقع أكثر من الواقع الحسى الملموس ، والثقافة بنية لا مرئية تتحكم فى البنية المرئية . الفكرة دافع هى ، تصور عملى للعالم ، وباعث حركى على السلوك . وقــد يكون خطأ الاتجاهات

الجذرية فى جيلنا هو سرعة القفز اليها دون الرد بنقد الأفكار ، أى الانتقال من هيجل الى ماركس دون المرور بمرحلة الهيجليين الشبان أى بمرحلة نقد المثالية التى استطاع هيجل أن يحول الدين اليها[٢٩] . ان ما قد يظنه البعض أنه مثالية قد يكون أشد أنواع الواقعية وهى واقعية الافكار . وما يظنه البعض الآخر أنه واقعية قد تكون أشـــد أنواع المثالية لأنها مثالية الوهم والتجريد والادعاء .

٩ ــ قد يقال ان هذه هى حالة مصر والتى لاتجد لها مثيلا فى باقى الأمة . هو تعميم من الخاص الى العام واسقاط لحالة مصر على غيرها من الاقطار . والواقع أن هـــذه حالة عـــامة فى مصر وتونس والجزائر والمغرب والسودان وسوريا والعراق والأردن ولبنان والبحرين ، فى كل الاقطار التى يشتد فيها الصراع بين المحافظة الدينية التقليدية ، والتقدمية العلمانية الحديثة . ومصر هنا نظرا لتاريخها الثقافى فى المنطقة مجرد نموذج لما يحدث حولها فى المحيطين العربى والاسلامى . لذلك كان هذا التأرجح بين الثقافة الوطنية والثقافة « القومية » .

١٠ ــ وقد يقال ان هذه عموميات تحتاج الى تفصيلات ، واعلان نوايا تحتاج الى تحقيق ، وأمانى ورغبات لاتعبر عن واقع ملموس . والحقيقة ان اعلان النوايا يحتاج الى تحقق فعلى لاعطاء نماذج من اعادة بناء ثقافتنا القومية . وذلك عمل مشترك للجميع ، والاجتهاد مفتوح لكل المثقفين والمواطنين . ويمكن اعطاء نماذج للتنبيه على ذلك فى دراسات ثلاثة قادمة : « مخاطر فى فكرنا القومى » « مخاطر فى سلوكنا القومى » « مخاطر فى وجداننا القومى » .

---

(٢٩) انظر دراستنا : « الاغتراب الدينى عند فيورباخ » عالم الفكر ، ابريل ــ يونيو الكويت ١٩٧٩ دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ .

مخاطر فى فكرنا القومى

مقدمة : لقد حان الوقت لتحديد خصائص فكرنا القومى ، ما له وما عليه . وانه ليصعب علينا ان نوجد دون ان نعى تصورنا للعالم ، وان يكون لدينا العمق الشعورى الكافى لرؤيته والحكم عليه ، وقياسه على الواقع ورؤية توجيهه للسلوك . فالفكر القومى ليس مجموعة من المبادىء يمكن عدها ، ولكنه سلوك يومى يتحدد فى انماط فكرية ونماذج ثقافية ، وخبرات معاشة يمر بها الجميع ، ووصلت الى درجة من العمومية والوضوح حتى أصبحت نمطا للحياة الثقافية وأسلوبا فى الحياة العامة لا يخرج عنه أحد حتى ولو أراد بما لديه من بقايا فطرة ، وشجاعة أدبية ، ورغبة فى المخاطرة ، وحبا فى النزال وبراءة طفولية لا تخبو مهما كانت الظروف . وهذا لاننا نتحدث عن الغالب وليس عن النادر ، ونشير الى العام وليس الى الخاص ، ونتطرق الى المشهور وليس الى الشاذ ، ونتوجه الى الشائع وليس الى الاستثناء ، ونصف الخط الدائم المتصل وليس النتوء البارز المتقطع .

فهذه المخاطر العامة لا تعنى انها الخط الفكرى لكل فرد من أفراد الأمة ، فقد يخرج عن هذا الخط أو ذاك فرد أو أفراد يكونون حركة التاريخ ، ولكن السمات القومية تتحدد بالسمات الغالبة وليست بالسمات الفريدة ، وهى ما زالت مستمرة تفعل فينا وتشكل فكرنا القومى ، وتحدد سلوكنا اليومى ، وتكون نظريتنا السياسية . فاذا كان

- كتب النصف الاول من هذا المقال فى ١٩٧٤ فى غمرة الفرح والنشوة برجوع صديقنا د . أنور عبد الملك بعد غربة دامت خمسة عشر عاما فى فرنسا الى ارض الوطن ، وعودة مصر الى نفسها بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، ورغبته فى تأسيس مجلة « النهضة » للحوار بين المدارس الفكرية المختلفة وتأصيل الروح القومية . ولكن سرعان ما هبط الحماس لدى بعد تردد صديقنا خشية « الوفاق » فلم يكمل المقال . وكتب النصف الثانى بعد ثلاث سنوات تقريبا فى ١٩٧٧ بعد القضاء على المجالات الثقافية فى مصر « الكاتب » و « الفكر المعاصر » و « الطليعة » و « روزا اليوسف » ، وبزوغ امل جديد فى المجلات العربية وانتقال الثقافة اليها وفى مقدمتها « مواقف » و « دراسات عربية » و « افاق عربية » و « قضايا عربية » . فالنية مازالت موجودة والامل مازال يراودنا . وقد اعطينا خلاصة هذا المقال فى ندوة صديقنا د . عبد المنعم تليمة فى الخريف الماضى : قضايا عربية ، ابريل ١٩٧٨ .

تبرير السلطة القائمة هو الطابع السائد فهذا لا يعنى عدم وجود فكر مناهض للسلطة ومعارض لها ، وغلبة المنهج الاستنباطى النازل لا يعنى بالضرورة غياب كل فكر تحليلى علمى صاعد ، وغياب المؤسسات الفكرية وتهرؤها لا يمنع من وجود بعض التنظيمات والجماعات الفكرية المؤثرة فى حياتنا القومية ، وغياب البعد التاريخى فى فكرنا القومى لا يمنع من وعى البعض منا بالتاريخ ومحاولته استكشاف فى أية مرحلة من التاريخ نحن نعيش ؟

وقد يبدو من الصعب تحديد مخاطر فى فكرنا القومى دون التعرف على هذا الفكر ذاته وتحديد خصائصه ، والحقيقة ان هذه هى احدى المخاطر الأولى وهى غياب معالم لفكرنا القومى يصعب تحديده من خلالها ، وقد ينفيه البعض كلية لأن الفكر لا يكون قوميا ، فالفكر لا جنس له ولا دين ، وقد يثبته البعض الآخر على نحو لا شعورى فتكون مهمتنا اذن تحليل النفس واخراج ما تحت الشعور الى الشعور ، وقد يثبته فريق ثالث على نحو شعورى ، ويحكم بوجوده ، بل ويحدد سمات دائمة له تقترب احيانا من الصفات الدائمة حتى نقترب فى النهاية من الفكر العنصرى الذى يحدد لكل فكر قومى صفات ثابتة عبر التاريخ لا تتغير بتغير الظروف أو بتوالى الفترات التاريخية .

ولكن بصرف النظر عن حجج كل فريق فان فكرنا القومى هو ما يعبر عنه الكثير باسم الثقافة الوطنية عندما تتحدد بصورة بارزة ، فالفكر القومى هو الذى يحدد معالم الثقافة الوطنية ، والثقافة الوطنية هى تحقق للفكر القومى فى مجالات التربية خاصة تربية الجماهير من خلال الكوادر السياسية أو أجهزة الاعلام أو مناهج التربية .

وفكرنا القومى هو ما يعبر عنه أحيانا أخرى باسم الشخصة الوطنية التى كثر عنها الحديث فى هذه الأيام(١) أو الشخصية القومية أو

---

(١) نخص بالذكر جمال حمدان ، لويس عوض ، حسين فوزى ، نعمات احمد فؤاد ، انور عبد الملك ، وليم سليمان ، وكثيرون غيرهم .

الشخصية فحسب • ولكن الشخصية هي تحقيق الفكر بطريق محسوس قائم على حب الذات والرغبة في الحصول على وجود ملموس في مواجهة الضياع • الشخصية تحقيق مبدئي وسريع للفكر القومي ، واحساس مرحلي بالوجود في مواجهة العدم • ولكن سرعان ما ينحل هذا التجمد ، ويتحول الفكر القومي الى وجود من خلال نشاط الجماهير وعمليات التغير الاجتماعي ، فتحل الثورة محل الشخصية وتذوب الشخصية المتجمدة في الثورة • فالحديث عن الشخصية حديث متسرع يود الانتماء السريع ، ويعوض الاحساس بالفقد حتى ولو ضحى بالحركة والنشاط • ويغيب عن الاذهان ، من أجل المحافظة على الذات ، كل ما تحتويه الشخصية من عنصرية وتشخصية وأنانية وتوسع في المجال الحيوى وغياب مقياس للتوفيق بين الشخصيات القومية ، فليس احدهما بأولى بالبقاء من الآخر •

وعلى كل الأحوال ، فكرنا القومي شيء موجود ، من الصعب أن يغيب في عصر الايديولوجيات والمذاهب الفكرية حتى ولو كنا ما زلنا نعاني من غياب أيديولوجية واضحة المعالم متسقة المضمون • ولكن يصعب التمييز بينه وبين التراث • فالتراث مخزون نفسي لدينا ، وهو الذى شكل فكرنا القومي وطبعه بطابعه لدرجة انه يمكن القول بأنني لا أفكر تراثي بل تراثي هو الذى يفكر لي وفي • فالتراث هو الذى أمد فكرنا القومي بقوالبه الأساسية ، وحدد علاقاته بالسلطة وبالواقع وبالمنهج وبالمؤسسات وبالتاريخ • فكرنا القومي ما هو الا ناتج عن التراث ، أو هو التراث في تفاعله مع واقع جديد • الفكر القومي ما هو الا تعبير خارجي عن شيء دفين هو الموروث ، وهو السطح لعمق آخر هو التاريخ •

والتراث هنا لا يعني الدين وحده ، بالرغم من ان الدين هو الطابع الغالب ، ولكنه يضم الشعبي أيضا ، فنحن نفكر من خلال الغزالي والأشعري كما نسلك من خلال أبي زيد الهلالي وسيف بن ذى يزن ، ونطرب من ترتيل للقرآن ، وننتشي من سماع شهر زاد وعلى بابا وجحا •

نستشهد بالقرآن والحديث كما نلجأ الى سلطة الأمثال العامية والأقوال المأثورة • ونعتمد على تاريخ الصحابة والخلفاء كما نتأسى بالتجارب والأزمات التي تمر بها البلاد • فالتراث هو الديني والعلماني كما يبدو في الموالد التي يختلط فيها الالهي والشعبي ، الديني والدنيوي والتي نمارس فيها الصلاة والفجور !

وكان يمكن بطبيعة الحال تحليل خصائص فكرنا القومي للتعرف على مكامن الخطر فيه بتحليل الاعمال الفكرية والأدبية والاستشهاد بالنصوص ورصد الوقائع واعطاء البيانات والاحصائيات وتأييد هذه المخاطر بالارقام ولكن في الحقيقة لا يمكن الانتقال من الوقائع الى الماهيات أو من الأشياء الى المعاني • هذه الاستحالة هي احدى بحدود النزعة التاريخية • ولكن يمكن تحديد معالم فكرنا القومي بتحليل تجاربنا الفكرية ومحاولة التعرف على ماهيات مستقلة لها يدركها كل من يشارك فيها ومن ثم تتحول الى حقائق موضوعية • فالموضوعية هنا لا تعني خروج الماهيات من الوقائع المادية بل عموم الماهيات وتطابقها في التجارب المشتركة • وبالتالي ، فالمنهج الفينومينولوجي هو أقرب المناهج لتحقيق هذا الغرض • فهو الذي يساعد على تحليل التجارب الشعورية التي يعيشها مفكر عربي في عصرنا الراهن محاولا ادراك ماهياتها المستقلة • ويكون مقياس صدقها هو مدى اشتراك المفكرين الآخرين في هذه التجارب المعاشة وفي الماهيات المدركة • يمكن الاختلاف في درجة عيش التجربة بين الحدة والبرودة ولكن لا يمكن الاختلاف على وصف الماهية • والاختلاف في تعليل الظاهرة ووجودها لا يضير الباحثين شيئا ، ولا يطعن في وجود الظاهرة نفسها وذلك لأن المنهج الفينومينولوجي لا يعنى بسؤال النشأة Genetic question ولكنه يضع سؤال الماهية • ولا يهمه التفسير Explanation بل يهمه الفهم Understanding فتعدد التعليلات لسبب وجود الظاهرة لا تمنع من وحدة ادراك الماهية المستقلة • ان معركة البناء التحتي والبناء الفوقي وأيهما علة وايهما معلولا ما زالت خاضعة للتصور العلى بين الواقعة والدلالة • والحقيقة

ان الجدل بين البنائين انما يتم فى الشعور الذى له أبنيته الخاصة . فالذى يحدد الظاهرة والذى يفسر نشأتها ليس هو البناء التحتى أو البناء الفوقى بل هو البناء الشعورى الناتج عن تجربة معاشه . هو ليس بناء صوريا ، ولو انه يخضع لتحليل العقل الخالص ، بقدر ما هو اتجاه وباعث ومحرك وسلوك . فالفكر القومى ظاهرة اجتماعية متشابكة . اذ ينشأ الفكر القومى نتيجة لظروف تاريخية وحضارية واجتماعية ثم يؤثر فيها بدوره ويوجهها . علاقة الفكر بالواقع اذن علاقة متبادلة ، ينشأ الفكر من الواقع ثم يوجه الفكر الواقع ويحدد مساره . ويتم ذلك كله فى الشعور من خلال التجارب الحية التى يعيشها الفرد وتحياها الجماعة . وقد خلقت الثورات العربية المعاصرة هذه الظروف على مدى ربع قرن وطبعت فكرنا القومى بطابع معين ما زال حتى الآن يؤثر فى مسارها الى الأمام أو الى الخلف (٢) .

ان التعرف على فكرنا القومى وعلى مكامن الخطر فيه هى احدى جوانب التعرف على الذات قبل أى شروع فى عمل أو اعطاء أنفسنا مهمة تاريخية . والقدرة على الحكم على الذات هى فى نفس الوقت تعميق لها اذ انها تصبح ذاتا وموضوعا فى آن واحد . والاشارة الى هذه المخاطر ، والتنبيه عليها ليس ادانة لانفسنا بقدر ما هو كشف عن أبنيتنا الثقافية وتحليل نفسى لوجداننا الحضارى ، وتشريح لاذهاننا ، وعملية ممارسة للنقد الذاتى الذى لا تقوم نهضة بدونه . كما انها ليست محاكمة فكرية

---

(٢) وقد بدأ النقاش فى حياتنا المعاصرة حول « اليسار المصرى والتجربة الناصرية » بالقضية التى نجزها د . فؤاد زكريا عن تبرير اليسار المصرى لكل التجربة الناصرية دون أن يأخذ موقفا نقديا منها . وبالرغم من نفاذ الآراء ووضوحها وتعبيرها عما يجيش فى صدور قواعد اليسار العريضة فقد ضاع النقاش فى متاهة الاسماء والاشخاص فى حين ان موضوع « تبرير السلطة » موضوع مستقل لا شأن له بالاشخاص ، وان تشخيص الفكر علامة دالة على موضوع اعظم واخطر وهى سمات فكرنا القومى الذى يند عن كل مرحلة سياسية نمر بها والتى تعمل من خلال الافراد عن وعى بها او دون وعى ، والتى اثرت فى ماضينا ومازالت تعمل فى حاضرنا والتى تخيم بشبحها على مستقبلنا . ان موضوع النقاش حالة خاصة لموضوع اعم هو سمات فكرنا القومى فى لحظتنا التاريخية الراهنة وفى احد جوانبه وهو علاقة الفكر بالسلطة فلا تتغير السمات بوفاة شخص وخلافة آخر بل تمتد خلال تجربة الثورة على مدى ربع قرن ولم تكن موجودة قبلها أو على الاقل لم تكن موجودة بهذا الشكل الفاضح .

لتجربتنا الثورية ، فتلك محاكمة الجيـل الحاضر والأجيـال القادمة لا محاكمة فرد لفرد آخر أو محاكمة فرد لجيل بأكمله .

خلاصة القول ، ان هذه التجارب الذاتية التى سأصفها هى تجارب جيل بأكمله تكشف عن روح العصر ، فالذاتية هنا تكشف عن الموضوعية من خلال اشتراك الآخرين وعيشهم لها . لا يختلف عليها قطر عربى عن قطر عربى آخر ، وان كانت السمة الغالبة على تجربتنا الثورية فى مصر . وغايتنا هنا مستقبلية صرفة ، وهدفنا هو احداث دوى فى شـعورنا القومى ، وطرح مسائل ، واثارة اشكالات ، وتأسيس فكر ، ووضع قضايا ، وتنشيط أذهان حتى نفكر جميعا فى المخاطر التى تهدد فكرنا القومى سواء كانت تلك التى نعددها أو أخرى غيرها . قد يرى البعض ان لا مخاطر على الاطلاق فنطمئن جميعا ، ونبدد أوهامنا ، ونقضى على شكوكنا ونصل الى بر الأمان .

ويتحدد فكرنا القومى فى خمس علاقات :

أولا : علاقة الفكر بالسلطة لمعرفة مدى استقلالية الفكر .

ثانيا : علاقة الفكر بالواقع لمعرفة مادة الفكر ومضمونه .

ثالثا : علاقة الفكر بالمؤسسات لمعرفة مواطن الفكر وقواعده .

رابعا : علاقة الفكر بالمنهج لمعرفة صورة الفكر ومنهجيته .

خامسا : علاقة الفكر بالتاريخ لمعرفة مسار الفكر وحركته .

أولا : علاقة الفكـر بالسلطة .

ان علاقة الفكر بالسلطة القائمة هى أهم العلاقات التى يدخل فيها الفكر نظرا لأن الفكر هو تحليل الواقع ، وان المفكر هو الشاهد عليه ، وبالتالى كانت السلطة القائمة التى تفتقر الى شرعية كافيـة تنظر الى

الفكر على انه خصيمها الأول ، وتجعل مهمتها الأولى القضاء على استقلال الفكر وشراء المثقفين . فالفكر هو المناهض للسلطة ، الدافع لحركات الواقع ، المحرك للتاريخ . وطالما صرخ الأباطرة : لقد هزم القلم السيف . ولكننا فى فكرنا القومى نلاحظ الآتى :

١ — **التبعية لا الريادة :** دون الذهاب الى الماضى البعيد ، وتبعية الشعب لفرعون وتأليهه للحكام واعتبارهم مصدر الالهام والخير ، ودون الرجوع الى الطبيعة وجعل الشعب هبة النيل ، يعيش عليه ، ويتبعه فى فيضانه وتحاريقه ، يكفينا سبرغور واقعنا الحالى وأساسه النفسى الاجتماعى فى اللحظة التاريخية الحاضرة ، فنجد ان الفكر تابع للسلطة وليس رائدا لها ، فالسلطة تبدأ والفكر يتبع ، وان شئنا أن نكون أقل تجريدا قلنا الحاكم يبدأ والمفكرون يتبعون ، السلطان يأمر والعلماء يباركون ، الأمير يقرر والفقهاء يبررون ، الملك يصدر والقضاة يشرعون . واتهم كل فكر يبدأ ولا يتبع بأنه فكر خارجى ، تحومه الشبهات ، وتلصق عليه لافتات العمالة والخيانة أو الطفولة والتطرف ، والمجتمع أصيل شريف ، معتدل وناضج ! ولا يقتصر الأمر على مظاهر التبعية الخارجية من فرض الرقابة على الصحف وعلى سائر وسائل الاعلام ، وضعا أو رفعا ولكن تعدى الأمر الى شعورنا القومى حتى فقد القدرة على كسر النطاق ، وأخذ زمام المبادرة ، وتحليل الواقع بصرف النظر عن موجهات السلطة . وقد ساعد الفقر على ذلك ، واحتار المفكر بين الحق والرغيف فآثر الرغيف وتغاضى عن الحق ، فالناس يعيشون أولا ويفكرون ثانيا الا الأنبياء والقديسين والشهداء ، وليس كل الناس كذلك . فاذا ما تحول هذا الرغيف الى أرغفة متنوعة المذاق وصحبه الشواء والمكان المرموق ومركز الصدارة يتوارى الحق كلية فيتحول الفكر الى تجارة ويصبح الكلام كما يقول أحد شعرائنا المعاصرين « عهر المفردات » ثم يفرض الشعور القومى على نفسه رقابة داخلية حتى فيما هو خارج عن وسائل الاعلام ، فى الجامعات والجمعيات العلمية والندوات الثقافية وأصبح شعورنا فى حاجة الى رائد كمشجب يعلق نفسه عليه ، ونشأ

بيننا وظيفة « الموظف الأيديولوجى » أو « مفكر السلطة » أو « داعية النظام » وهو المفكر الرسمى للنظام ، والمبشر بفلسفته ، والمبرر لاخطائه مثل « المبلغ » فى المسجد الذى يتبع الأمام بصوته حتى يسمعه باقى المصلين فيتبعون ! وشيئا فشيئا يتم تأليه الحكام ويصبح الحاكم هو المعلم والقائد ، والزعيم الخالد ، الوحيد الملهم كما كان الحال فى تراثنا القديم عندما اعطى فلاسفتنا هذه السمات لرئيس المدينة الفاضلة ، الرئيس الملهم ، المعصوم من الخطأ ، والذى يأمر فيطاع ! أصبح هناك فتق بين الفكر ومضمونه ، بين العبارة والحقيقة حتى لم تعد هنـاك حقيقة • فالحقيقة ما تقرره السلطة ، والفكر هو صياغة لها • فاذا تغيرت السلطة تغيرت الحيقة وتغيرت الصيغ والأحكام • ولما كان المفكرون يعيشون ويتعيشون فقد تكاثر عارضو الخدمات ، واشتد الزحام ، فترفعت السلطة ، وأصبح اختيارها لاحدهم منة عليه وشرفا له يحسده عليـه الآخرون ، واصطف الباقى فى قوائم الانتظار • وتتوالى الأنظمة ، ويتوارى الحكام ، وكل منهم يلغى من قبله ، وتبدأ من جديد حتى ضاعت مع الاتصال فى حياتنا القومية ، وأصبح كل يوم لدينا ثورة ، وفى كل شهر لنا عيد ، وفى كل فترة لنا صحوة ، وكنا قبلها غفلا نياما • ولكن الشىء الدائم هو التبعية للسلطة كسلوك دائم • وحتى ولو أيد مفكر قرارات السلطة عن صواب وبصدق فان الجماهير لن تصدقه نظرا لتعودها على تبعية المفكرين ، كما لو كذب الغريق مرات على الجماهير ثم غرق مرة بحق فانه لن يصدقه أحد • ولو نقد مفكر السلطة عن باطل وبادعاء فقد تصدقه الجماهير لانها قد رأت فيه بطلا رائدا •

ولما كانت طبائع الاشياء هى الغالبة فانه لا بد وان يحدث صراع بين الفكر والسلطة حتى ولو من مفكر واحد أو من أقلية لا تعدم الطبيعة وجودها مثله : رجل مؤمن من آل فرعون ، أهل الكهف ، نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد • ولكن فى حياتنا المعاصرة اذا اختلف الرأى مع السلطة ضاع الرأى وثبتت السلطة حتى ولو كان صاحب الرأى ذخيرة وطنية يشهد له بالمهارة الفنية وببراعة التحليل • ولكن اذا خرج الفكر مرة عن التبعية للسلطة فجزاؤه السيف •

فاذا ما بدأ الفكر مناهضا بقوة وعنف كرد فعل على التبعية السائدة عاملته السلطة بقوة وعنف السلطة • وطالما قاومت السلطة الرأى بالسيف فانها لن تنجح فى القضاء عليه بل ربما تكون عاملا على تقويته ونشره وتبنى أجيال جديدة له بلا تنظيم علنى أو سرى لأنه فكرة والفكرة تبقى • فى حين ان معارضة الرأى بالرأى والحوار الفكرى هو السبيل الوحيد للتعامل مع الافكار من أجل اماتتها أو احيائها • وتكون نهاية الفكر وحرية الرأى اذا ما أخذت السلطة جانبا من المنازعات الفكرية الدائرة ، وانتصرت لفريق ضد فريق ، وأيدت رأيا ضد الرأى الآخر ، وبلغة السياسة تكون الدولة خاضعة للحزب • فالقوة الوحيدة هى قوة الرأى لذلك تخشاه السلطة • وقد تكون قوة السلطة تعويضا نفسيا عن الضعف لانها ليست قائمة على الرأى وتسترا على عدم الشرعية • وقد قيل فى تاريخنا القومى المعاصر وأصبح شعارا لاحدى ثوراتنا السياسية « الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة » •

هذه العلاقة الشاذة بين الفكر والسلطة جعلت فكرنا القومى يأخذ أيضا طريقين متعارضين ، كلاهما أيضا يخالف طبائع الأمور • الأول ، طريق العمل السرى وصحافة تحت الأرض والمنشورات والهمسات والاشاعات أو القصص الرمزى الذى لا يؤثر الا فى حلقات ضيقة من المثقفين المشاركين فى نفس هموم الكاتب وبالتالى لا يخرج الفكر المناهض عن هذه الدوائر المنعزلة فى حياتنا الثقافية عن بعض الشعراء وفى حياتنا السياسية عند بعض الجماعات[٣] • والثانى ، تفجر الموقف فجأة فى ثورات الشباب أو الانتفاضات الشعبية أو محاولات الانقلاب المدنية أو العسكرية فيخرج المكتوم فجأة وعنوة ، فتتوجه السلطة لها باسم القانون فى صورة استفتاءات جديدة ، وسلطات استثنائية ومحاكم شعبية حتى تقضى عليها أو تنفذ من خلالها بالقسمة والتفرقة فتمتص البعض ، وتغرى البعض الآخر ، وتهدد فريقا ، ويهرب فريق آخر أو تفسير هذه الحركات كلها على انها من فعل خارجى ، ومن نسيج

---

(٣) مثلا ديوان شعر « احب ان اقول لا » وجبهة الرفض من المقاومة الفلسطينية •

مؤامرة دولية ، ومن تدبير الصهيونية العالمية ، ومن مؤامرات القوى الاستعمارية ، وتلجأ الى كل العلل الخارجية الممكنة دون العلة الداخلية ، وتستدعى العلل البعيدة دون الاقتراب من العلل المباشرة •

٢ — **التبرير لا النقد**: فاذا ما حدث فكر ، وعبر المفكرون عنه فانه يكون تبريرا لا نقدا ، ومباركة للخطوات التي تمت لا اشارة الى خطوات لم تتم ، وتأييدا لما هو موجود وليس مطالبة بما هو غير موجود حتى أصبح فكرنا القومى تزيينيا وتجميلا لفكر السلطة فى حين ان مهمة الفكر هو النقد لا التبرير ، والتوجيه لا التنفيذ ، وبيان أوجه النقص وليس مباركة صفات الكمال • فاذا ما تحققت الأشياء انصافا دعا الفكر الى تحقيق الانصاف الأخرى اذ ان الاعلان عما تحقق تكرار وتحصيل حاصل • فالواقع شاهد على نفسه ، وليست مهمة الفكر ان يصدر حكما عليه • واذا تحققت صورة دعا الفكر الى تحقيق المضمون ، واذا ما نودى بالشعارات طالب الفكر بقياسها على الواقع وبتحققها فيه • فى التبرير تغيب الحقيقة وتصبح تابعة لهوى السلطة ولقدرات المفكر الذى يحشد أكبر قدر ممكن منها ، ويستعمل أحدث النظريات ، وآخر الصيحات ، وأدق الألاعيب فى التبرير حتى يلبس الباطل ثوب الحق ويلوك الحق فيبدو باطلا •

ينتظر فكرنا القومى قرار السلطة ثم يبدأ فى الافاضة والشرح وبيان أوجه الحكمة ، وصواب النظر ، ونفاذ البصيرة ولكن لا يبدأ فكرنا القومى بوضع مشكلة لم تتخذ السلطة فيها قرارا بعد • أصبحت عواميد الرأى المستقل فى صحافتنا تبريرا بعديا لقرار السلطة فاذا ما امتنعت السلطة عن مد فترة قوات الطوارىء الدولية تابعها فكرنا القومى دون أن يسأل أحد من قبل عما سيكون مصير هذه القوات أو عن المطالبة بعدم تجديد مدتها ما لم يتم احراز السلام • واذا عادت السلطة فمدت فترة قوات الطوارىء ظهر فكرنا القومى مبينا الحكمة وراء التجديد حتى سئم القراء لصحافتنا اليومية من قراءة عواميد الآراء الحرة • واذا كان قرار السلطة فى ان تحرير الأرض لا يتم الا بالتعاون مع الأنظمة فى العالم فان فكرنا

القومي المعلن يمعن فى تبرير القرار • فاذا ما عدلت السلطة موقفها ورأت ان ٩٩ ٪ من أوراق اللعبة فى يد أمريكا خرجت صحافتنا لتبرير حكمة الموقف الشجاع والاعلان الجرىء •

وقد يبلغ التبرير درجة يصل فيها الى حد المزايدة على السلطة ويصبح المزايدون ملكيين أكثر من الملك • فاذا دعت السلطة الى اطلاق الحريات — عن ايمان أو كشعار — استثنى المبررون من الحريات فئات تغضب السلطة بنقدها ، وطالبوا بمنعها من الحريات لانها تثير قلق السلطة ، والسلطة راضية • واذا دعت السلطة الى الغاء المعتقلات — المفضوح منها والمستور — طالب المبررون ببقائها للفئات الضالة ! واذا تواضعت السلطة ، وآثرت عدم البقاء — عن اقتناع أو عن نفاق — حتى لا تحدث وصاية أبدية من فئة ثورية على الشعب ، طالب المزايدون باستمرار السلطة مدى الحياة لاوين اعناق النصوص الدينية التى تشير صراحة الى الشورى والى البيعة • وماذا لو حدث ان أخطأت السلطة أو أصيب السلطان بالجنون ؟ واذا طالبت السلطة البيعة من الشعب طبقا للحق الطبيعى نادى المزايدون بالتعيين طبقا لنظرية الحق الالهى • قد تسىء هذه المزايدات الى السلطة ولكن السلطة لا تنبذها بجدية بل تستفيد منها وبرفضها التام لها حتى تزداد شعبية ورسوخا • واذا طالبت السلطة بالرقابة الشعبية فوض المزايدون للسلطة حق الشعب ، والسلطة راضية بهذه الثقة المطلوبة التى يوليها اياها الشعب • لذلك أصيب فكرنا القومى باللون الواحد ، والخط الواحد ، وهو الخط الرسمي للسلطة فى حين ان تراثنا الدينى قد قام على اختلاف الآراء وتعدد وجهات النظر لأن « اختلاف الأئمة رحمة بينهم » •

ويقوم بالتبرير اليمين واليسار الحكومى على السواء • يكون اليمين متسقا مع نفسه اذا قام بالتبرير ، فهو أساسا نظرية فى تبرير الواقع والدفاع عن الوضع القائم • واذا قام بالنداء والتوجيه فلمزيد من التثبيت والارساء لما هو قائم • اليمين بطبعه تابع للسلطة ومبرر لقراراتها لأنه السلطة تتحدث عن نفسها • أما اليسار وهو الرقيب على السلطة

والناقد للأوضاع ، والموجه للواقع اذا برز فانه يتخلى عن وضعه كيسار ويلحق باليمين ، ولا تبقى الا صــورة اليسار واليمين فى العبـارات والشعارات وعناوين الصحف والمجلات والتمثيل فى المؤتمرات وارسال الوفود والبعثات • اليسار الى الشرق ، واليمين الى الغرب ، وتقليد ممثليه المناصب الوزارية ومراكز الصدارة الاجتماعية بنسب معقولة طبقا للسياسة الخارجية ومناورات اللعبة الدولية •

والحقيقة ان التبرير نقص فى الشجاعة الأدبية وليس نقصـا فى الذكاء • ولكن اذا ما توافرت الشجاعة الأدبية لدى بعض الأفراد فان تلقائية الفطرة ، وحماس الشباب ، والغيرة على الواقع ، والأمــل فى المستقبل ، كل ذلك يدفع بهؤلاء الى التخلص من هذه السمة العامة الغالبة فى فكرنا القومى وهو التبرير • لذلك تحاول السلطة استيعاب الشباب بالمنظمات والاندية والمصالح والوزارات والأمانات العامة أو احتواء الاتحادات الطلابية وتقييد حركتها أو اتهام من تبقى بالعمالة الأجنبيـة وحياكة المؤامرات الدولية • ولكن يظل الشباب هو السلاح الوحيـد للقضاء على سمة التبرير • ولو رغب الشيوخ فى المشاركة فان نفسهم يكون قصيرا ، ولا ينظرون الا حسن العاقبة والختام •

٣ ــ **الازدواجية لا الصراحة** : نظرا لتبعية المفكر للسلطة وتبريره لقراراتها وفى نفس الوقت وجود الفطرة والبراءة الأصلية التى لا تزال تبقى فى موات الفكر جزءا من حياة ، يعيش فكرنا القومى حياة مزدوجة • فهو أحيانا الفكر الرسمى المعلن عنه ، المنشور والمقروء والمسموع الذى توزع طبقا له المناصب والقيادات ، ثم هناك الفكر الآخر ، وهو ما يكنه الانسان فى قرارة نفسه والذى لا يحدث به الا نفسه أو الى اصدقائه الخلص فى الدائرة المغلقة أو يعبر عنه بالنكتة الشعبية أو بالقصص الرمزى أو على حوائط دورات المياه ! وبكثرة التكرار قد يؤمن البعض قارئا او سامعا بالفكر الرسمى قاضيا على فطرته غصبا ، فالمسـألة حياة او موت بالنسبة للطفيليات • وقد انعكس ذلك كله فى سـلوكنا اليومى الذى اخذ طابع المجاملات والتى تبلغ احيانا حد التملق واحيانا

اخرى حد المداهنة والكذب الرخيص • ولطالما تساءلت السلطة عن سبب الضحالة فى الفكر والادب وركود الثقافة وتحول الحيـــاة السياسية وسلبية الجماهير وعزوفهم عن المشاركة فى الحياة الوطنية • والاجابة على ذلك واضحة وهى ان عنصر الصدق فى الفكر والأدب مفقود ولأن الجماهير تعلم ان ما يعرض عليها او يقدم لها لا يطابق الحق الذى تعلمه ومن ثم يفقد القدرة على التعبير عنها •

وقد رسخت الازدواجية فى فكرنا القومى بسهولة بعد ان هيئت لها الظروف السياسية وذلك لأن تصورنا للعالم ثنائى اذ اننا نقســـم العالم الى سماء وارض ، اعلى وادنى • روح ومادة ، صورة وهيولى • ثم تمتد هذه الثنائية الطبيعية الى ثنائية اخروية فنتحدث عن الآخرة والدنيا ، الملاك والشيطان ، الجنة والنار • كما تتحول ايضا الى ثنائية اخلاقية فنتحدث عن الحلال والحرام ، الخير والشر ، الحسن والقبيح ، الفضيلة والرذيلة • كما تتحول ايضا الى ثنائية اجتماعية فنتحدث عن الرجل والمرأة ، الرئيس والمرؤوس ، الحاكم والمحكوم • ولكل طرف من هذه الثنائيات لغة ولكننا نعيش مستوى ونتحدث عن مستوى آخر ، فنعيش الشر ونستعمل لغة الخير ، ونعيش الحرام ونستعمل لغة الحلال ، ويتنصب الحاكم ثم يستعمل لغة المحكومين[٤] • كما يقوى بذلك فينا نزعاتنا الباطنية واتجاهاتنا الصوفية التى تدرك الحقيقة على مستويات ، وترى ان لكل شيء ظاهرا وباطنا حتى عرفنا بالتأويل والتخريج • ولكن يظل الكامن والمستور هو موطن الحقيقة وليس المعلن العلنى •

والازدواجية هم على القلب وحياة الجحيم اذ لا يعيش الانسان المزدوج حياته بل يحيا حياة الاخرين ، ويفقد وجودة الخاص من أجل الزيف العام ، وتكون هى النهاية عندما تتم المواطأة ، وتختفى الفطرة • لذلك جاء الانبياء كلهم نقدا لحياة النفاق ضد من يريدون جعل الدين حجابا او سواك ، آذانا او شعائر • وكثير من الموسات لفاضلات •

---

(٤) انظر مقالنا : التفكير الدينى وازدواجية الشخصية • قضايا معاصرة ص ١١١ ـــ ١٢٧ •

ولكن اذا تحدث الانسان عن فطرة ، ورفض الأقنعة الزائفة فان حديثه يسرى سريان النار فى الهشيم ، ويكون حادثة العصر • بل وقد ينهض الشعب فجأة ويهب على غفلة من الحكام ، ثائراً على حياته الوطنية المزيفة ويكشف عن المستور ، ويخـرج الكامن ، ويرفض القشور ، ويسقط الشعارات الجوفاء • والتاريخ لا يخلو من هذه اللحظات ، والمجتمع لا يخلو من هؤلاء الافراد • فلحظات الصدق التاريخى او الفردى هى مواطن الحركة والتغير •

واذا كان للتوحيد معنى لعصر سادته الازدواجية ولفكر قومى طبيعته الثنائية فان هذا المعنى هو فى اعادة الوحدة الى شخصيتنا الوطنية ، فكرا او سلوكا ، فالتوحيد اسم فعل يدل على حركة وجهد وليس اسما ثابتا يدل على شيء ساكن مثل « واحد » وبالتالى فان مهمة الفرد هى عملية التوحيد بين الفكر والقول ، وبين القول والعمل ، وبين الفكر والوجدان وبالتـالى نقضى على الانفصام فى شخصيتنا الوطنية • والتوحيد فى المجتمع يعنى تأسيس مجتمع بلا طبقات وبلا تمايز بين الافراد ، وهى الامة الواحدة التى يتفاضل فيها الأفراد طبقا للعمل وليس تمايزا بين الافراد ، وهى الامة الواحدة التى يتفاضل فيها الأفراد طبقا للعمل وليس طبقا للجنس او الطبقة او النسب او الدين • التوحيد والازدواجية اذن نقيضان ، ولايمكن ان يكون الانسان موحدا ومزدوجا فى آن واحد •

ثانيا : علاقة الفكر بالواقع •

وكما أن الفكر فى مواجهة السلطة القائمة فانه ايضا فى مواجهة الواقع الذى ينشأ الفكر منه ، كما ينشأ من العقل ايضا ، والذى يتقبل توجيه الفكر فيما بعد • فلا يوجد فـكر طائر حتى عند اعتى دعاة المثالية الذين يعترفون بالواقع اولا ثم يحكمون عليه بانه فكر ثانيا • فالفكر والواقع طرفان لشيء واحد ، هو الواقع أو الوجود أو الحقيقة انما الاختلاف فى نسبة كل طرف الى الطرف الآخر او فى رتبة الشرف او الاولوية التى نعطيها لاى منهما •

وفى علاقة الفكر بالواقع يتسم فكرنا القومى بالآتى :

١ — **الانشــاء لا الاخبــار** : وكثيرا ما يعم الانشــاء فكرنا القــومى • والانشــاء اســاســا هــو التعبير عن انفعــال نفسى بعديــد من العبــارات يتوالى بعضهــا وراء البعض دون ان يضيف احــداها الى الأخرى جــديــدا • وهــذا الانفعــال قــد يكون اوليا كتعبير عن انتصار او هزيمة وقد يكون رد فعل ، وفى هذه الحالة يكون تعويضا عن واقع ، وصورة ذاتية له • الانشــاء ليس صياغة لفكرة قائمة على تحليل الواقع بل هو نقص فى رؤية الواقع ، وتقوقع على الذات ، واكمال بالعاطفة لنقص فى العقل ، وتعويض بالذاتية عن الموضوعية • الانشاء هو وسيلة للتعبير عن الايمان بالتمنى او ما يسمى بالفكر المرغوب فيه Wishful Thought عندما ينحسر اتحــاد الفكر بالواقع ويود ان يهرب منه او يرغب فى أداء وظيفة الفكر الرســمية وينتهى الامر او لنقص فى العمق او لخوف او لطلب شهرة او لتسابق على الدفاع عن السلطة • عندما ينحسر الفكر عن الواقع تعبر الرغبات عن نفسها ، وتنفصل الذاتية عن الموضوعية ، وتصبح ذاتية صورية خالصة ولو انها فى ظاهرها انفعال ومضمون • وهو فى الحقيقة مضمون فارغ وصورية جوفاء ، الانشاء نرجسية خالصة لايرى الانسان فيه الا ذاته فى مرآة نفسه وهــو يظن انه يصف الواقع الخــارجى • الانشاء خطأ فى الرؤية ، فلا هى رؤية حسية خارجية ، ولا هى رؤية باطنية حدسية بل مجرد تعبير اهوج عن فرح او ضيق لم يصل بعد الى مستوى الفن • الانشاء لايتجاوز حدود الصراخ والعويل • الانشاء هو الذى يؤدى الى الضحالة الفكرية والى السطحية فهو ليس ادبا ولا فكرا • وقد عبر عن هذا الانشاء باسم المراهقة الفكرية او التخلف الثقافى او السجع الفكرى او الانفعال فى الفكر القومى كما عبر عنه القدماء باسم التفكير الخطابى فى مقابل الفكر البرهانى • وكما وصفه احد شعرائنا المعاصرين هى « العنتريات التى ما قتلت ذبابة » •

وكانت النتيجة انحســار الفكر عن الواقع وفقد قــدرته على

التوجيه • واصبحت وظيفة الفكر هو التفريج عن الهموم ، وتطهير النفس من الأزمات ، فحلت النفس المهمومة محل الواقع ، وعمت الفرحة بعد الخطبة العصماء والواقع لم يتغير • لذلك زادت اهمية الدعاية ، وظهرت الحاجة الى الاعتماد على اجهزة الاعلام لتوجيه النفوس والتخفيف عنها بدلا من توجيه الواقع وحل ازماته • ومن هنا ايضا أتت اهمية الشعارات التى كانت تطلق البيانات التى كانت تصدر والمواثيق التى كانت تصاغ من أجل تخفيف الآلام عن الناس •

وقد قيل : ان سبب ذلك هو أن اللغة العربية بطبيعتها لغة شعرية طبعت الفكر والثقافة بطابعها وان الفكر العربى بطبيعة تكوينه صاحب موقف جمالى شعرى من العالم ، يعيش فى العالم شاعرا لا عاقلا او عالما • وأن الانسان العربى وريث الانسان السامى القديم يؤمن بالصورة الفنية ويدرك بالحدس ويتصور بالخيال ، فهو يعيش فى عالم ذاتى خالص ينشد وهو يظن انه يفكر ، ويغنى وهو يظن انه يحلل ، وينفعل وهو يظن انه يخطط[٥] • والحقيقة ان هذا حكم جائر يتحدث عن طبيعة ثابتة للغة العربية وللعقل العربى • وهو حكم تعارضه قرائن كثيرة • فاللغة العربية تعرف الحقيقة والمجاز ، الظاهر والمؤول ، المحكم والمتشابه ، المجمل والمبين • كما تحتوى كل اللغات على البيان والبديع والبلاغة • وقد استطاعت حضارتنا الابداع الشعرى والعلمى والمنطقى فى آن واحد • ولم يمنع الشعر العربى من تأسيس العلم العربى ، والمنطق الاسلامى • كما استطاعت لغة العرب التعبير عن تحليل الواقع وحصر علله وسبرها وتقسيمها وتأسيس مناهج الاستدلال وطرق الاستقراء • ولكن الانشاء يرجع فى الحقيقة الى ظروف راهنة وليس الى طبيعة دائمة ، وترجع هذه الظروف بدورها الى الاوضاع السياسة والى المرحلة التاريخية التى تمر بها مجتمعاتنا الحالية •

٢ — **التكرار لا الابداع** : ونظرا لتبعية الفكر للسلطة ، والسلطة واحدة ، والتبرير قائم فقد نشأت ظاهرة التكرار

---

(٥) زكى نجيب محمود : تجديد العقل العربى ص ٢٥٧ — ٢٨٧ •

فى فكرنا القــومى فيمــا نقــول ونكتب وفيمــا نقرأ ونســتــمع حتى ملت الجمــاهير ، وفقــدت اجهــزة الاعــــلام دورهــا فى الايصال والتوعية • لم تعد العبارة توحى بشىء بل تكرر مــا قبلها مرة نفيا ومرة اثباتا ، ولم يعد المفكر يكتب بشخصه بل يتابع من قبله • فالصحف تكرر نفس الشىء ، وينتقل رئيس تحرير صحيفة الى صحيفة اخرى دون ان يحدث تغيير فى الصحف فى حين ان الصحيفة هى الحاملة للرأى ، ورئيس تحريرها هو المدافع عن تيارها حتى لقد خرجت النكات الشعبية تسخر من ان الصحيفة واحــدة واسماؤها مختلفة • والتكرار هو امتداد للفكر فى خط واحد ، وعيشة على ذاته ، وقضاء على الخلق والابداع الذى هو جوهر الفكر • التكرار هو تغيير الصور والمضمون واحد ، وتقليب العبارات والفكرة واحدة • وقــد بدأت هذه السمة فى فكرنا القومى منذ سيادة الاشعرية وقضائها على كل التيارات المعارضة ثم عصر الشروح والملخصات التى تتكرر فيها المادة ولا تتغير الا فى مادتها بالاضافة او الحذف • وربما يكون هذا هو السبب فى ان حركاتنا الاصلاحية الحديثة لم تذهب الى أبعد مما ذهبت اليه لانها مازالت تكرر أحدها الآخر ولم يطور أحــدها الآخر ، ولم تخرج على نطاق القديم • التكرار يذهب مضمون الفكر ، ويفقد الفكر قدرته على التعبير لأنه لايوجد ما يعبر عنه • وقد يبدو التكرار فى تحصيل الحاصل عندما حاول فكرنا القومى ان يقول شــيئا عن طريق خطوة الى الامام وخطوة الى الخلف فى عبارات يثبت نصفها الاول ما ينفيه نصفها الثانى مثل : « نحن لم ننتصر ولكننا لم ننهزم » أو « لقد انهزمنا ، ولكن اراداتنا لم تنهزم » أو كما قال القدماء فى الالهيات عين لا كالأعين ، ويد لا كالايادى ، وعرش لا كالعروش •• الخ•

فاذا ما كسر احد هذه الرتابة ، وخرج على طريقــة التكرار اتهم بالكفر والمروق والعصيان ، وبالعمالة الفكرية او الشــذوذ او المرض النفسى • فبكثرة التكرار يألف الناس ما يتكرر ، وتغيب البدائل الاخرى ، فتعم النمطية الباهتة • ولكن الطبيعة تحتوى فى ذاتها على كل عناصر

الجدة والابداع ، لذلك كان فننا الاسلامي القديم الذى يطلق عليه اسم « الارابيسك » Arabesque هو فن التكرار بالاصالة ، تكرار الاشكال الهندسية الى ما لا نهاية • لقد ضحينا بالابداع والخلق غير المنظور فى سبيل الشكل ، وضحينا باللحن فى سبيل الايقاع • وقد امتد التكرار من سمة فى فكرنا القومي الى سلوك عام لنا فى الحياة • فمناهج تعليمنا تخرج شخصيات متكررة باهتة وتقضى على الفردية • ونظمنا السياسة وحياتنا الاسرية وقيمنا السائدة كلها تخضع لنفس الرقابة فى الشكل مهما خرجت الجماعات المعارضة وجبهات الرفض ، ومهما اندلعت ثورات الشباب ، ومهما كثر الخروج على العرف • فالتكرار فى فكرنا القومى يوحى بأننا مازلنا مجتمعا لم يخرج من مرحلة التقليد الى مرحلة الابداع ، ومن مرحلة التسليم الى مرحلة الرفض •

٣ ــ **التجميع لا التحليل** : فاذا اراد المفكر أن يقول شيئا اكثر وسامة من التبرير والانشاء والتكرار دون ان يخاطر بنفسه بتغيير علاقته بالسلطة من التبعية الى الريادة وبتغيير علاقته مع الواقع من التكرار الى قول شىء فان هذا الشىء يأتى من تجميع الاخبار ، ونقل المذاهب ، وتغطية الواقع بكم غفير من المعلومات ، اطباقا فوق اطباق ، دون تحليل هذا الواقع احصائيا او حتى رؤيته حدسيا لمعرفة مكوناته • فتجميع المعلومات اسلم للمفكر لانه يعرض مذهبا بناه غيره فى حين ان تحليل الواقع المباشر يلزم المفكر ويجعله هو المسؤول اولا وآخرا عن تحليله وكشفه • وفى نفس الوقت يكسب المفكر شهرة حضارية بانه اول من تحدث فى الوجودية او اول من كتب فى البنائية او اول من نقل الوضعية او اول من عرض المثالية • ثم يقبل الشباب على هذا العلم المجمع ، ويتشدق بالاسماء للمذاهب والاعلام ، ويظهر ذلك فى كمية المنشور والمعروض فى الرسائل الجامعية وفى الكتب المؤلفة • لذلك كثر الكم وقل الكيف ، وزاد المنشور ونقص المفهوم ، واتسعت مساحة الكلمات وضاقت رقعة المعانى • تتضخم المكتبات وتتألف الكتب من المراجع بدعوى تجميع المادة وكأن مجرد

جمع المادة يعني ان تحليل الواقع قد تم • ثم يصرخ البعض : اروني كتابا واحدا خرج هذا العام فيه فكر اصيل او قال شيئا ! ويجيب المسؤول : مطابعنا مشغولة حتى نهاية العام ولأعوام تالية ! وتكثر الاقوال : قيل وقال او كما قال ، ولا يجعلنا هذا أقرب إلى الواقع قيد انملة • ويكتب ابن العشرين مقالا حاشدا فيه اسماء الاعلام والمذاهب والتواريخ فنتساءل : متى قرأ ؟ ومتى فهم ؟ ومتى استوعب ؟ ومتى تمثل ؟ ومتى عبر ؟

ذاع الخبر ، وانعدم الرأى وزاد التجميع ، وقال التحليل ، وغزا فكرنا القومى اسلوب دوائر المعارف قديما وكأن العلم بالشيء هو جمع اكبر قدر ممكن من المعلومات عنه كما حدث ذلك فى التفاسير القديمة وفى كتب التاريخ التى يسود نصفها الوقائع والتواريخ للأحياء والاموات • فلا غرابة ان تكون الرواية منهجا للتاريخ ، فالرواية مصدر للمعلومات • ولا غرابة ايضا ان يتم التجميع دون أشارة للمصادر فالغاية هو جمع اكبر قدر ممكن من الاخبار حول موضوع ما • فاذا تم ذلك حدث العلم ! لم نفترق اذن عن ماضينا كثيرا عندما بدأت حركات التجميع بعد ان نضب الفكر وقفر عن الخلق كما كان فى القرون الاولى ، فظهرت دوائر المعارف وموسوعات التاريخ الكبرى ، ولكننا الآن بعد نهضتنا الثانية ، بدأنا عصر الترجمة الثانى عن الغرب هذه المرة وليس عن اليونان ، وبدأنا حركات الاصلاح ولكننا مازلنا نقوم بالتجميع والعرض والنقل . وما زال دورنا هو دور النقلة والرواة عن الآخرين من اليونان الى الغرب مرة ، ومن الغرب الينا مرة اخرى • ولم يتعب الحملة بعد من حمل بضاعة غيره !

ان العلم ليس هو المعلومات ، والمعرفة ليست هى المعارف • بل العلم هو كشف للمجهول او تصور للواقع • وقد يأتى بأقل قدر ممكن من المعلومات بل قد لا يحدث الا بعد الشك فى الموروث ، ورفض النظريات المسبقة حتى يتحرر الذهن ، ويبدأ فى ممارسة عمله فى البحث والتنقيب • فلم ينشأ علم الا بعد رفض سلطة القدماء ، ولم تتحرر

عقول الا بعد رفض منهج الرواية وبدأ نهج البحث الحر والتنقيب المباشر • فماذا يغنينا اذا كنا كالحمار يحمل اسفاراً !

ثالثا : علاقة الفكر بالمنهج •

اذا كانت علاقة الفكر بالسلطة وعلاقته بالواقع علاقة خارجية ، مرة مع الاعلى ، وهى السلطة ، ومرة اخرى مع الادنى ، وهو الواقع فان علاقة الفكر بالمنهج علاقة داخلية صرفة يتحدد فيها توالد الفكر ونشأته ومساره واتساقه • فالمنهج هـو الذى يعطى الفكر طابعه ، وفكر بلا منهج لا تتحدد معالمه • وازمة الفكر القومى هى فى حقيقتها ازمة منهج ، ومخاطره انما هى نتيجة لخلل فى المنهج • واهم المخاطر فى علاقة الفكر بالمنهج هى :

١ ــ **الغيبيات لا الوقائع** : يتعامل فكرنا القومى مع غيبيات يظنها وقائع ، وهى فى الحقيقة اوهام او تخيــلات • وبالتالى يصبح فكرنا القومى ضحية خداع فى الادراك ، فيتوجه نحو ظلال الاشــياء بدل ان يتوجه نحو الاشــياء ذاتها • ولا يعنى الفكر الغيبى الفكر الدينى او الاخرويات او العقائد او اللامرئيات بل يعنى كل اعتقــاد مبنى على حكم مسبق دون ان يثبته البرهان او تفسير الوقائع بعلل مجهولة او بعلل بعيدة وليس بالعلل القريبة المحسوسة التى يمكن قياسها او التعرف عليها مثل رد الانتصار او الهزيمة الى تدخل قوى غيبية مجهولة مشخصة هى قوى الخير او الشر ، ورد ما يحدث من بواطن الشعور الى وسوسات الشيطان او هتاف الملائكة • وتذخر امثلتنا الشعبية بذلك يستعملهـا القادة والشعوب على السواء • فنقول فى تبرير الهزيمة « لا يغنى حذر من قدر » • ويمدنا تراثنا الاشعرى القديم بمثل ذلك ، فالله هو الذى يحدد الآجال والارزاق والاسعار • والاخطر من ذلك ان الامر لم يقتصر على كونه سمة فى فكرنا بل اصبح سلوكا يوميا ، فتظهر العذراء فى الزيتون ينتظرها الآف المؤمنين كل منهم يراها « حسب ايمانه » ، كما تظهر جنية المعادى تأمر بالقتل ، ويكون الابرياء ضحية •

وتنشأ الغيبيات من نقص فى التعقل ، وعدم معرفة كاملة بقوانين

الطبيعة ومجريات الامور • فكلما تقدم الشعب فى المعرفة وفى العلم ضاعت الغيبيات من فكره • كما تنشأ من تعويض نفسى لما ضاع عن الانسان ويود انتظاره او للحصول عليه فى المستقبل بعد ان ضاع منه فى الماضى وفى الحاضر فتتشخص الحاجة وتصبح غيبا • اصبح الغيب هو الموجه لحياتنا والمسير لها ، وهو غيب بالنسبة لنا ولكننا ليس غيبا بالنسبة له • فنحن لا نعلمه وهو يعلمنا ، وكل حركاتنا وسكناتنا مرصودة علينا • وتفسر السلطة النصوص الدينية مثل « فانه يعلم السر واخفى » (٢٠ : ٧) و « يعلم سركم وجهركم » (٦ : ٣) وغيرها التى تثبت العلم الالهى المحيط لصالحها الخاص • ويصبح هذا التفسير أساس الحكم بالاجهزة السرية الخفية التى رمزت لها تلك اللوحة الفنية على مدخل مبنى المخابرات العامة والتى تضم العين الفرعونية المشهورة ومكتوب تحتها « عين الله الساهرة » !

وطالما تسود الغيبيات فى فكرنا القومى سنظل مسلوبى الارادة ناقصى العقول ، عمى الابصار • يتلاعب بمقاديرنا من يشاء ويتحكم فى مصائرنا من يريد • يتوحد فى شعورنا الله والقدر والدكتاتور واتهام كل من يخرج على ذلك بالمادية والكفر والشيوعية والالحاد ونكون قد تخلفنا عصرين : عصر العقل وعصر العلم •

٢ ــ المقدسات ليست موضوعات للبحث : فى فكرنا القومى عدة حلقات مغلقة هى المقدسات التى لايجوز الاقتراب منها او الحديث عنها بل هى التى تدفعنا الى التأليه والتقديس ، والتبتل والابتهال ، والمناجاة والصلاة ، وذرف الدموع وطأطأة الرؤوس ، وتمتمة الشفاه وتسبيل الاعين • والاخطر من ذلك أن هذه المقدسات تتحول الى محرمات ، وتصبح مصدراً للتشريع ، وموجهات للسلوك ، وتتحول أخيرا الى تابو Tabou على ما يقول الأنتروبولوجيون • ويظن البعض ان هذه المقدسات او المحرمات قد وجدت منذ البداية فى عقولنا وانهـا مقولات منطقية او لا منطقية مثل الكم والكيف والجهة والاضافة او الممكن والواجب والمستحيل او العام والخاص او الكلى والجزئى لأنها فى حقيقة الامر تنشأ نشأة تجريبية خالصة نتيجة لظروف اجتماعية معينة عندما يبدأ

الانسان خائفا من عدة اشياء فيتحول الخوف الى عجز وعدم مقدرة على المواجهة ثم يتحول الخوف والعجز الى تقديس لدرء الخطر او لجلب النفع ، وفى النهاية يتحول المقدس الى محرم •

وفى فكرنا القومى محرمات ثلاث : الله ، السلطة ، والجنس • هى مناطق مقدسة ، تند عن البحث ولا سبيل للانسان امامها الا الطاعة والولاء أو الكبت والحرمان • لذلك قال بعض علماء الانثروبولوجيا ان الدين والسلطة سواء ، والمعابد ومخافر الشرطة تؤدى نفس الغرض ، والحجاب والأزياء يؤديان نفس الغاية ، وهى الاعــلان عن المرأة والدعاية لها • تعتمد الحكومة على المشــايخ ، ويعتمد المشــايخ على الحكومة ، ومن بينهما تظهر افلام الجنس تعبيرا عن الكبت والحرمان ، وتصريفا للطاقات المكبوتة من جراء عدم المشاركة فى الحياة السياسية • والعجيب اننا نحرمها ونفكر فيها ، ونمنعهــا ونتعاطاها ، واصبحت فى فكرنا القومى اشبه بالحشيش فى حياتنا الخاصة • نتعلق بهــا ، ونفرج بها كربنا ، ونسعد بها وننسى بها شقاءنا • والأعجب من ذلك ان هذه المقدسات لاتؤدى وظيفة التقــديس بل على العكس تؤدى وظائف التعمية والتغطية والتستر والنفاق • فالله فى شعورنا لا يوجه السلوك ولا يدافع عن الفقراء ، ولا يقضى على الفروق بــين الافراد ولا يمحو التفاوت بين الطبقات • والســلطة فى نفوسنا نسخر منهــا ونهابها ، نرفضها ونتملقها ، نحتقرها ونسعى اليها • والجنس فى حياتنا نحرمه ونعشقه ، ونكشفه ونحجبه • والصامت عن الحديث عن الجنس قولا قد لا على الفضيلة ، فقد يكون هو الموضوع الاوحد لحديث النفس الباطنى • والمتبرقع والمتحجب قــد يكون اقرب الناس الى التبرج والتفضح لأنه يعلن : انا الجنس المخفى فلا تنظروا ، مثل محطة المطار السرى الذى يعلمه الجميع ! انه دعوة للنظرة تحت ستار تحريم النظرة • والشيخ الذى يتنحنح ويقول « ياساتر » حتى ينفض نساء المنزل قد يكون اكثر اثارة لهن بصوته الرخيم وبدقة عصاه • وقد يكن هن اكثر اثارة له بدبدبة اقــدامهن المسرعــة وبضحكاتهن الخفيــة وبنظراتهن من وراء ستر النوافذ وثقوب الابواب !

والحقيقة ان هذه المحرمات تتولد نتيجة عصور التخلف . فالله ليس غيبا او سرا بل ان اهم ما يميز الوحي فى آخر مراحله هو غياب الاسرار ، وسيادة العقل . فالله اشارة الى كل ما هو عام وشامل ومستقل فى عالم الماهيات والمثل أو عالم الديمومة والثبات . وهى عوالم تؤيد التجارب الانسانية وجودها . ولدينا من الله ظواهر محسوسة فى أشخاص الانبياء والكتب المقدسة ، وحوادث التاريخ ومن التجارب البشرية التى كثيرا ما نجد دلالاتها فى النصوص الدينية . كما ان السلطة ليست امرا قدسيا الهيا لا يحق للجماهير القرب منها او ابداء الرأى فيها أو الرقابة عليها بل السلطة من الشعب وللشعب او كما قيل : الأمة مصدر السلطات ، والسلطة تعبير عن الواقع الاجتماعى للامة . قد تكون حكما للاغلبية او حكما للاقلية ، قد تكون شعبية دستورية او فردية قهرية . السلطة اذن ليس لها هذه الهالة من التقديس بل هى موضوع للبحث فى علوم السياسة والاقتصاد . وغريب علينا نظريات الحق الالهى فى الحكم . انما الولاية فى تراثنا وظيفة اجتماعية ، بيعة وشورى . كما ان الجنس ليس سرا بل هو احد مكونات الطبيعة البشرية ، وأحد دوافع السلوك ومصدر للابداع الفنى ، بل هو عند البعض اساس السلوك الاول ومنشىء الحضارة والمدنية . وفى النهاية « لا حياء فى الدين » !

٣ — **المنهج النازل لا الصاعد** : فاذا كسر المفكر الطوق ، وخرج عن نطاق الغيبيات ، واقترب من المقدسات فانه يستعمل المنهج النازل وهو البداية بمصدر قبلى للمعرفة فى نص أو تراث ، فى تقاليد أو فى سنن ثم يستنبط منها أحكاما يصدرها على الواقع الذى عليه ان يتقبلها رضى ام لم يرض . وهو منهج قال الله وقال الرسول او قال ارسطو والذى يعتمد على سلطة الكتاب او سلطة الموروث . يقوم هذا المنهج على افتراض ان جميع الحقائق والمعارف قد وضعت مسبقا فى مصدرها اعطى للبشر او لم يعط فى صورة علم الهى او لوح محفوظ او قدر مكتوب ، وعلى الانسان ان ينتقى منه صورة لواقعه . فهو مصدر حوى كل شىء : ما حدث ؛

وما يحدث ، وما سيحدث ، ومهمة الانسان هو العثور على صورته فى هذا المصدر وتطبيقها • وغالبا ما يحدث الاختيار طبقا للرغبات والاهواء والمصالح الفردية او الاجتماعية فيقرأ الانسان ذاته فى المصدر المسبق ، ويختار ما يهوى ، ويجد فى نفسه الرضا والهناء فى ان حكمه شرعى ، وان سلوكه مرضى عنه فى الحسنيين • وارضاء للظاهر ، كثيرا ما ينشأ سلوكان : سلوك مطابق للمصدر المسبق فى الظاهر ، وسلوك حقيقى فى الباطن نابع من الطبيعة التى لم تفهم ومن الواقع الذى لم يحلل(٦) •

وقد أخذ المنهج النازل شكلا سياسيا وذلك لانه يتفق مع مركزية السلطة مصدر القرار ، ومفسرة الظواهر ، ومنظرة الأحداث • فالسلطة وهى الموجهة للمؤسسات الدستورية والصحفية ، وهى المحددة لبرامج التعليم ، وتصدر القوانين على نحو استنباطى من رغبات السلطة وتصوراتها • وقد حدث ذلك أيضا فى تراثنا القديم عندما تصور الفلاسفة فيض العالم عن الله فى نظرية الصدور المشهورة وان كل ما فى هذا العالم انما هو فائض عن الله • كما ظهر أيضا فى علم أصول الدين الاشعرى الذى جعل الله مركز الكون له علم مفروض على عقول الناس وارادة تدخل فى مسار الطبيعة وفى ضمائر البشر • كما ظهر أيضا فى علم أصول الفقه وذلك بترتيب مصادر الشرع الاربعة ترتيبا تنازليا من الكتاب الى السنة الى الاجماع الى القياس واعطاء الأولوية للنص على الواقعة • ولقد حاول التصوف وحده قلب المنهج من نازل الى صاعد ولكنه أصبح فرديا خالصا يقوم فى بدايته على مجموعة من القيم السلبية مثل الصبر والرضى والتوكل ثم يستمر كعلم لبواطن القلوب لا يستند الى عقل وينتهى الى وحدة شاملة تتم فى الخيال وبالوجدان دون أن

---

(٦) انظر رسالتنا
Les Méthodes d'Exégèse .PP .CXCLL Vérité descendante et Réalité ascendante

وايضا : « أيهما أسبق : نظرية فى التفسير أم منهج فى تحليل الخبرات ؟ قضايا معاصرة جـ ١ ص ١٦٩ ــ ١٧٢ » عود الى المنبع ام عود الى الطبيعة ؟ نفس المصدر ص ١٧٣ ــ ١٧٦ •

تكون هناك وحدة حقيقية فى العالم الخارجي بين الواقع والمثال فى صورة نظام سياسى ٠

لقد قامت النهضة فى الغرب بعد اكتشاف تعارض هذا المصدر المسبق للمعرفة مع بداهة العقل وتجارب الحس ٠ ولما كان مصدرها المسبق تم عرضه على العقل فكان معقولا خاصة عند الفلاسفة والمعتزلة ، كما عرض على التجربة فكان علميا عند علمائنا القدامى ومن ثم فلا خوف من استعمال المنهج الصاعد الذى يبدأ من العالم الى الله ، ومن الواقع الى المثال ، ومن التجربة الى المعنى ، فتكون الطبيعة عاقلة فى الفلسفة ومستقلة فى الكلام ، وتبدأ مصادر الشرع بالقياس ثم الاجماع ثم السنة ثم الكتاب ٠ نبدأ بعلم الاحصاء لمعرفة مكونات الواقع ، وبالتجارب لمعرفة أسس الفكرة ، وعلى هذا النحو نعيد بناء فكرنا القومى على النص حتى لا يصدق فينا قول الشاعر المعاصر : « واحتمى أبوك بالنصوص ، فدخل اللصوص ! »

رابعا : علاقة الفكر بالمؤسسات ٠

ولما كان الفكر ليس مجرد مجموعة من الافكار طائرة فى الهواء ، يطلقها من يشاء ، ويتلقفها من يريد بل ينطلق من الأرض فى صورة أشخاص أو مؤسسات أو نظم اجتماعية ٠ الفكر لا ينبع الا فى مكان ما ، مدرسة فكرية أو مذهب عقائدى تتمثله مجموعة من الناس أو حزب سياسى يعبر عن تيار اجتماعى ٠ الفكر اذن أجهزة قائمة ، وآليات تعمل ، ومؤسسات تنتج ٠ وفى فكرنا القومى فى علاقته بالمؤسسات نلاحظ الآتى :

١ — **غياب المؤسسات لا قيامها :** نلاحظ فى حياتنا القومية عدم وجود مؤسسات ينبثق الفكر من خلالها فى صورة مدارس أو جماعات أو أحزاب أو مؤسسات يصدر الفكر منها بالفعل ٠ لذلك غاب فى حياتنا القومية وجود مجمع أو مبلور Cristalizer للفكر ينجذب المفكرون نحوه ، ويرتبطون فيما بينهم ارتباطا عضويا ، يتكاثرون من خلاله ، ويلتفون حوله ، ويطورون أنفسهم بفضل حوارهم المفتوح فيما بينهم ٠

وكما نعلم من حياتنا السياسية المعاصرة ، فاننا قد فشلنا حتى الآن فى اقامة حزب سياسى ثورى ينظم حركة الجماهير ويتخرج فيه القادة لان الحزب يحتاج الى مضمون وهى الجماهير والى صورة وهو الفكر الذى يقوم عليه الحزب والى عصب وهم الكوادر المنظمة • كما ان معاهدنا العلمية ومراكز ابحاثنا لا تتعدى مستوى الاكاديمية الصرفة وبالتالى أصبحت عاجزة عن ان تؤثر فى حياتنا • واذا ما التزم احداها مثـــل معهد للتخطيط أو مركز للدراسات فانه يتم القضاء عليه لانحرافه عن الطريق وخروجه على النمطية السائدة • لا تعنى المؤسسات ســيادة البيروقراطية واللـــوائح والروتين بل تعنى التنظيم الــكفيل بسريان الحياة ، كالبدن بالنسبة للروح ، وكالعصب بالنسبة للاحساس • وقد تكون هناك مؤسسات فكرية ولكنها تهدف الى الدعاية أو الى تبرير الوضع القائم أو الى الوعظ والارشاد مثل أجهزة الاعــلام أو دور الصحف أو المؤسسات الدينية أو وزارات الثقافة والارشاد القومى ولكن المؤسسات التى يظهر الفكر من خلالها هى المدارس الفــكرية التى تتكون داخل المعاهد العلمية والجامعات ومراكز البحث والجمعيات الثقافية والاتحادات الأدبية ومراكز الثقافة والجامعات الشعبية الحرة • فالفكر القومى ليس هو البحث الاكاديمى الخالص ولا هــو الدعاية والاعلام •

ويبدو ان غياب المؤسسات الفكرية فى حياتنا القومية مرتبط أشد الارتباط بأوضاعنا الاجتماعيــة وبنظمها السياســـية وليس لنقص فى التيارات الفكرية والاتجاهات السياسية • فكثيرا ما يجد جمع من المثقفين أنفسهم فى مواجهة بعضهم البعض فى مؤتمرات خارج البلاد ، يتناقشون فيما بينهم ومع غيرهم ، ويكونون مدارس وتيارات فكرية • وقــد يسمعون عن بعضهم البعض لاول مرة ، وقد يرون بعضهم البعض لاول مرة كذلك • فاذا ما عادوا الى البلاد انفرط الشمل ، وانحل العقد ، وانقضى الجمع ، وتقوقع كل منهم فى عزلتـــه ، يكتب لجمهوره وكأن المؤتمرات الدولية الخارجية هى المؤسسة التى يجتمع فيها مفكرونا •

وإذا ما دعونا نحن الى مؤتمرات دولية داخل البلاد اجتمعنا أيضا معا وفى وسطنا المفكرون الأجانب وبحضورهم ، وكأننا لا نجلس معا الا على موائد الغير ، ولا نتقابل معا الا بحضور الضيوف الأجانب ، يكونون هم محور النقاش . ولم لا ، وهم الضيوف ونحن أصحاب البيت ، والضيوف دائما فى أماكن الصدارة(٧) ؟ وبغياب المؤسسات الفكرية غابت التقاليد الفكرية وفى مضمونها الحوار المتبادل واحترام الرأى الآخر والحرص على الوحدة الوطنية ، وعدم التعامل مع الآراء الحرة بحد السيف .

وفى غياب المؤسسات ، قد يظهر مفكر قومى ، وحيد بمفرده ، يكون أوحد عصره ، ينال ثقة السلطة الحاكمة ، ويصبح مفكر الدولة ، يحاور ويناور ، ويكون أول المطلعين على بواطن الأمور ، وأول العالمين بأخطر الأسرار ، يعطى الجماهير منها قطرة قطرة ، فتتشوق لسماعه أسبوعيا ، وتحدث لمقالاته الدوى والرنين ، يصبح مفكرنا الأوحد ، ومنفذنا على العالم الخارجى ، والمفسر للظواهر ، والمترجم عن أفكار السلطة ، وفى النهاية المبرر لجميع السلطات ، حتى لقد نشأ فى فكرنا المعاصر ظاهرة « الموظف الايديولوجى » الكبير أو الصغير ، ينظر الكبير ليكون أكبر ، والصغير كى يلحق بالكبار . وعلى هذا النحو غاب الحوار الحقيقى ، وساد فكرنا القومى المونولوج لا الديالوج ، وسمعنا نغمة واحدة نحب أن نسمعها . فاذا ما اكتشفنا عيوبنا نتيجة لهزائم متلاحقة ، كبيرة أو صغيرة ، حولنا النقد الذاتى الى نوع من الفروسية العربية ، فالاعتراف بالحق فضيلة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، امتصاصا لغضب الجماهير ، وتخديرا لهم ، ونؤسس المجالس القومية المتخصصة دون ان تحدث أدنى أثر فى حياتنا العملية .

٢ ـ تشخيص المؤسسات لا استقلالها : فاذا ما وجدت بعض المؤسسات فانها ترتبط بأسماء الاشخاص الذين ترأسوا عليها حتى

---

(٧) أنظر مقالنا : « جارودى فى مصر » قضايا معاصرة ج ١ ص ١٤٧ ـ ١٦٤ وأيضا « الايديولوجية والدين » نفس المصدر ص ١٢٨ ـ ١٤٦ .

أصبحت ظاهرة مرضية • صحيح أن لدينا جماعات : جماعة أبولو فى الشعر •• الخ • ولكنها فى الحقيقة مجموعة أشخاص ترتبط فيما بينها بتآلف جمالى أو اشتراك فى الاحساس أو اتحـاد فى الغاية أو تماثل فى المنهج أو تشابه فى المنطلقات • وتظل الجماعـة معروفـة باسماء أشخاصها المكونين لها دون أن تكون للجماعة صفة معنوية مستقلة • وصحيح أن لدينا مدارس فكرية ولكنهـا أقرب الى الدوائر المنعزلة ، الاشخاص فى بؤرتها ، حلقات متقطعة الاتصال ، تمثل رافدا وطنيـا أو تيارا قوميا ، لا تتمتع بالاتصـال ، بـل سرعان ما تنقضى بموت مؤسسها ، ولا تعيش لعدة أجيال • وان دولة المؤسسات ما هو الا شعار نخفى وراءه تشخيص نظمنا السياسية ، فيصبح رئيس الدولة هـو الدولـة ، ورئيس مجلس الشعب هـو الشعب ، ورئيس الوزراء هـو الحكومة ، والوزير هو الوزارة ، والمدير العام هو المصلحة ، ورئيس ترحير الصحيفة هو الصحيفة ، ورب الأسرة هو الأسرة • صحيح ان لدينا أحزاب لها فكرها الحزبى ولكنها ايضا تظـل مرتبطـة باسـماء مؤسيسها فلا نذكر الناصرية بدون ناصر أو الوفد دون سـعد زغلول ومصطفى النحاس أو الحزب الوطنى دون مصطفى كامل ومحمد فريد • صحيح ان لدينا مؤسسات ولكنها تظل مطبوعة بطابع رئيسها المعين ، وتتغير رؤية المؤسسة بحركة انتقال المديرين العموميين أو بتعيين الوزراء واقالتهم حتى لتعرف المؤسسات بأسماء رؤسائها فنقول وزارة فـلان ومصلحة علان ، وادارة هذا الشخص أو ذاك • تضعف هذه المؤسسـة بضعف صاحبها ، وتقوى بقوته • وغالبا ما تنقضى المؤسسة بانقضـاء صاحبها • فلا ناصرية بعد ناصر ، ولا « الطليعة » بعد لطفى الخولى ، ولا « روزاليوسف » بعد عبد الرحمن الشرقاوى • السياسية تتم باجتماع الاشخاص ، والقرارات تأتى بالعلاقة الفردية بين الوزراء ، والسياسة العربية ترسمها مؤتمرات القمة العربية للملوك والرؤساء !

وقد أتانا التشخيص من فكرنا الدينى القديم عندما تصورنا الله على انه شخص وجعلنا المسيحية مركزة حول المسيح ، وأعطينا الله صفات الانسان ، وجعلنا له سمعا وبصرا ويدا وجنبا وساقا ، ينـزل

ويصعد ، ويغضب ويفرح ، واستمر هذا التشخيص فى حياتنا الدينية حتى الآن فى صورة التقرب الى القديسين ، وتبجيل رجال الدين وطاعة أوامرهم • بل اننا شخصنا الاسلام ذاته فى محمد ، وتقربنا اليه ودعوناه ، وتشفعنا به وناجيناه ، ومدحناه وانشدنا له ، واقمنا له الموالد والأذكار ، ثم سقطنا فى غيبوبة الوجد ، وجعلناه حقيقة محمدية كما تقول الصوفية ، قديمة قدم الله ، وباقية ببقائه ، منها صدر الخلق ، واليها يرجع ! فى حين قد حذرنا القرآن من تشخيص الاسلام « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل أنقلبتم على اعقابكم » (٣ : ١٤٤) كما ورد فى الحديث « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم » وأيضا « ما أنا الا ابن امرأة كانت تأكل القديد » كما نبهتنا الاقوال المأثورة فى تراثنا مثل « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » على أولوية المبدأ على الشخص • وقد بلغنا فى حياتنا المعاصرة من عبادتنا للاشخاص ان ضاع استقلال المبادىء وقيل « ان الاحتلال على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى ! » • ونحن نعلم ان كل حركة ثورية تريد أن تطهر نفسها وتبقى على نقائها ، وتحرص على مبادئها ان تقضى على عبادة الشخص Culte de la personalité كما حدث ذلك بعد موت ستالين مرة وبعد موت خروشوف مرة أخرى ، وكما هو وارد فى وصية الزعماء الوطنيين مثل هوشى منه الذى رفض أن تقام له مظاهر التكريم لشخصه بعد الممات ، وكما حدث لعمر بن الخطاب عندما داخلته الخيلاء وهو داخل القدس فصرخ واقعا واستبدل بحصانه حمارا وعندما وجده ابنه حاملا قربة على ظهره ذهابا وايابا أمام منزله وسؤاله عن السبب وقوله : « اعجبتنى نفسى فأحببت أن أذلها ! » وكما يحدث فى الديانات الهندية عندما يحرق الرفات ويذرى فى الهواء أو يلقى فى ماء النهر المقدس حتى يعود الفرد الى الطبيعة التى منها أتى • ولكننا أصبنا بداء رفات القديسين ، ومقابر الأولياء ، وجعلنا الاشخاص واسطة بيننا وبين الله ، ودعوناهم وطلبنا بركتهم ، واستنجدنا بشفاعتهم •

ومازلنا نفطن فى حياتنا السياسية طالبين شفاعة الاشخاص لحل قضايانا المصيرية •

٣ – تجاور الاجيال لا تحاورها : فاذا ما قامت المؤسسات فانها تضم عدة أجيال متجاورة ، فيكتب الشيوخ والشبان ، بل ويزاحم الشيوخ الشبان فى أجهزة الاعلام ، وفى الصدارة للرأى حتى أصبح هناك احتكار شبه دائم للشيوخ • والأخطر من ذلك أن كلا من الفريقين يكتب فى عزلة عن الفريق الآخر دون قيام حوار بينهما يبين هوة الاجيال ومدى التطور الاجتماعى من جيل الى جيل • بل وتتحكم الشيوخ فى مصائر الشباب فهم مراكز اصدار القرارات ، يشرعون القوانين ، ويصدرون اللوائح مراعاة لمصالحهم الخاصة خشية منافسة الشباب لهم • وبالرغم من التصريحات التى تطلق فى حياتنا السياسية عن ضرورة العناية بالشباب واقامة وزارة للشباب وتأسيس منظمة للشباب أو أمانة عامة للشباب يترأسها شاب ويساعده شاب ، والدعوة الى مؤتمرات للادباء الشبان ، واقامة معسكرات للشباب الا ان الحصيلة تكاد تكون معدومة • فقد كان الهدف هو اقامة احتفالات أو اشتراك فى أندية أو تلقين معلومات أو تجنيد بعض الشباب لخدمة النظام السياسى •

وان الشيوخ يكونون دوائر منعزلة فى فكرنا القومى ، يكتبون عن الثورة الفرنسية وعن بيتهوفن وموزار أو عن الشاطىء الجنوبى الساحر لانجلترا أو عن مسارح لندن ونيورك ، ومنزلنا محطم ، وجدرانه تتهاوى ، ووجودنا مهدد بالضياع ! يعيشون على أمجاد الماضى أو على بعثة الى باريس أو على نضال قديم • لا يتطورون طبقا لاحداث العصر ، ويسهل التأثير عليهم وتوجيه اقلامهم بما ينالون من صدارة اجتماعية ورغد العيش • يسالمون ويستسلمون ، ولا مانع من اتهام الشباب بالمروق وجحد النعمة ، والضياع والضلال ، والحيرة والبلبلة !

فاذا ما استطاع بعض الشبان ابراز فكر أو احداث تيار أو تأسيس مذهب فان عمرهم الابداعى يكون قصيرا ، فسرعان ما تمنعهم المؤسسات ،

وتحيلهم الى موظفين فى الدولة فى مكاتب الثقافة • واذا رفض بعض منهم فانه يحارب فى كافة أجهـزة الدولة أو تحـاك حوله مؤامرات الصمت والنسيان •

لذلك انعدم الحوار بين الشباب والشيوخ ، وعاش كل جيل عصره ، وتجاورت الاجيال ، وتزامنت العصور حتى تشعبت روح العصر ، وتعددت أزمنته وكأننا نعيش عدة عصور فى آن واحد ، وبالتالى ضاع منا مسار التاريخ وافلتت منا حركته •

ولما كان الشيوخ هم أصحاب السلطة فقد ضاق الحصار حول الشباب وأصبحنا نعيش فى مجتمع « أبوى » نموذجه « وبالوالدين احسانا » ، وأدنا كل خروج على التقاليد ، وأشحنا بوجوهنا عن ثورات الشباب ، حتى يرجع الجميع الى حضن الأم والى كتف كبير العائلة ، ورب الأسرة •

خامسا : عـلاقة الفـكر بالتاريخ •

والفكر ليس قطاعا ثابتا أو مقطعا طوليا أو عرضيا فى حياتنا بل هو لحظة من لحظات التطور فى تاريخنا ووجودنا • وقد يكون الخطر الأساسى فى فكرنا القومى هو ثباته وعـدم ارتباطـه بحركة التاريخ الماضية أو الحاضرة أو المستقبلة ارتبـاطا عضـويا صحيحا • واذا ما ادركنا حركة التاريخ فاننا نتعامل معها بعقلية الثبات فننزع الى الماضى ونركن اليه أو نرنو نحو المستقبل ونعيش فيه أو نحرص على الحاضر ونتشبث به • وليس حكما قاسيا ان نقول ان الشعور التاريخى قد غاب فى فكرنا القومى • ويكون السؤال : لماذا غاب البعد التاريخى فى فكرنا القومى ؟ سؤالا مطروحا على وجداننا سواء فى تراثنا القديم أو فى حياتنا المعاصرة • ولما كان فكرنا القومى مرتبطا بالماضى وبالمستقبل وبالحاضر فان تحديد علاقة الفكر بالتاريخ تتأتى بتحديد علاقته بهذه الابعاد الثلاث •

١ ــ الرجوع الى الماضى كهدف لا كوسيلة: فى علاقة الفـكر بالماضى يغلب علينا الاغراق فيه ، والتشدق بمفاخره ، والاعتزاز بآثاره

كنوع من التعويض عن النقص لمآسينا الحاضرة ، وتخلفنا الحالى ، وانهيارنا الذى بدأ منذ ألف عام تقريبا بعد هجوم الغزالى على العلوم العقلية وسيادة الاشعرية على فكرنا القومى • وهى ظاهرة مرضية لأننا فى نفس الوقت نهمل الآثار ، ولا نعتنى بنشر التراث ، وتطغى الحوانيت والمقاهى على المساجد ، ونستعمل أسوار القاهرة كدورات للمياه لفك أزمة المحسورين فى الطريق !

نتصور علاقتنا بالماضى على اننا عشنا عصرنا الذهبى فى عصر النبوة والخلافة ثم بدأ الانهيار تدريجيا حتى انهيارنا التام الآن الذى مازال مستمرا. كلما بعدنا عن العصر الذهبى ، وكلما أوغلنا فى الزمان • فالتاريخ لا يحتوى الا على الشرور والآثام • وقانون التاريخ هو قانون الانهيار ، وكل جيل لاحق أسوأ من الجيل السابق « فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشـــهوات» (١٩ : ٥٩) • وهو تصور يقوم على احتقار الذات ، وعلى يأس من الحاضر ، وعلى جهل بقدرات الجماعة ، وعلى العجز التام ، وعلى اليأس المطلق • ويستمر الانهيار حتى النهاية حتى يبلغ الانحطاط مداه ، ولا يبقى مؤمن واحد على ظهر الأرض فتكون نهاية التاريخ • ثم يحدث البعث الأكبر ، والنشـــور الاعظم ، وتقع الواقعة ، وتقرع القارعة ، وتحدث الطامة الكبرى ، وكأن التقدم ظل محبوسا فى الزمان حتى انطلق مرة واحدة فى الخلود • ويتم الحساب فى العالم الآخر على من تقدم أو تأخر فى هذا العـــالم « لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » (٧٤ : ٣٧) فى عالم لم يكن فيه للتقدم مكان !

واذا كان حالنا أفضل ، وكنا أميل الى أحداث نوع من التقدم ، ونحاول أن ننقل انفسنا من مرحلة الانهيار الى مرحلة الرفع فاننا نتصور التاريخ على انه تراجع الى الوراء ، فـــلا يصلح هـــذه الأمـــة الا ما صلح به أولها ، وبالتالى يصبح مستقبلنا فى الماضى ، ونتقـــدم الى الوراء ، ونعكس مسار الزمن ، ونقلب حركة التاريخ ، فنتقدم وظهورنا الى الأمام ، ونسير ووجوهنـــا الى الخلف • وهى ظاهـــرة

مرضية أيضا لاننا نسيء فهم الماضى ولا ندرك وظيفته • يستطيع الماضى أن يكون نموذجا للتحديث ، وليس هـدفا فى ذاته ، عن طريق اختيـار أمثلة ونماذج لحل اشكالات الحاضر مثل الفقر والبؤس • فالبحث عن نموذج فى الماضى ليس ارتكانا اليه أو تعويضا نفسيا عن مآسى العصر بل هو بحث عن حلول مثلى لمشاكل العصر تتفق وافهام الجماهير وتؤثر عليها كدوافع للسلوك ، وتسير وراءها كنموذج حى للقيادة والمثل •

وفى أحسن الأحوال نتصور التاريخ تصورا دائريا • فقد بدأ التاريخ بالتقدم ، وقامت الحضارة الاسلامية ، وبلغت ذروتها ثم بدأ التاريخ ثانية بالانهيار • وهو التصور الحيوى للتاريخ الذى يعطى لكل حضارة دورة ، ويكون التاريخ هو مجموع الدورات • وهو تصور ابن خلدون ، من البداوة الى الحضارة ثم من الحضارة الى الانهيار • ولذلك قيل فى الخبر « جاء الاسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء من أمتى » •

وقد نتصور التاريخ أخيرا على انه انتقال من الوحدة الى التشتت ، ومن الجماعة الى الفرقـة ، ومن الايمان الى الالحـاد ، ومن الحق الى الباطل ، وبالتالى نلغى حركة التاريخ ، ونسقط الاجتهاد من الحسب طبقا لحديث الفرقة الناجية المشهور « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار ، الا واحدة » ثم تتعين هذه الواحدة فى « هى ما عليه أنا وأصحابى » • ولما كانت كل فرقة تدعى انها الناجية فقد حسم الأمر بأن تكون الفرقة الناجية هى التى فى السلطة والتى يؤيدها الحكم ويعتمد عليها أى بلغة عصرنا : الحكومة على صواب ! وأصبحت كل حركات المعارضة هى الفرق الضالة التى فى النار ، وبالتالى أصبحت الاشعرية فكر الدولة وايديولوجيتها السائدة التى تعتمد عليها فى تكفير الفرق المعارضة • وفى حياتنا المعاصرة استمر التكفير حتى الآن اما من السلطة ضد المعارضة أو من المعارضة ضـد السـلطة أو من بعض المعارضة ضد البعض الآخر حتى غابت الوحدة الوطنية من حياتنـا ، وضاع الحوار ، ولم نعد قادرين على سماع الرأى الآخر •

لقد أدى هذا التصور للتاريخ ــ الرجوع الى الماضى ــ الى العزلة فى الماضى والنرجسية الحضارية والانقطاع عن الحاضر وغياب المستقبل . وهو ما عرف فى فكرنا باسم التصور السلفى للتاريخ . وهو فى الحقيقة تصور الجماهير الغافلة وقادتها المناورة التى تهدف الى تبرير السلطة القائمة التى يهمها ارجاع هــذه الجماهير الى ماضيها تعمية لهــا عن حاضرها ، وسدا لها عن مستقبلها .

٢ ــ السبق نحو المستقبل دون الاعداد له : ثم يحدث رد فعل فى فكرنا القومى على التصور الســلفى للتاريخ ، فنترك الماضى الى نقيضه وهو المستقبل ونعيش فيه ونرنو اليه ، ونستبق الاحداث ، فالسابقون السابقون ، ونقطع الصلة كلية بيننا وبين الماضى حتى نطلق عقال أنفسنا ، ونحرر عقولنا من أغلاله . فأصبحنا طوباويين ، نعيش فى مدن فاضلة ، مدن الاشتراكية والمجتمعات اللاطبقية التى يتحرر فيها الانسان من كل مظاهر الاستغلال والعبودية . ولما كان الأمل فى المستقبل والثقة فيه دافعا للحركة فقد تنمرت السلطات القائمة لــكل محاولة للتحقيق الفعلى لهذا التصور للتاريخ ، فاضطهدت انصاره أو حاولت استيعابهم ، وشراء ضمائرهم ، مرة بالترهيب وأخرى بالترغيب خاصة وأن هذا الحل الطوباوى لم يكن يتعدى دوائر المثقفين التى كان يسهل اغراؤها ثم شراؤها أو ضربها . فاذا كانت الجماهير فى التصور السلفى للتاريخ ترجع بوجدانها الى الماضى تعويضا عن المآسى الحاضرة فان الصفوة فى التصور المستقبلى للتاريخ ترنو بوجدانها الى المستقبل املا فى تحريك الحاضر وتجاوز مآسيه . وما أســهل اتهام الســلطة لاصحاب الحلم الطوباوى بالعمالة الفكرية للمذاهب السياسية الغربية أو الشرقية أو بالعمالة الفعلية للدول الأجنبية التى تبنت هذه المذاهب السياسية كنظم اجتماعية لها بل وعمالة تصل الى حد الخيانة .

فاذا ما حاول احد تحقيق هذا الحلم الطوباوى فانه يبدأ بنشره فى أجهزة الاعلام لتقوية الوعى الاجتماعى بين الطبقات ولاحداث تنوير على النمط الغربى أى أحداث ثورة فى الاذهان ، أو الانتقال الى العمل

السرى وتكوين خلايا حزبية تعمل على تغيير الوضع القائم ، وهو التحديث على النمط الآسيوى أى قيادة ثورة فعلية للفلاحين أو العمال — اذا ما حاول أحد ذلك فانه سرعان ما تضبطه السلطة القائمة وتزج بأنصاره فى السجن ٠

يغفل هذا التصور اذن التاريخ باعتباره مراحل انتقالية ، ويعيش فى مرحلة لاحقة ، سابقا الزمن ، وهو يظن انه يعمل فى مرحلة حاضرة ، وهو فى الحقيقة خارجها ٠ كما يغفل دور الأجيال ، وتحديد طبيعة المرحلة التاريخية التى تعيشها المجتمعات النامية ، وهو الانتقال من التخلف الى التقدم ، ومن الاسطورة الى الواقع ، ومن الخرافة الى العلم ، ومن الاشراق الى العقل ، ومن الغيب الى الشهادة ، ومن الله الى الانسان ، ومن الجماعة الى الفرد ، ومن القدرية الى الحرية ، ومن الوصاية الى المسئولية ٠ ولا غرو ان يكون هذا التصور هو تصور الصفوة المثقفة التى تنحو بوجدانها نحو عالم أفضل ، تصور الانبياء والقادة ، تصور المخلصين الدينيين ودعاة التغيير الاجتماعى المشيانى Messianic

٣ — **تثبيت الحاضر لا تحريكه** : وقد ينشأ رد فعل ثالث على التصور السلفى للتاريخ وعلى التصور المستقبلى له وذلك بالتوجه الى الحاضر والانكباب عليه ومحاولة تنظيره تنظيرا مباشرا والتعبير عن مطالبه ، والاحساس بمقتضياته حتى ولو كان فى صورة هوجاء عشوائية ، انتقائية ، جزئية ، عملية ، تجريبية ٠ فاذا كانت مطالب العصر الرئيسية هى الحرية والاشتراكية والوحدة فان هذه المطالب تكون مقطوعة الصلة بالماضى الا فى الجوانب المماثلة لمتطلبات الحاضر كنوع من التقريظ والفخر أو للتعمية على نقائص العصر أو لعزل الاتجاهات الجذرية فيه ٠ كما تكون مقطوعة الصلة بالمستقبل الا بقدر استعمال انصاره على تحقيق مطالب العصر وتبرير قرارات السلطة ٠ ولكن يظل الحاضر مقطوع الصلة بالماضى والمستقبل وكأن التاريخ كله هو الثورة العربية المعاصرة التى تجب ما قبلها وما بعدها ، وكأن الحاضر ليس

تراكما للماضي ولحظة من لحظات تطور التاريخ نحو المستقبل ، فالماضي هو مستقبل الحاضر ، والحاضر هو ماضي المستقبل •

ان الاقتصار على اللحظة الحاضرة اغفال لحركة التاريخ ولقوانين التطور كما انه مقطوع الصلة بالنظرة المستقبلية • ولا عجب أن يصبح هذا التصور للتاريخ تصور الطبقة المتوسطة التي تريد الابقاء على الوضع القائم واعتبار الدنيا نهاية المطاف ، والحاضر غاية المسعى ، والمكسب الحالي الغنى الدائم • يظل هذا التصور هشا فارغا أمام الحاضر الذي يحركه الماضي ويدفعه نحو المستقبل فيثور الحاضر مطالبا بتصور آخر أكثر شمولا وحسما أو أمام نظرة تاريخية بعيدة المدى أعمق في التاريخ وأطول في العمر وأرسخ في الوجدان • ولما كان الانسان المعاصر فكرا ، فان هذا التصور للحاضر مقطوع الصلة بالفكر اذ انه يتهم التصورين الآخرين السلفي والمستقبلي بالايديولوجية أي المذهب المسبق يمينا أو يسارا ، وهو يتجاوز اليمين الرجعي واليسار المغامر ، ولا تغني الرغبة في التعمير عن التصورات وعن البعد الأيديولوجي للانسان •

ان التعامل المباشر مع الحاضر لا يعني قصر النظر فالتاريخ يحرك الاحداث والحاضر ليس نقطة ثابتة ساكنة يمكن تغليفها وتوهم اتقاء شرها • الحاضر ليس الا السطح الخارجي لتيار الزمان الجارف والشكل الظاهر لحركة التاريخ • وقد كانت الحركات السياسية الجذرية أولا وفي بداياتها نظرات شاملة في التاريخ • وقد يرجع تعثر ثوراتنا العربية المعاصرة الى غياب هذا التصور الشامل للتاريخ •

خاتمة : ان هذه المخاطر جزء من حركة التاريخ ، وظواهر مصاحبة لمرحلة التحديث التي نمر بها ، ولا يهم ان كانت مخاطر حقيقية في صلب فكرنا القومي أو ظواهر وقتية في فكرنا الاعلامي ، ولكن الذي يهم هو وجودها كظواهر مؤثرة في حياتنا يعيها رجل الشارع كما يعيها المثقف الطاهر •

ان هذه المخاطر لا نقضى عليها بقرار ، ولا ندرؤها فى يوم وليلة ، ولكن موقفنا الحضارى يكشف عنها ، وتكون مواطن الحركة ومكمن التغيير ، ومناطق المعالجة • وتكون مهمة مثقفينا الوطنيين الذين يهدفون الى اقامة ثقافة وطنية ومفكرينا السياسيين الذين يبحثون عن أيديولوجية عربية هو التركيز على هذه المخاطر ، والتنقيب عن الظواهر التى تكمن وراءها ، وتحويلها من ظواهر مرضية الى ظواهر صحية ، فالتعرف على الداء ثم تشخيصه هى المقدمة الضرورية لسلامة فكرنا القومى •

مخـــاطر فى ســـلوكنا القـــومى

اذا كانت « مخاطر فى فكرنا القومى » أشبه بنقد العقل النظرى على المستوى الاجتماعى فان «مخاطر فى سلوكنا القومى » أشبه بنقد العقل العملى على المستوى الاجتماعى أيضا[1] • السلوك هو الوجه العملى للفكر ، والفكر هـو امكانية وأساس السـلوك[2] • وبالرغم من ان حديثنا السابق كان عن الثقـافة الوطنية الا أن الحديث هذه المرة عن « الفكر القومى » ، « والسلوك القومى » « والوجـدان القومى » • واذا كانت الثقافة تحتمل الوصفين معـا « الوطنية » و « القومية » الا أن الفكر والسلوك والوجدان ، كل منهما يأخذ وصفا واحدا وهو « القومى » • ولاتعنى القومى هنـا أى تنازل عن « الوطنى » أو « الحضارى » والوقوع فى معنى « عرقى » ظاهر أو خفى • فانا مصرى عربى مسلم ، دوائر ثلاث لاحيلة لى فيها ، ولا أستطيع لها دفعا أو الاختيار بينها • هـذا التداخل بين الأطراف الثلاث هو الذى ترسب فى أعمـاق الشـخصية الوطنية والقوميـة والاسلام • وانما اختصارا للأوصاف أصبحت الشخصية القومية هى الدالة على هذه الاطراف الثلاث فى آن واحد •

والفكر أو السلوك أو الوجدان « القومى » هم الوصف الدقيق

---

(١) أنظر دراستنا السابقة « مخاطر فكرنا القومى » •

(٢) بعد كتابة « مخاطر فى فكرنا القومى » وسلمتها لمجلة « قضايا عربية » فى ١٩٧٨ لم اسمع شيئا عنها . وبعد ذلك توقفت عن تكملة « مخاطر فى سلوكنا القومى » ، « مخاطر فى وجداننا القومى » . وبعد ذلك قامت اسرائيل بترجمة « مخاطر فى فكرنا القومى » الى اللغة الانجليزية بعنوان Arabic Thought in the balance ونشرتها فى The Jerusalem Quarterly فى خريف ١٩٨٢ مع تعليقـــات وشـــروح من المتـــرجم مبينـــا القصـــد والوقائع الثقافية المشار اليها ومحيلا الى عديد من المقالات الأخرى التى كتبتها فى هذه الفترة فى « المستقبل العربى » وفى غيرها من المجلات العربية . ولما علمت بذلك بحثت فى اعداد قضايا عربية حتى وجدتها منشورة بالفعل فى عدد ابريل ١٩٧٨ . والآن وبعد عشر سنوات أكمل الحلقتين الاخريين فى صيف ١٩٨٧ ، « مخاطر فى سلوكنا القومى » ، « مخاطر فى وجداننا القومى » . وبالرغم من أننى انهيت هذه المرحلة ، مرحلة النضال المباشر عن طريق المجلات الثقافية ، مؤثرا النضال العلمى الطويل فى « التراث والتجديد » الآ اننى حاولت الابقاء على روح السبعينات واسلوبها ومستواها وجمهورها .

لمـا جرت العادة على تسميته هذه الأيام « العقل العربى » سواء فى « أزمة العقل العربى » أو « تكوين العقل العربى » أو « تحـديث العقـل العربى » أو « نقـد العقـل العربى » أو « بنيـة العقـل العربى » ... الخ . فهذه التعبيرات الأخيرة التى يكون قاسمها المشترك « العقل العربى » تعبيرات عنصرية مرتين . الأولى لأنهـا تجسـد الشخصية القومية فى عقـل مثل النظرية العنصرية التى تحيـل سمات الشخصية القومية الى قوى وسمات فزيولوجيـة نفسـية تختلف من شعب الى شعب ، وتتميز فى قوم دون قوم . فهناك عقل « عربى » وآخر « يابانى » وثالث « المانى » .. الخ . والثانى لانها تتحدث عن العربى كما تتحدث عنصرية القرن الماضى فى الغرب عن الفرنسى والايطالى والبريطانى والامريكى .. الخ . وان الذين يستعملون هذه التعبيرات عادة يكونون من أعداء الأمة ، ينكرون عليها فكرها وثقافتها وحضارتها ويجعلونها مجرد عرق فى مقابل أعراق أخرى ان لم يكن أقل نظرا لتخلفه ومظـاهر الانهيار فيـه فى حين أن الاعراق الأخرى أكثر تقدما وازدهـارا ومسـاهمة فى تاريخ البشرية[٣] . وما يسمى « العقل العربى » عند البعض ، مستشرقين كانوا أو عربـا فانهم قد يعنون الحضارة الاسلامية وتراث الأمة . أما تعبير « الأيديولوجيا العربية » فانه أصدق لأنه لايقع فى المفاهيم العنصرية . فالايديولوجيا فكر ومذاهب ونظريات من واقع محدد فى ظروف اجتماعية معينة وفى مرحلة تاريخية محددة .

وتأتى مادة البحث أساسا من التجارب الحية التى يعيشها المفكر والتى يتفق معه القراء فى وصفها . تعضدها الأمثال العامية وبعض النماذج الأدبية . ويمكن اللجوء الى القرآن الكريم باعتباره الرافد الأساسى فى الثقافة الشعبية . فالبحث نوع من الظاهريات الاجتماعية Phénoménologie Sociale الـذى تمت ممارسته من قبـل والذى مازال

(٣) انظر مثلا Philippe Pettai : The. Arab Mind

رائجا وخصبا ودالا[٤] •وهو يجمع بين الخبرات الفردية والخبرات الجماعية ، بين تحليل الحاضر وتحليل الماضى ، قراءة الحاضر فى الماضى وقراءة الماضى فى الحاضر • ولافرق فى ذلك بين العلم والسياسة • فالباحث عالم ومواطن لايفرق بين العلم والمواطنة • وعلى الرغم مما يكون فى تعميم الاحكام من اجحاف الا أنها أقرب الى الأدب الاجتماعى أو الصرخات الوجودية ، وظيفتها اثارة الأذهان ، ووضع الاشكاليات ، وبداية الموضوعات كجزء من حركة التنوير العام بوضع الذات الوطنية تحت المجهر •

وقد لا يتوحد نسق العرض بين هذه الحلقات الثلاث : « مخاطر فى فكرنا القومى » ، « مخاطر فى سلوكنا القومى » ، « مخاطر فى وجداننا القومى » • فلكل عقل نظرى أو عملى أو وجدانى خاصيته وبنيته • فبينما تتحدد علاقات فكرنا القومى بالسلطة من حيث التبعية والاستقلال ، وبالواقع من حيث مادة الفكر أو مضمونه ، وبالمنهج من حيث صورة الفكر وطرقه ، وبالمؤسسات من حيث مواطن الفكر وتحققاته ، وبالتاريخ من حيث مسار الفكر وحركته فان سلوكنا القومى أو وجداننا القومى قد يخضع لبنية أخرى تصف وضع الانسان فى العالم • فالانسان بين عالمين : عالم المثال وعالم الواقع أو ماسماه القدماء الله والعالم أو الوجود والطبيعة فان وصف المخاطر فى سلوكنا القومى أو فى وجداننا القومى تتم بناء على وضع الانسان فى العالم •

والملاحظ لسلوكنا القومى وقوعه بين ثنائيات متعارضة مثل الظاهر والمؤول ، القول والعمل ، الحزن والفرح ، التحريم والاباحية ، الوفرة والندرة ، العشوائية والفطرة ، القدرية والفردية ، الطاعة والعصيان ••• الخ • هذه الثنائيات المتعارضة تعويض متبادل ، يعيش كل طرف على وجود الطرف الآخر ، كالصهيونى المعادى للصهيونية ، والسامى المعادى للسامية ، واليهودى المعادى لليهودية • وهى ظاهرة مرضية تمثل انفصاما فى الشخصية بين طرفين متعارضين نسمى احداهما

---

(٤) أنظر كتابنا : قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ .

التطرف وننسى الطرف الآخر الذى هو تطرف أيضـــا • ثم ندعو الى الى القصد والاعتدال دون مسك بالطرفين لتقليل المسافة بينهما • وقد رصد الصوفية قديما على مستوى الوجدان مثل هذا التعارض فيما سموه بالأحوال التى ترد على النفس بلا تكلف أو تعمد : الخوف والرجاء ، القبض والبسط ، الهيبة والانس ، الفرق والجمع ، الغيبة والحضور ، الصحو والســكر ، المحو والاثبــات ، الستر والتجلى ، الوجد والفقد ، الفناء والبقاء ، •• الخ • كما لاحظها الأصــوليون القدماء على مستوى اللغة فى الظاهر والمؤول ، الحكم والتشابه ، المطلق والمقيد ، المجمل والمبين • عند الصوفية أحوال نفسية وعند الاصوليين قواعد لغوية • ولا وسط بينهما بل الانتقال من طرف الى طرف ، وفهم طرف بطرف ، واحالة طرف الى طرف ، وتأويل طرف بطرف • هذان الطرفان ليسا حكم قيمة بل حكم واقع • والوســط غائب لا عن عجز عن الجمع أو عدم رغبة فى التوفيق أو عدم قدرة على ايجاد الوسط المتناسب فى أخلاق تعريف الفضيلة فيه هو أنها وسط بين طرفين • بل ان هذه الثنائيات المتعارضة موجودة أيضا عند المتكلمين والفلاسفة مثل : الحادث والقديم ، المادة والصورة ، الحركة والسكون ، المعلول والعلة ، الممكن والواجب ، الواجب بغيره والواجب بذاته •• الخ • وهى ثنائية الأرض والسماء ، العالم والله ، الشيطان والملاك ، الرذيلة والفضيلة ، الشر والخير ، العقــاب والثواب ، النــار والجنة ، الدنيا والأخرة •• الخ • تلــك الثنائية فى التصور هى أســاس الثنائية فى السلوك •

فان قيل : ان هذه الثنائيات موجودة لدى كل شعب ، وسمة عامة فى كل شخصية قومية • فاليابانى مثلا مؤدب للغاية على السطح ولكنه فى نفس الوقت • عنيف للغاية فى الاعماق • متواضع الى درجة الانحناء فى الشكل ، ومغرور الى درجة العنصرية فى المضمون • والامريــكى ساذج بسيط مسالم طبيعى من الخارج ولكنه همجى فظ غليظ وحشى اذا ما انطلقت غرائزه كما يظهر فى أفلام رعاة البقر وفى الحروب • والفرنسى متحضر يحب الفكر واللغة والثقافة والأدب والفن • ولكنه

كاره للحضارة وللغة وللثقافة اذا ما خرج على حدود فرنسا الى الجزائر أو أفريقيا أو آسيا • والالمانى مثالى النزعة كما وضح ذلك فى المثالية الالمانية ولكنه فى الواقع مادى أنانى لايتحرك الا بدافع المصلحة •• الخ • فاذا كانت هذه الثنائية صحيحة وعامة لدى كل الشعوب فهل يمكن تعميمها حتى تصبح مقولة نظرية عامة أو بنية صورية خالصة تقوم على الجمع بين النقيضين وتتوحد فيها شخصيات الشعوب ؟ ان ذلك يقوى التحليل ولا يضعفه ، ويعطيه ابعاد شاملة لا يدعيها ، وطموحا علميا لم يهدف اليه •

وسنحاول فى السمات القادمة وصف كل تناقض فى سلوكنا القومى محللين اسبابه ومقترحين وسيلة للجمع بين النقيضين كنوع من اعادة بناء الشخصية القومية من أجل اكتساب صفات جديدة • فاذا كانت الظروف الاجتماعية والتاريخية وراء اكتساب النقيضين فيمكن لظروفنا الجديدة ورغبتنا فى تجاوز ما نحن فيه من شتات وتشرذم أن تؤدى الى اكتساب سمة جديدة نجمع فيها بين النقيضين • وبالتالى تقل الهوة بين الطوفين المتباعدين بدل أن نشكو من التطرف ونخشى من المتطرفين • ويمكن اجمال هذه السمات فى اثنى عشرة سمة على النحو الآتى :

١ ــ **المستور والمفضوح** [٥] : اذا كان التعبير هو أحد مظاهر السلوك من خلال اللغة ، فاللغة سلوك ، والخطاب فعل ، فان أول تناقض يظهر فى سلوكنا القومى هو تناقض المستور والمفضوح ، السر والعلن أو ما سماه القدماء ، الظاهر والباطن ، التجلى والستر ، الجلاء والخفاء • فغياب الصراحة هو سلوك على مستوى القول والمعنى ، ان يفيد القول معنى غير المقصود منه لفظا • التعبير لدينا ليس مطابقا للمعنى المقصود • انما يكون أقل فيخفى أو أكثر فيفضح لا يعبر المتكلم عن كل ما يقصد الارمزا أو ايماء ، أو يفيض بعبارات اكثر مما يتحمل القصد • العبارات ضيقة أو واسعة ولكنها ليست

---

(٥) أنظر « المستور و المفتوح » فى هذا الجزء الاول : الدين والثقافة الوطنية ، ١١ ــ معارك فى الثقافة الوطنية •

على القدر والمقاس • أصبح للكلام مدلول أقل أو مدلول اكثر • وقد يكون للكلام مدلول معارض • قد تعنى نعم لا ، وقد تعنى لا نعم • قد يعنى الرفض القبول ، وقد يعنى القبول الرفض على ماعرف فى البلاغة القديمة : المدح على سبيل الذم والذم على سبيل المدح • لذلك ظهر فن التأويل ، ومعرفة القصد ، والدخول الى الباطن ، والتعرف على السرائر ، وسبر الاغوار • وأصبح للقرآن سبعة أحرف أى سبعة أعماق للتفسير • وازدهرت الباطنية بصرف النظر عن فضائحها • وتردد بيننا سؤال : ماذا يعنى ؟ ماذا يقصد ؟ والمعنى فى بطن الشاعر • أصبحت اللغة وسيلة لاخفاء المشاعر الحقيقية • وقد وضح ذلك فى سورة آل عمران « آيتك ألا تكلم الناس ثلاث أيام ألا رمزا •• » فالسكوت نطق عن طريق التعبير الأقل • والنطق سكوت عن طريق الثرثرة ، وتحصيل الحاصل ، وفك المجالس • لذلك كثر صمت الصوفية ، وعبروا عن مواجيدهم بالرمز • ولهذا كثرت ثرثرة الفقهاء ، وملأوا المجلدات بالفتاوى والخطب ، وسخر شعراؤها من الفيهقة والفأفأة والحذلقة •• الخ

وفى نفس الوقت تتعدد ظواهر الثرثرة فى حياتنا اللغوية • وتمثلت فى الآداب الشعبية فى شخصية « الست الرغاية » أو فى شخصية « أبو لمعة » • كما تظهر فى حديث الطلاب فى الصفوف الأخيرة فى الفصول الدراسية ، والحديث فى وسائل المواصلات العامة وفى الطرقات خاصة وقت الحوادث ، وتجمهر الناس ، والتطوع بالنصائح حتى يكثر اللغط ، ويزداد الصراخ • كما يسمع الصوت المرتفع داخل الأسرة وفى حديث الأفرادفيما بينهم لساعات طوال ، وفى الأحاديث التلفونية وكأن بعد المسافة يمكن تجاوزها بالصراخ عبر الاسلاك ، وهى الظواهر التى قصدها الشاعر الحديث باشارته الى العنتريات التى ما قتلت ذبابة ، منطق الناى والربابة ، وهو ما يعادل الانفعال الزائد فى وجداننا القومى والذى يظهر فى تملكنا فنون الخطابة وأساليب الاثارة وبراعتنا فى فنون الكلام حتى أننا جعلناها احدى صفات الله •

ومع وذلك يمكن تقليل المسافة بين الطرفين عن طريق وضع الكلام

على قد المعنى حتى يصبح للكلام ثقل ، ويقوم بدوره فى ايصال المعانى • « واغضض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » ، والقصد فى القول أكثر مدعاة للتصديق • وهذا هو تعريف البلاغـة القديم : اختيار القول طبقا لمقتضى الحال • ويسهل ذلك اذا ما اقتضى القول فعلا ، والكلام عملا •

٢ — **القول والعمل** [٦] : وتبدو ثنائية القول والعمل فى عديد من النشاطات الوطنية فى أجهزة الاعلام وفى الخطب السياسية وفى حيـاة الأسرة • ولاتزال الصيحة القديمة منذ الاصلاح الدينى « ما أكثر القول وأقل العمل » • وما تزال آيات القرآن الكريم تحث « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون • كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون » • فالقول فعل ، واللغة سلوك • القول اعلان ، والفعل التزام • أما وظيفة اللغة عندنا فانها تطهير للأزمات النفسية الناتجـة عن الضنك وشظف العيش • اخراج الكلمات أشبه بعمليات الافراز البيولوجى التى يشعر الانسان بعدها بالراحة • ومن هنا أتت أهمية الخطاب السياسى الذى ينتظره الناس فيريحهم نفسيا بعد سماعه وكأن مشاكلهم قد حلت وأزمتهم قد فرجت • الكلام « فك مجالس » • وفى المثل الشعبى « اسمع كلامك يعجبنى أشوف أمورك استعجب ! » أو « خد من كلام الشيخ ولا تأخذ من أفعاله » أو « كلام الليل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسيح » • وهى نفس الثنائية بين الظاهر والمؤول ، وعدم تطابق اللفظ والمعنى • ولكن هذه المرة مع دخول الفعل كطرف مقابل للقول • وهو أيضا ما يعادل الانفعال الزائد فى وجداننا القومى • فالقول هنا انفعال وليس سلوكا • وفى المثل الشعبى أيضا « الكلب اللى يهوهـو ما يعضش » • ونضع قادتنـا موضع السـخرية وهم يخطبـون أمام الميـكروفونات ، ومن مسؤولينا وهم يصرحون بأن المشاكل قد حلت ، وبأن الأزمات قد اختفت ، وبأن عنق الزجاجة قد تم تجاوزه • وكله « كلام جرائد » أو « تصريحات

---

(٦) أنظر دراستنا : « التفكير الدينى وازدواجية الشخصية » ، قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ، ص ١١١ — ١٢٧ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٦ •

مسؤولين » أو « كلام فى الهـوا » • وكذلك أرسـال برقيات التأييـد للمحاربين ، وبرقيات الاستنكار للمعتدين ، ووضع الهمة فى اصـدار قرارات لمجلس الأمن للدفاع عن الحقوق ، وشجب الاعتداء • تبدو سهولة القول فى أنه مجرد مخارج للألفاظ عن طريق الشفتين ، وتحريك اللسان • لذلك عرف القدماء المسلمين بالشـهادتين بصرف النظر عن الفكر أو الاعتقاد أو السلوك • أصبح القول مكتفيا بذاته لا يحيل الى شىء خارج عنه ، لا الى فكر ولا الى فعل ولا الى وجود • يعقد مؤتمر اصلاح التعليم ، وتقدم الأوراق ، وتقال الخطب وكأن التعليم قـد تم أصلاحه بالفعل • ويلقى تصريح عن أهميـة الديمقراطية وأنـه لا رجعة عنها وكأن الديموقراطية قد مارسناها بالفعل • فالكلام يتحقق بمجرد الاعلان دون توسط الفعل • « فى البداية كانت الكلمة ، وكانت الكلمة مع الله ، وكان الله هو الكلمة » • وقد دفع ذلك أحد الشـعراء المحدثين فى الغرب الى السخرية من ذلك لأنه « فى البداية كان الفعل » • « كن فيكون » تدل أيضا على الانتقال من الكلمة الى الشىء دون توسط الفعل • وان جاز ذلك لله فقد أجزناه أيضا للانسان • ولكن الله تكلم وخلق فى حين أن الانسان تكلم ولم يخلق شيئا •

أما العمل فهو كالقول الضيق نظرا لأنه يتطلب التحقق والانجاز والتأثير والفاعلية كما يتطلب رؤية للواقع لا يعطيها القول • العمـل يقتضى توجيه الطاقة لا من خلال اللسان بل عن طريق اليد ، ليس بالاعلان النظرى ولكن بالتغيير الفعلى • لذلك ارتبط الايمان بالعمل فى القرآن الـكريم • وأصرت الخوارج قديما على أن من لا عمل لـه لا ايمان له • بل أن بعض صياغات الدعوة الى العمل فى القرآن الكريم انما تتم بالقـول مثـل « قل يا قوم أعمـلوا على مكانتـكم انى عامل » (٦ : ١٣٥) : « وقـل اعملوا فسـيرى الله عملكم ورسـوله والمؤمنون » (٩ : ١٠٥) •

ويمكن تقريب المسافة بين الطرفين وتحييد النقيضين عن طريق التوسط وهو أن يصبح العمل هو القول • فالعمل قول مرئى كما أن

القول عمل مسموع . والقول المرئي أفضل من العمل المسموع . بالعمل يتم التمايز « ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم » وبالقول يحدث التشابه . بالعمل يقع التفرد ، وبالقول يتكرر الأفراد .

٣ — **الحزن والفرح** : ومن المسلم به أن أحد سمات الشخصية القومية هو التناقض بين الحزن والفرح ، الهم والمرح ، البكاء والضحك ، النواح والقهقهة ، والتشاؤم والتفاؤل ... الخ . وفى القرآن الكريم جمع بين الاثنين « وأنه هو أضحك وأبكى » (٥٣ : ٤٣) ، وكما فعل ذلك الشاعر العربى فى قوله « ولكنه ضحك كالبكى » . ويظهر طابع الحزن فى صوت الناى ، وهى الآلة الموسيقية المميزة للموسيقى العربية ، وفى المآتم والمعازى كأحد المظاهر الاجتماعية ، وفى قول « اللهم اجعله خيرا » أو « اللهم اخزك يا شيطان » اذا ما زاد الانسان فى الضحك أو أكثر فى المرح . وفى الفن المصرى القديم كانت هناك النائحات والنادبات كأحدى الوظائف الاجتماعية . وقد أكثر الصوفية من الاشادة بالحزن وتحريم الفرح فان الله لا يدخل قلب عبـد فيـه مزمار ! وأصبح أبو الحسن البصرى ورابعة العدوية من أئمة الصوفية الأوائـل لتركيزهما على الحزن ، الحزن مع الخوف عنـد البصرى ، والحزن مع المحبة عنـد رابعة . لا يقول الأول « واحزناه » بل « واقلة حزناه » ! لذلك كانت من وصايا الاسلام الأولى وأقواله « ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب، ودعا بدعوة الجاهلية ! » قد يـكون السبب فى ذلك كثرة ما توالى على البلاد من هموم وأحزان بسبب الغزو الخارجى أو القهر الداخلى فكثيرا ما أتى الغزاة فدمروا البلاد ، وقتلوا الرجال ، وشردوا النساء ، خطفوا الأطفال واسترقوا العبيد ، وهدموا المعابد وعاثوا فى الأرض الفساد . وغالبا ما كان الحكام يفعلون نفس الشىء ، مطاردة الخصوم السياسيين وجباية الضرائب قهرا من الفلاحين . وما زالت « شكاوى الفلاح الفصيح » عنصرا دائما فى الأدب الشعبى . كان الفتك وشظف العيش والفقر نمط حياة دائم عند الغالبية العظمى من الشعب .

وفى نفس الوقت تظهر سمة الفرح والمرح والضحك والتى تظهر

فى النكتة والقفشة والقافية لدرجة أن المسرحية قد تتكون أساسا من مجموعة من القفشات عندما يدخل الابطال معاً فى « قافية » أمام ضحك الجمهور المتواصل بصرف النظر عن الموضوع والخط الدرامى للمسرحية • بل تعقد جلسات خاصة للمرح للظرفاء ولتبادل آخر النكات سواء فى حلقات الشراب أو المخدرات أو بدونها فى اجتماعات بين الاصدقاء فى حلقات الندماء والظرفاء وكما امتلأت بهم الأداب القديمة وكتب الروايات • وأصبح الهزل سمة دائمة فى السلوك الوطنى ، حتى الهزل من الجد كما أشار الى ذلك القرآن الكريم « أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون » (٥٣ : ٦٠) • وقد قيل فى الامثال العامية « شر البلية ما يضحك » •

ويمكن لهاتين السمتين المتعارضين أن يتحققا فى سمة متوسطة ثالثة فى روح السخرية أولا ثم فى العقلية الناقدة ثانيا • فالسخرية هى الجد الهازل ، والحزن المرح ، والمرارة الضاحكة • أما النقد الاجتماعى فهو الذى يجمع بين السمتين حيث يظهر البكاء والحزن فى روح الرفض ، والمرح والفرح فى روح الالتزام • يظهر الحزن فى الغضب والتمرد ، ويظهر الفرح فى الثورة والانتصار •

٤ — **الحرام والحلال** : ونظرا لتراكم طويل من الشرائع والقوانين تحول العالم كله الى منطقتين الحرام والحلال • والبداية بالحرام أى بالكف عن السلوك والاشتباه فى العالم • فالعالم حرام حتى تثبت براءته • فاذا ثبتت أصبح حلالا • الاشياء فى الأصل على التحريم وليست على الاباحة كما قال القدماء • واتجاهنا نحو العالم هو نفس اتجاهنا نحو الفرد فالانسان مجرم حتى تثبت براءته ، وليس بريئا حتى تثبت ادانته • لم يترسب فى أعماقنا ما قاله الأصوليون عن البراءة الأصلية أو براءة الذمة أو أن الاشياء فى الأصل على الاباحة • ويظهر ذلك فى مظاهر التزمت التى تبدو فى حياتنا والتى تزداد يوما بعد يوم مع تساؤلنا المستمر عن حرمة الاشياء وتوجسنا خيفة من العالم وكأنه شيطان نجس نتعوذ منه ! وقد سخر محمد عبده من انسان يرفع رأسه

الى أعلى ليسأل عن ماء سقط عليه اذا كان طاهرا أم لا حتى لا ينقض وضوءه ! وقديما سخر عمر من انسان وجد بلحة على الأرض فأحضرها له سائلا هل يأكلها أم لا لأنه لا يعرف من أية شجرة سقطت ، ومن يملكها ، وهل أكلها حلال أم حرام قائلا : « كلها يا ذا الورع الكاذب » !

وفى نفس الوقت الذى يطغى فيه الحرام على الحلال ، والشبهات على الواضحات ، ومن كثرة التزمت يتم رفض كل شىء بعنف ، والتحول من النقيض الى النقيض ، ومن طرف الى طرف . فيتم تحليل كل شىء مرة علنا ومرة خفاء طبقا لضرورات الحياة وللصراع من أجل البقاء . بل ان الحرام نفسه تحول الى تجارة للكسب والتعايش مثل تجارة الجنس والخمور ، والتجارة فى المصاحف والكتب الدينية ، والكسب من وراء الزى الاسلامى ، وتأسيس شركات توظيف الأموال وبنوك التقوى والصدقات لأن الله حلل البيع وحرم الربا ! وقد يتحول الفرد فى سلوكه من النقيض الى النقيض ، من التزمت الى الاباحية ، ومن الايمان الى الالحاد ، ومن الزهد الى الجشع . يبدأ الانسان متزمتا وينتهى منحلا أو يبدأ منحلا وينتهى متزمتا كما هو الحال عند عمر الخيام ورابعة العدوية . ويظهر ذلك أيضا فى المعيار المزدوج لرب الأسرة ، التزمت للآخرين والاباحية لنفسه كما هو الحال فى شخصية السيد عبد الجواد فى الثلاثية .

ويمكن تقليل المسافة بين الطرفين المتناقضين فى الاتجاه الطبيعى . فما يقوى الطبيعة ويزهرها فهو الحلال . وما يقضى على امكانياتها فهو الحرام . السلوك الطبيعى هو الذى يتمايز فيه الحلال والحرام . وهو السلوك الفطرى . فكل انسان يولد على الفطرة ثم يأتى التحليل والتحريم بعد ذلك من المجتمع ومن خلال الشرائع الاجتماعية .

٥ ــ **العشوائية والقصد** : وفى سلوكنا القومى يغيب المنهج تصورا وفكرا وممارسة . لا يوجد طريق يوصل الى شىء ولا توجد خطة طويلة الأمد لتحقيق مشروع قومى يستغرق عدة أجيال . لذلك يضيع الوقت ويتشتت الجهد ، وتكون قراراتنا بنت الساعة ولهدف مؤقت ، يتغير بتغير الاشخاص والأنظمة السياسية . ويتضح ذلك

أيضا فى حركة سير المرور فى الطرقات ، والاعتماد على الجهد الذاتى الصرف بلا قانون أو نسق لدرجة أن أحد زعماء الصهاينة قال مرة « لو انتظم المرور فى القاهرة لبدأت اسرائيل تخشى ! »

وفى نفس الوقت هناك الحس الشعبى البديل الذى يغنى عن المنهج ، بداهة ابن البلد وفطرة رجل الشارع اعتمادا على ما اكتسبه الناس من تراكم تاريخى طويل اكسبهم مقدرة على العيش حتى فى أصعب الاوقات وهو ما يسميه بالسليقة أو الفطرة أو التجارب المكتسبة أو حكمة السن « أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة » • وكثر الاعتماد على الامثال العامية والحسى الشعبى • لذلك لم يكن التعليم بذى قيمة • يكفى تجربة العمر • ليست الأمية هى الجهل ، فالأمى قد يكون متعلما والمتعلم قد يكون جاهلا وكان النبى أميا • وكان المتعلم الذى يجعل نفسه خادما لكل نظام جاهلا • ولقد تم حفظ القرآن سماعا قبل تعلم القراءة والكتابة وقد يحصل الانسان على مجموعة من المعارف الدينية والدنيوية ما قد يستغنى بها عن التعليم كما كان الرسول والصحابة الأوائل قبل أن يتحول الاسلام الى حضارة ، والدين الى دولة ، وأعراب الصحراء الى معلمى البشرية •

ويمكن الجمع بين النقيضين عن طريق صياغة منهج فطرى لاتكون خطوات مضادة للفطرة ولا يكون قاصرا أو ناقصا أو جزئيا • هـذا منهج تجريبى للعلوم الطبيعية ، وهذا منهج عقلى للرياضيات ، وهـذا منهج ذوقى للفنون • فالفطرة ليست مجرد سلوك بالسليقة ، وحـكم بالبداهة والتلقائية ولكنها فطرة تعتمد على النظر والمران • لقد كانت لحظات التقدم فى تاريخ الفكر البشرى هى لحظات اكتشاف المناهج • فالمنهج هو القادر على حل المشكلات مرة واحـدة ، قياسا للاشـباه بالاشباه والنظائر بالنظائر • ولقد استطاع علم الأصول عند القدماء تأسيس منهج وهو القياس أصبح دعامة للاستدلال وطريقة لاستنباط الأحكام ، استنباط للمجهول من المعلوم • ولكنه لم يعش فى شعورنا القومى كما عاشت القوة المسيطرة على العالم بلا قانون أو مبـدأ •

وبمجرد أن تم تشخيص هذه القوة وتحويلهـا الى مسيطر أو سـاحر أصبح العالم عشوائيا يصعب السيطرة عليه ، وعاش الانسـان فيه بليدا فاقدا قوة الايمان وثقة العقل(٧) .

٦ ــ **الوفـرة والنـدرة** : ومن سمات سلوكنا القومي الوفرة فى مجتمع الندرة أو النـدرة فى مجتمع الوفرة . فبالرغم من نقص المواد الغذائية الا أن عادات الطعام أقرب الى مجتمع الوفرة . وبالرغم من نقص الثروة الحيوانية الا أن اللحم هو الغذاء الدائم للقادر . وفى بلد يستورد ٧٠٪ من قمحه مازال غذاؤه الأول هو الخبز . وفى الدعوات تزدحم الموائد ، ويكثر الفاقد . ويمتد جدل الوفرة والندرة الى التعليم . ففى بلد تعم فيه الأمية تكون فيه أكبر طبقـة من المتخصصين وحاملى الدكتوراه ، الهرم المقلوب فى التعليم . وفى أساليب البناء ، بذخ الاسكان الفاخر وزخرفة القصور فى مقابل الاكواخ وقاطنى الارصفة . قد تكون للبيئة الجغرافية أثر على ذلك ، سكان الوديان فى مقابل سكان الصحراء . فمثلا يسكن المصريون فى ٤٪ من مساحة البلاد فى مقابل ٩٦ ٪ صحراء جرداء .

وفى نفس الوقت الذى نسلك فيه سلوك الوفرة فى مجتمع الندرة ، نسلك أيضا سلوك الندرة فى مجتمع الوفرة مثل نقص العمالة المتخصصة وسط كم هائل من العمالة غير الفنية الزائدة . حرف تعز فيها العمالة فى مواجهة بطالة مقنعة . وأصبح التقابل واضحا بين ندرة السباك والكهربائى والنجار والحداد والمبيض ووفرة الموظفين والافندية وأصحاب المكاتب وحملة الشهادات . وندرة المبدعين المجددين وسط الجماهير الغفيرة من المثقفين والعلماء الناقلين للمعلومات . وهى نفسها ندرة المعارضة أمام السلطة بالرغم من تفاقم الاوضاع ، وحدة الأزمة ، وغليان الموقف .

ويمكن الجمع بين النقيضين عن طريق ايجاد التطابق بين العادات اليومية ومعطيات البيئة . فندرة المواد الغذائية تقتضى الاقتصـاد فى الغذاء كما وزيادته كيفا كما هو الحال فى المجتمع اليابانى . وندرة العمالة

---

(٧) أنظر الدراسة السابقة « مخاطر فى فكرنا القومى » .

الفنية وسط الكم الغفير من الخريجين النظريين تقتضى اعادة صياغة سياسة التعليم والقبول بالجامعات • يمكن الاعتماد على الندرة فى مواطن الندرة مثل الابداع العلميوالفنى ، والاعتماد على الوفرة فى مواطن الوفرة مثل غزو الصحارى ، ومحو الأمية ، وشق الطرق ، واقامة الجسور والمسيرات الشعبية والتجمهر للمعارضة السياسية •

٧ ــ **العام والخاص** : وكثيرا ما نخلط بين القضايا الخاصة والقضايا العامة • ندافع عن الخاص كباعث فى اطار العام كخطاب • وبالتالى يكون تفسير الخطاب ليس فى منطق الالفاظ بل فى منطق البواعث • صحيح أن الذاتية لاتنفصل عن الموضوعية بل هى شرطها الا أن هناك فرقا بين الذاتية الخالصة التى هى أقدر على التجرد والوصول الى العام من خلالها وبين ذاتية الهوى والنسبية والظروف النفسية والاجتماعية التى تقضى نهاية على الموضوعية والصالح العام • لذلك كثر تغيير القوانين طبقا لمصالح من يصدرها • وتضاربت اللوائح تبعا لتضارب المصالح • ومن هنا أيضا اتت التضحية بقضايا الوطن ، وضعف حس الانتماء ، وغاب المشروع القومى الموحد للبلاد ، وتحول الشعب الى افراد ، كل يبحث عن صالحه الخاص • وأصبح الوطن مصلحتى ، والدولة مقدار ماتقدمه لى من تسهيلات •

ومع ذلك ، وفى ساعات العسرة ، وفى وقت الخطر ، تظهر الروح الوطنية العامة ، وتمحى المصالح الشخصية ، وتطغى المصلحة القومية الواحدة • حدث ذلك فى ثورة عرابى ، وفى ثورة ١٩١٩ ، وفى ثورة ١٩٥٢ وفى حرب ١٩٦٧ ، وفى حرب ١٩٧٣ سواء كانت المبادرة من جانب الدولة أو كانت الثورة من جانب الشعب • يضحى الأب فى سبيل الأسرة ، والابن الاكبر فى سبيل تربية الاخوة الصغار فى حالة وفاة الأب • وكذلك تضحى الأم « الشغالة » اذا ما فقدت زوجها لتربية أولادها •• الخ

ويمكن التوسط بين هاتين السمتين ايثارا للصالح الخاص على الصالح العام ثم التضحية بالصالح الخاص من أجل الصالح العام بأن تشعر الأمة بلحظات الخطر باستمرار وألا تستكين أو تستسلم

أو أن تدخل فى معارك جانبية أو وهمية ، وتترك معركتها الرئيسية • ففى لحظات الخطر والصراع من أجل البقاء تتراجع المصالح الخاصة فى سبيل الصالح العام • طالما أن الفرد يشعر بالمواطنة وبأنه ينتمى الى كل فان تحقيق مصلحـة الكل فيه تحقيق لمصلحته الخـاصة • ومن هنا تأتى أهمية تربية المواطن ودور الدولة فى أن تكون لكل المواطنين • كما تقل الهوة بين المصلحتين المتعارضتين عن طريق وجود نظام سياسى تتحد فيه المصالح الخاصة بالمصلحة العامة مثل عدالة التوزيع ، وحرية المواطنين ، وحق المواطن فى التعليم والعمل والاسكان ، والمساواة فى الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين •

٨ ــ **القدرة والفردية** : وبالرغم من تشخيص العلاقات الاجتماعية والعلاقات المهنية والعلاقات السياسية الا أن الفرد لا يأخذ زمـام المبادرة ، ويترك نفسه تسير الأمور خاضعا لمجرى الحوادث بلا تمايز بينه وبينها وبلا مفارقة • يخضع للقدر ، ويستسلم للقضاء ، ويعنى للمقادير • لايبدأ فعل شىء الا فى أضيق نطاق مع أن غياب النسق يسمح بابراز المواهب الفردية فى تسيير شؤون العمل بلاقانون واعتمادا على العلاقات العامة • هذه المواهب الفردية وظيفتها تسيير الامور وعدم تعطيل المصالح وليس لخلق جديد • وفى الامثال العامة « الكون له رب يسيره » ، « ماحدش يقدر يعدل نظام الكون » • وما أكثر الأغانى والمواويل الشعبية التى تتناول المقادير التى ترمى بالانسان على غير ارادته •

وفى نفس الوقت الذى تمحى فيه المبادرة يظهر نشاط الانسـان المكتوم فى صورة مرضية وهو حب الظهور ، والتقرب للرؤساء ، وأخذ مكان الصدارة ، والحديث فيما يعلم وفيما لا يعلم ، والافتاء فى كل شىء فيصبح شخصية اعلامية اجتماعية مرموقة • ويصبح نجما فى فريق الكرة ببطولاته الفردية • فتقوم الهيئة أو المؤسسة على اكتاف رجل واحد يعمل ، تتكدس فوق مكتبه الملفات ، والآخرون لايفعلون شيئا • كيف فى مقابل كم ، وبطولة مطلقة فى مقابل لامبالاة تامة • لذلك كثرت

مفاهيم البطل الأوحد ، والفارس المغوار ، وابن البلد ، والفتوة ، والجدع وأصبح التاريخ كله من صنع الابطال • ينتظر الناس المخلص والامام الذى سيملأ الارض عدلا كما ملئت جورا • لذلك قيل علينا من بعض فلاسفة الغرب « فى الشرق واحد حر ، والباقى عبيد » !

ويمكن تجاوز الهوة بين النقيضين عن طريق اذكاء الوعى القومى حتى يمحى الفرق بين الانسان العادى والانسان المتميز ، بين الصفوة والجماهير ، بين الشعب والقادة • ويمكن اعادة كتابة التاريخ واعادة بناء الموروث الدينى الطويل بحيث تبرز قيمة الجماهير فتقل عبادة الابطال • وان النصب التذكارى للجندى المجهول لاكثر دلالة على روح الأمة وحيوية الشعب من تماثيل القادة والزعماء •

٩ ـــ الفوضى والنظام : ولا يوجد قانون عام ينظم العلاقـات الاجتماعية بل تتحكم فيها العلاقات الخاصة والقدرة على التأثير • فنشأت شخصيات الظريف والفهلوى والحدق والجذاب والاجتماعى • سبقت العلاقات الشخصية النظرة الموضوعية وأصبح الاستلطاف شرط النجاح ، وسماحة الوجه ، وحسن المعاشـــرة ، وطول الألفة ، وعمق الصداقة المدخل لانجاز العمل • ولما كانت هـــذه متغيرة توقف العمل وسار مرة أخرى ، تحقق على هذا الوجه ثم تحقق على الوجه الآخر • تم الانجاز فى حالة فى غمضة عين ، وفى حالة أخرى استغرق السنين الطوال • ولم يعد يتم شىء الا بواسطة أو معرفة أو علاقات شخصية أو تقديم أو قرابة أو رشوة صريحة أو مقنعة • أصبح العمل هما ، والانجاز ثقيلا على النفس • ويحمد الانسان الله على أن أوراقه قد تم اعتمادها من كل المكاتب وأنه حصل على التوقيعات من كل الرؤساء وأنه « فتح عينه » أو « فتح مخه » وقام بأداء اللازم •

واذا صدر قانون فانه يكون وفقا لمصلحة خاصة أو لجمـــاعة ضغط معينة • فكثرت القوانين وتضاربت فى موضوع واحد وفى فترة وجيزة كما هو الحال فى القوانين الاقتصادية وقوانين الجمارك ، وقوانين الاستيراد والتصدير ، وقوانين العملة • فخـــاف الناس أن يفعلوا

شيئا خشية أن تتغير القوانين فيضيع عليهم جهد العمر • وان غياب القانون على مستوى العلاقات الشخصية فى العمل يمتد أيضا ويصبح غيابا كاملا للنسق فى أية مؤسسات عامة • فلا يوجد قانون ، ولايوجد هدف ، ولا توجد قضية • وكل شىء متروك للأمزجة الفردية والعلاقات الشخصية • وفى غياب النسق تشخص المؤسسات ، وتصبح تعبيرا عن رؤية مديريها وأمزجتهم الخاصة •

وفى نفس الوقت يتسم سلوكنا القومى بطاعة حرفية للقانون لدرجة التضحية بمصالح النـــاس بحجـــة اللوائح التى لاتســمح أو القوانين التى تمنع • فوقعنا فى البيروقراطية ، وعـــاش الانســـان للقانون ، ولم يعش القانون للانســـان • وكيف يدافع الموظف عن مصلحة المواطن وهو يخشى مخالفة القانون وما يترتب على ذلك من جزاء ؟ وكان رمز شخصيتنا فى التاريخ « الكاتب المصرى » رمز جامعة القاهرة ، وكان اهم جزء فى الدولة الأرشيف ، وأهم جريدة منذ قيام الدولة الحديثة « الوقائع المصرية » بالرغم من عـــدم وجود فلســـفة للقانون •

وقد يكون السبب فى هذا التناقض بين الفوضى والنظام هو غياب مفهوم النظام أو النسق من ثقافتنا القومية • فالعالم تسيطر عليه ارادة قوية وسلطان مطلق ، لايخضع لقانون ولا يسير وفقا لنظام • وهو تصور قديم موروث منذ اكثر من الف عام كان القصد منه احكام سيطرة الحاكم على الدولة ونزع الشرعية من تحت أقدام المعارضة ، وتثبت نظام الحكم واطلاق سلطة الحاكم • فلما استتب الأمر احتاجت الدولة الى قوانين لتدبير شؤون الدنيا • واستمرت هذه القوانين دون أساس نظرى لامن عقد اجتمـــاعى ، ولا من ارث تاريخى ، ولا من أساس وضعى يقوم على رعاية مصالح الناس • فأصبحت قوانين فارغة سرعان ما تحولت الى لوائح ميتة والى بيروقراطية عقيمة •

ويمكن تضييق الهوة بين غياب القانون وحضوره البيروقراطى عن طريق صياغة قانون يقوم على رعاية مصالح الناس ، لا عن ارادة حاكم ،

ولا عن ارث تاريخى طويل • القانون ما هو الا تشريع لمصالح الناس ، وفرض لارادة الجماعة ، وقوة لا شخصية يخضع لهـا الجميع طوعا واختيارا •

١٠ ـ **الطاعة والعصيان :** وأمام القانون يبدو سلوكنا القومى فى سمتين متناقضتين : الطاعة والعصيان سواء كان هذا القـانون فى مصلحة أو هيئة أو مؤسسة أو متجسدا فى الدولة ذاتها رمز القانون • ففى سلوكنا القومى احساس عام بالطاعة والولاء للدولة • الطاعة هى الأساس والعصيان هو الاستثناء • الدولة على حق باستمرار والمعارض على خطأ دائما • وعلى مدى عصور التاريخ نشـأت الدولة المركزية تسيطر على كل شيء ، تحـدد ارزاق الناس وتقـدر مصائرهم ، فنشأت فى قلوب الناس هيبتها واحترامها فى شخصية شيخ البـلد ، والعمدة ، وشرطى المرور ، وضابط النقطـة ، وكل ذى بذلة صفراء وزرائر نحاسية بما فى ذلك محصل المركبات !

ومع ذلك فلدينا لذة العصيان ، والتحايل على القانون ، وايجاد بديل آخر له ، قانون شخصى وشعبى وانسانى اكثر عدالة واكثر فاعلية من قوانين الدولة وسلطانها • ويتضح هذا الخلاف فى الاسـعار ، بين اسعار الدولة وأسعـار السـوق ، وفى قواعد المرور ، قواعـد المرور العامة النظرية التى لايتبعها أحد ، وقواعد المرور الخاصة التى تعتمد على المهارة والحذق مادامت الغاية واحدة ، الوصول الى المكان المطلوب فى أسرع وقت وبأقل تكلفة مع اكبر قدر ممكن من الامان • ولاتبدو مظاهر العصيان فى مجرد الرفض السلبى لقانون الدولة بل التحايل عليه بالتأويل والتخريج وتكييف حكم القوانين وتطبيقها طبقا للمصالح أو اصدار لوائح وقواعد مفسرة تفرغ القانون من محتواه وتحاصره وتجعله يفيد النقيض • ويمكن ايضا الاستثناء من القانون وكأن الشرع هو أول من يخرق نفسه • ويمكن تطبيقه على البعض دون البعض ، على العامة دون الخاصة • وفى كثير من الاحيان يسقط القانون كلية بحجة الاعراف والعـادات مثل مجانيـة التعليم النظرية

ثم دفع الاتاوات للمدارس وأخذ الدروس الخصوصية عمليا ، ومثل ملكية الأراضى الصحراوية بوضع اليد ... الخ .

ويمكن تجاوز الطاعة والعصيان عن طريق قانون وضعى يقــوم على المصالح العامة وتنفذه سلطة باختيار الشعب كما هو الحال فى الشريعة الاسلامية التى ترعى المصالح العامة وينفذها امام المسلمين . والقانون الشرعى مدعاة الى الطاعة لأنه نابع من الايمان وأبعد عن العصيان ومبنى على قناعة شخصية . انما التحدى هو فى تطبيقه فى موضعه الصحيح أو كما يقول الأصوليون القدمــاء فى تحقيق مناطه وتخريجه وتنقيحه أى فى البحث عن علل حكمه حتى يمكن معرفتها فى الواقع . فالقانون الشرعى أقرب الى التطبيق من القانون المدنى بدليل كثرة الدعاوى لتطبيق الشريعة ولما تتضمنه من عقاب دنيوى وأخروى .

١١ ــ **الحقوق والواجبات** : وبغياب القانون الذى يحدد العلاقات الشخصية وغياب النسق الذى يحدد العلاقات العامة يغيب أيضا قانون ينظم علاقة الفرد بالدولة ، أى تغيب فكرة الحقوق والواجبات ، فالواجبات بلا حقوق ، والحقوق بلا واجبات . فلا الفرد مواطن ، ولا الدولة وطن . لذلك يصعب تحديد حقوق الفرد وواجباته تجاه الدولة الا فى حدود آداء الوظيفة والاعراف العامة . فالبعض يؤدى واجباته بلا حقوق ، ويمارس مواطنته دون أن تعطيه الدولة شرف المواطنة . لذلك قاضى كثير من المواطنين الدولة لخرقها الدستور ، واعتدائها على القانون ، وانتهاكها حقوق الافراد . وكان رؤساء الدول والحكومــات والهيئات والمصالح والمؤسســات أول من ينتهكون القوانين ، ويوقفون اللوائح كما يقول المثل الشعبى « حاميها حراميها » . ومع ذلك تفرض الدولة سلطانها على الأفراد وتطالبهم بأداء الواجبات دون أن تعطيهم الحقوق . فلا الواجبات تتم ، ولا الحقوق يحصل عليها . من حق المواطن التعليم والسكن والمأكل والملبس وحرية القول واختيار نظامه السياسى ، ومن واجباته طاعة القانون والولاء للدولة . والمواطن لن يؤدى واجباته ان لم

يحصل على حقوقه • ولن يطيع القانون الا اذا أعطاه القانون حقوقه وحقق مصالحه •

وهناك آخرون يأخذون كل الحقوق غصبا ولا يؤدون أية واجبات • الدولة عندهم مصدر للأخذ وليست مكانا للعطاء • يأخذون السلطة والمال ، ويحصلون على المناصب ، وينالون الشهرة ، ويبيعون البلاد ، ويصالحون الاعداء ، ويهربون الأموال ، ويستذلون الرقاب • هم الاسياد واصحاب الدار ، لا معقب عليهم ولا مراجع لهم • ويسميهم أحد الفلاسفة المعاصرين فى الغرب « الأوباش » •

ويمكن تجاوز هذين النقيضين عن طريق القضاء المستنير الذى يدافع عن الدستور ، ويرعى القانون ، ويحرص على حرمة المواطنين ، يدافع عن حقوقهم قدر الزام الدولة لهم بواجباتهم • المحكمة الدستورية العليا هى القادرة على أن تكون الحكم بين الدولة التى تريد من المواطنين أن يؤدوا واجباتهم وتسلبهم حقوقهم وبين هؤلاء الذين يأخذون حقوقهم دون أن يؤدوا واجباتهم • كما أن تربية المواطن على التمسك بحقوقه وتأدية واجباته واختيار نظام سياسى يقوم على الاعتراف بحقوق المواطنين قبل مطالبتهم بأداء واجباتهم يؤدى حتما الى ربط الحقوق بالواجبات حتى يكون من يؤدون واجباتهم دون حقوق غرباء فى أوطانهم يودون الهجرة وحتى لايكون من يأخذون حقوقهم دون واجبات دخلاء يحلون محل المهاجرين •

١٢ — **الصبر والتمرد** : وتجمع شخصيتنا القومية بين سلوكين متعارضين : الصبر بلا حدود ثم الانفجار والتمرد والعصيان • فالصبر والجلد ، والقدرة على التحمل ، والمثابرة ، والانتظار ، والتمهل كلها أصبحت سمات عامة فى سلوك المواطنين والأمثلة شاهدة على ذلك مثل « الصبر مفتاح الفرج » • والقرآن يثبته « اصبروا وصابروا •• » • والصوفية تؤكده • والأغانى الشعبية تتغزل فيه •

ولكن فجأة ، وبلا انتظار يقع الانفجار ، وتحدث الانتفاضة ، وتنفجر الثورة • وقد امتلأ قاموسنا السياسى بأشباه هذه الالفاظ •

وسرعان ماتخبو ويهدأ البركان كي يمتلىء القدر من جديد • ما اكثر الفترات التي يطول فيها الصبر ويمتد السكون ، ومـــا اكثر الفترات التي يتفجر فيها القدر ، وتتفجر الثورات •

ويمكن تجاوز هذا التناقض عن طريق النقد الاجتماعي والتطوير والاصلاح من أجل تغيير الوضع القائم • فبدلا من أن يسير التطور في خطوط منكسرة يمكن أن يسير في خط متصل صاعد مادام التفكير مكفولا للجميع ومادامت حرية التعبير وحرية الاختيار حقا لكل المواطنين •

قد تكون هناك مخاطر اكثر أو أقل في سلوكنا القومي ، وقد يكون البعض منها في حاجة الى مزيد من الاحـــكام • ومع ذلك تظل هـــذه المحاولة مجرد دق لناقوس الخطر • وان لم يكن لهذه المحاولة أي رصيد علمي يذكر فعلى الأقل تبقى اثارة للأذهان •

مخـــاطر فى وجداننـــا القـــومى

اذا كانت « مخاطر فى فكرنا القومى » تمثل « نقد العقل النظرى الاجتماعى » ، « ومخاطر فى سلوكنا القومى » تمثل « نقد العقل العملى الاجتماعى » فان « مخاطر فى وجداننا القومى » تمثل نقد « الوجدان الاجتماعى » أو بتعبير كانط الشهور « نقد ملكة الحكم الاجتماعى » أى احساسنا بالعالم وشعورنا به من حيث هو غاية أو جمال •

ويصعب الفصل بين الفكر والسلوك والوجدان • فالفكر سلوك ممكن ، ووجدان قبل أن يتحقق • والسلوك فكر متحقق ، ووجـــدان متعين • والوجدان فكر شعورى ، وسلوك فى مرحلة البواعث • لذلك يصعب التمييز أيضا بين مخاطر العقول الثلاثة • فالنظر والعمل والوجدان مظاهر للشعور الواحد •

وتبدو سمة السلوك القومى فى الوجـــدان القومى ألا وهى الجمع بـــين النقيضين ، والانتقال من طرف الى طرف دون توسط بينهما • والانتقال من النقيض الى النقيض دون توسط يدل على جدل الكل ولاشىء ، جدل الايجاب والسلب ، جدل الهدم والبناء • فى حين أن الانتقال من طرف الى طرف عن طريق التوسط هو جدل التاريخ ، والانتقال الطبيعى من مرحلة الى مرحلة • جدل الاضداد يدل على قلق وعدم استقرار وعـــدم وجود خطة قومية مثل اعادة بناء الثقافة الوطنية لتطوير الشـــعور القومى ، ونقله من مرحلة الى مرحلة كما حـــدث فى عصر النهضة ونقل الوعى الأوربى كله من العصور الوسطى الى العصور الحديثة •

واذا كانت بنية الفكر القومى قد وجدت فى خمسة علاقات : علاقة الفكر بالسلطة من أجل التبعية والاستقلال ، وعلاقة الفكر بالواقع لمعرفة مادة الفكر ومضمونه ، وعلاقة الفكر بالمنهج لمعرفة صور الفكر وطرقه ، وعلاقة الفكر بالمؤسسات لمعرفة تحقق الفكر ومواطنه ، وعلاقة الفكر

كتبت هذه الدراسة فى صيف ١٩٨٧ اكمالا للمقالين السابقين « مخاطر فى فكرنا القومى » « مخاطر فى سلوكنا القومى » •

بالتاريخ لتحديد مسار الفكر وحركته فان الوجدان القومى كالسلوك القومى يتحدد فى بنية ثلاثية : الانسان بين عالمين : الوجود والطبيعة أو كما قال القدماء : الله والعالم • تظهر من خلال اثنى عشر تناقضا رئيسيا هى : غياب الطبيعة والتكالب على الاشياء ، غياب البعد الجمالى وحضور الفن للتسلية ، التصور الهرمى للعالم مع تسوية كل شىء بكل شىء ، التصور الرأسى للعالم والسلوك الأفقى فيه ، التدين الشديد وحب الدنيا ، غياب الانسان وتشخيص الفرد ، الاحساس بالزمان بين البطىء والسرعة ، الاحساس بالمكان بين الهجرة والتشبث بالارض ، الانفعال الزائد وغياب الوجدان ، الحب الشديد والكراهية الشديدة ، الارتباط بالقديم وحب الجديد ، وأخيرا قدرية التاريخ ودور الابطال فيه • ويمكن تلخيص ذلك على النحو الآتى :

١ ــ **غياب الطبيعة والتكالب على الاشياء** : وغالبا مالا نشعر بالطبيعة ، ولا يصدر سلوكنا عنها ، ولا ينبع فكرنا منها • قد تكون ميزة الوثنية القديمة أنها دين طبيعى ، يبدأ الفكر فيها من الطبيعة ، ويتوجه السلوك فيها نحو الطبيعة • نحن لا نعيش فى عالم نسير فيه بالأقدام ولكنا نحيا فى وجود محكوم عليه من أعلى بالفناء • اعتبرنا العالم حادثا ، وجد من لا شىء وينتهى الى لا شىء ، وجد من عدم ، وينتهى الى عدم • وكيف يعيش الانسان فى عالم غير موثوق فيه ، يهتز فى البداية والنهاية • اذا ما ضاع استقلال العالم فان استقلال الانسان أيضا يضيع ! لا وجود لانسان مستقل فى عالم غير مستقل • وقد يكون السبب فى ذلك تراكم حضارى قديم من اعتبار الوجود حادثا لا يستمد بقاءه من ذاته بل مجرد سلم لاثبات الذات القديم • وتلك هى الروحانية الجوفاء التى لامضمون لها والتى منها يتم استلاب العالم فتصبح روحانية بلا قلب ، صورة بلا مضمون •

وفى نفس الوقت الذى تغيب فيه الطبيعة من وجداننا القومى يتجه الشعور نحو التكالب على الاشياء بغية الاستحواذ عليها والامساك بها ، بحثا عن الغائب مع فقد الاتزان والتصور • ويقع وجداننا القومى بين هذه

الروحانية الجوفاء وتلك المادية الصماء • نظرا لأن الطبيعة قد سقطت من الروح فانها تعود من جديد بلا روح وتصبح مادة • ونظرا لأن الروح جوفاء فانها تبحث عن طبيعة وتسرع بالامساك بها فتمسك بالمادة من قوة الدفع والحرص على عدم الافلات • وقد ظهر ذلك فى السلوك اذ يقتل بعضنا بعضا بسبب كوز ذرة ، ويبيع بعضنا بعضا بثمن بخس ، دراهم معدودة • ضاعت قيم المجتمع ، وانفصمت عرى الأسرة ، وانتهت الصداقة بسبب التكالب على الاشياء والصراع على المصالح • يطرد الأخ أخيه من السكن للاستحواذ عليه ، ويقتل الابن أمه لمصاغها وثروتها ، وتقتل الزوجة زوجها للخلاص منه ، ويخطف الأطفال ، ويعتدى على النساء فى نفس الوقت الذى يظهر فيه الحجاب ، ويشتد فيه الوازع الدينى ، وتقام الشعائر على الملأ وفوق رؤوس الاشهاد !

ويمكن تجاوز هذين النقيضين : الروحية العرجاء والمادية العمياء عن طريق وحدة الروح والطبيعة ، الله والعالم على ما ظهر فى تراثنا القديم فى علوم الحكمة فى التوحيد بين علم الطبيعة وعلم ما بعد الطبيعة ، بين العلم الطبيعى والعلم الالهى • فهما علم واحد ذو واجهتين ، وجود واحد ذو طبيعتين • كما وضح ذلك أيضا فى علم أصول الدين فى القول بقدم العالم ، وعند الصوفية فى وحدة الوجود • بل وظهر أيضا عند علماء أصول الفقه فى التوحيد بين النص والواقع ، بين الأصل والفرع ، بين الشرع والمصلحة • لقد تقدم الغرب فى عصر النهضة بالانتقال من الله الى الطبيعة ، من الكتاب المغلق الى الكتاب المفتوح • وهو ما حاوله أخوان الصفا من قبل • ولكن الذى عاش فى وجداننا القومى هو استلاب الطبيعة ، واغتراب الانسان •

٢ ــ جمال الطبيعة وتسلية الفن : وان حضرت الطبيعة من وراء ستار أو من الباب الخلفى على أية صورة كانت فاننا نسلخ منها بعدها الفنى وجمالياتها نظرا لحالة الضنك التى نعيشها • فالطبيعة قدر ما تعطينا من أود الحياة • الخضرة نأكلها ، الورد نصنع منه شرابا • الجمال ترف لا قبل للناس به • الشىء للهضم لا للتأمل ، والمرأة للجنس لا للشعر

الا فيما ندر • لذلك افتخر الغرب علينا بأنه هــو الذى اكتشف الحب والانسان والزمان والتاريخ • وفى المثل الشعبى ، « اللى عاوزه البيت يحرم على الجامع » ، وأيضا « اللى غاوى ينقط بطاقيته » • يصبح القبح نمط حياة ، وتتعود النفس عليه فتفقد احساسها بالجمال • القبح هو القاعدة والجمال هو الشاذ • نصاب بالغثيان ، وتضيق بنا السبل ، وتختنق الانفاس • نعيش بين أكوام القاذورات وعلى حواف المجارى الطافحة ، النظافة ترف لا قبل لنا به ، مستوردة دخيلة ، توجد فقط فى الفنادق الكبيرة • قد ينشأ ذلك من الحاجة وضرورات الحياة • فالفم يأتى قبل العين أحيانا !

وفى نفس الوقت الجمال لدينا هو تسلية الفن تعويضا عن قبح العالم • فيكثر الرقص ، وتزداد أهمية الغناء • وتتحول أجهزة الاعلام الى وسائل للترفيه نصف الوقت والى بوق دعائى للدولة النصف الآخر • يكثر الهزل لاستجداء الضحك الرخيص ، ويعظم دور الراقصــات والفنانين فى حياتنا القومية • وينزوى دور العلماء والمفكرين والأدباء • انتشر الفن الهابط ، وانزوى الفن الرفيع • لم يعد فى الفن فكرة ولا نبلا • لم يعد يثير فى النفس جمالا و لافى الروح جلالا • واذا ضاعت الغائية ضاع الجمال • واذا غاب الهدف ثقلت النفس ، وارتكنت الى البدن ، وعم القبح ، واحتاج الانسان الى التسلية كنوع من التفريج عن الهم وتخفيف الكرب •

ويمكن تجاوز هذين النقيضين عن طريق الانتقال من جماليات اللغة الى جماليات الطبيعة • فنحن نقرأ القرآن ، ونطرب لفنون التجويد • قد يكون ذلك فى المقابر والأزقة والاحياء القديمة بين أطنان القاذورات التى يعف عليها الذباب • بل ان شكل قارىء القرآن لدينا هو الأعمى ، الحافى القدمين ، الجائع ، أشعث الشعر ، مهتم الاسنان ، غير حليق الذقن ، وسخ الجلباب ، حامل القفة ، طالبا الرحمة ! فالبعد الجمالى حاضر فى اللغة وغائب فى الطبيعة ، حاضر فى الصورة الفنية وغائب فى الاشياء ، يشنف الآذان ولا يسر العيون • فى حين أن الآية لغة وطبيعة ،

كلام وشىء ، لفظ وظاهرة. •وان وصف الطبيعة فى القرآن الكريم ، طبيعة خضراء ، يسقط عليها الماء فتهتز الأرض وتربو ،عليها النخل الباسقات ، والشمس والقمر والنجوم ، والطيور ذوات الألوان ، والبحار الممتدة ، والأرض المنبسطة ، كل ذلك توحيد بين جماليات اللغة وجمال الطبيعة «ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون» (١٦ : ٦)• وكما قيل « ان الله جميل يحب الجمال » • وفى التجربة الصوفية ، يظهر التوحيد بين التجربة الدينية والتجربة الجمالية فى الشعر الصوفى والمواجيد والانشاء الدينى • ان الشعر هو شعر الطبيعة • والجمال هو جمال الطبيعة •

٣ — **التصور الرأسى للعالم والسلوك الأفقى فيه** : وغالبا ما نتصور العالم تصورا رأسيا أى أن العلاقة بين الطرفين هى علاقة الأعلى بالأدنى نزولا أو علاقة الأدنى بالأعلى صعودا • فالحقائق تنزل من أعلى الى أسفل أو تصعد من أسفل الى أعلى • النزول فى حالة الأمل والانتظار ، والصعود فى حالة اليأس والرغبة فى الخلاص • النزول فى المعرفة عن طريق الالهام وفى السلوك عن طريق العون والمدد والدعاء ورفع الاكف والشخوص بالابصار الى السماء وهو ما سماه اقبال « فلسفة السؤال » • وكلاهما يغذى بعضه بعضا • فالنزول من الله الى العالم أو من الراعى الى الرعية أو من الحاكم الى المحكوم ، والصعود من العالم الى الله ، ومن الرعية الى الراعى ، ومن المحكوم الى الحاكم • الأول أيديولوجية السلطة المترسبة فى وعينا القومى من الاشعرية القديمة ، والثانية أيديولوجية الاستسلام والطاعة المختزنة أيضا فى وعينا القومى من التصوف القديم • وكانت عبقرية الغزالى فى تشريعه للأيديولوجيتين الأولى فى « الاقتصاد فى الاعتقاد »، والثانية فى « احياء علوم الدين » بعد أن كفر المعارضة السرية المسلحة فى الداخل فى « فضائح الباطنية » ، والمعارضة العلنية المسلحة فى الخارج (الخوارج) ثم المعارضة العلنية الفكرية فى الداخل (المعتزلة والفلاسفة) فى « تهافت الفلاسفة » • لذلك ازدوجت الاشعرية والتصوف منذ القرن الخامس

حتى الآن ، ابان الألف عام الأخيرة مرورا بدولة الخلافة حتى نظم الحكم وأجهزة الاعلام الحالية . لم يعد هناك فرق بين الصعود أو النزول ، فكلاهما حركة واحدة ، تعيش كل منهما على الأخرى . فى حالة النزول ، ينادى لصلاة الاستقصاء حتى تهطل الامطار ، ولصلاة الاستخارة حتى يصدر القرار الحر ! درجات الرقى الوظيفى الى أعلى فى السلم الهرمى ، ومستويات التعليم الى أعلى : من المراحل الأولى فالثانية ، فالثالثة : من السنة الأولى الى الثانية الى الثالثة .. الخ . ولا فرق بين طرق الصوفية وحلقات تعاطى المخدرات بل وخلايا الاحزاب كلاهما يبغى الخروج من هذا العالم والانتقال الى عالم آخر ، الخروج من الواقع والدخول فى الوهم . هذا الارتقاء فى كل شىء الا فى المنهج أى البداية من الواقع الى الفكر ، ومن الجزئيات الى الكليات[1] .

وفى نفس الوقت يكون سلوكنا القومى أفقيا صرفا ، دخولا فى الدنيا وتعلقا بأمورها ، وتكالبا عليها ، وكان التصور الرأسى للعالم ما هو الا قناع يخفى السلوك الدنيوى ، وكأن حركتى الصعود والنزول ما هما الا مددا وتقوية للهدف النهائى وهو التكيف فى شؤون الحياة . لذلك ينجح المتدينون فى التجارة ، وتزدهر البنوك الاسلامية ، وتنشط شركات توظيف الأموال ، وينال الصوفية كل شىء ، تركوا الدنيا طواعية فأتتهم كرها . لذلك استحسنا شخصية طرطوف لموليير ، ونقلناها الى الشيخ متلوف . وسخرنا من سلوك الشيخ أمام قصعة الفتة ، ومن نحنحة الشيخ الضرير حتى تتوارى النساء ظاهرا ، والاعلان عن قدوم الذكر باطنا !

والحقيقة أنه يمكن تضييق الهوة بين الطرفين أيضا عن طريق التوحيد بين الروح والطبيعة ، بين الدين والدنيا دون أخذ أحدهما شعارا للآخر . فالصعود الى أعلى هو دخول الى أعماق النفس لسبر أغوارها ، والنزول الى أسفل هو الدخول فى أعماق الواقع لسبر أغواره كذلك . ان تحويل العلاقة بين الطرفين من الأعلى الى الأدنى الى الداخل والخارج

---

(1) أنظر دراستنا السابقة : « مخاطر فى تكويننا القومى » .

أو الأمام والخلف لقادر على التوحيد بين التصور الرأسي للعالم والسلوك الأفقي فيه •

٤ — التصور الهرمي للعالم وتسوية كل شيء بكل شيء :
وينبع من التصور الرأسي للعالم والعلاقة بين الأعلى والأدنى التصور الهرمي له هبوطا أو صعودا كذلك على مراتب أو درجات • وهي ليست فقط مراتب وجود ولكنها أيضا مراتب شرف • كلما صعدنا الى أعلى زادت مراتب الشرف ، وكلما هبطنا الى أسفل قلت مراتب الشرف • كلما صعدنا الى أعلى زادت مراتب الكمال وقلت مراتب النقص ، وكلما هبطنا الى أسفل زادت مراتب النقص وقلت مراتب الكمال • ثم ينتقل هذا التصور من الوجود الى الأخلاق والاجتماع السياسي فينشأ المجتمع الطبقي والمجتمع البيروقراطي • ويرتبط التصور الهرمي للعالم بالتصور المركزي له • فالتصور الهرمي على المستوى الطولي هو نفس التصور المركزي في المسقط العرضي • وكما تتركز القيمة في قمة الهرم في مقابل القاعدة كذلك تتركز القيمة في مركز الدائرة في مقابل المحيط • ولا تهم العلاقة بين الاثنين ، أيهما علة وأيهما معلول • فكلاهما تجربة معاشة في الشعور • والعلاقة بينهما وجدانية لا صورية ولا مادية •

وقد سمي ذلك التصور قديما نظرية الفيض أو الصدور • وكانت احدى الاحتمالات عند المتكلمين والفلاسفة والصوفية في مقابل الخلق والقدم لتحديد الصلة بين العالم والله • لم تعش نظرية الخلق التى بدأها الكندي • كذلك لم تعش نظرية القدم التى دافع ابن رشد عنها • واستقر الفيض في الوعي القومي تعبيرا عن المجتمع السلطوي وتشريعا له •

وفي نفس الوقت الذي نتصور فيه العالم متدرجا بين الأعلى والأدنى نزولا أو بين الأدنى والأعلى صعودا نسوي كل شيء بكل شيء ، الاشخاص مع الاشياء ، البشر مع الحيوان ، والحيوان مع الجماد • وطبقا للمثل الشعبي « كله عند العرب صابون » أو عادة قول « ما تفرقش » ، « كله زي بعضه » • ونفقد هذه الميزة الوحيدة للتصور

الهرمى وهى تفاضل القيمة ، واعتبار الانسان أعلى قيمة من الحيوان ، والحيوان أعلى قيمة من الانسان ، القطط والكلاب والأطفال على أكوام الزبالة • الفلاح والحيوان يعيشان فى نفس المكان • وفى الامثال العامية « سمك ، لبن ، تمر هندى » أو « ايه اللى جمع الشامى مع المغربى » ، « ما فيش فرق » •• الخ •

ويمكن التوسط بين هذين الطرفين عن طريق التفاضل فى القيمة بين البشر على نفس المستوى • فالبشر بشر متساوون من حيث المبدأ ثم يتفاضلون فيما بينهم من حيث العمل • الشعوب كلها متساوية من حيث المبدأ ثم تتفاضل فيما بينها من حيث الابداع الحضارى • المساواة مبدأ واللامساواة واقع • لا يستوى العلم والجهل ، الخير والشر ، البصير والأعمى ، النور والظلمات ، الحسنة والسيئة ، الايمان والفسوق ، الانفاق والشح ، الجهاد والقعود ، الطيب والخبيث ، العدل والظلم ، الحى والميت ، الجنة والنار •• الخ • وما أكثر الآيات التى تستنكر استواء النقيضين مثل « قل هل يستوى الاعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور » (١٣ : ١٦) ، « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة » (٤١ : ٣٤) ، « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله » (٤ : ٩٥) ، « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث » (٥ : ١٠٠) ، « وما يستوى الاحياء ولا الأموات » (٣٥ : ٢٢) ، « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٣٩ : ٩) ، « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون » (٣٢ : ١٨) ، « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة » (٥٩ : ٢٠) •

٥ ــ **الهروب الى الدين والعودة الى الدنيا** : وعادة ما نوصف بأننا أشد الشعوب تدينا وفى نفس الوقت نحن من أشد الشعوب دنيوية وحب للحياة وتكالبا عليها • وفى شخصيتنا القومية كما تبدو فى التاريخ ارتبط الدين بالدنيا فى الأخلاق والاجتماع والسياسة • فالله هو فرعون • وآمون هو الله والشمس • وكان الكهنة هم العلماء ، وكانت

حياة الناس موجهة بالعقائد • خرجت العلوم الرياضية والطبيعية من ثنايا الدين لبناء المعابد ولتحنيط الموتى • لا فرق بين الشرائع الالهية وقوانين الزراعة كما هو واضح فى شريعـــة حمورابى • ولا فرق بين الشريعة والقوانين الأخلاقية كما هو واضح من ألواح موسى ، ولا فرق بين الدين والدولة كما هو واضح فى القرآن الكريم • وتجسد ذلك كله فى الدولة الفرعونية القديمة وأشكالها المختلفة عبر القرون • كما ظهر فى الدولة العبرانية أيام داود وســـليمان ثم فى الدولة الاســـلامية أيام الخلافة • خرجت العلوم الاسلامية من ثنايا الدين ، ونشأت الحضارة بفضل الدين • وكما قال ابن خلدون من قبل « ان العرب لا يحصـــل لهم الملك الا بصبغة دينيـــة أو ولاية أو أثر عظيم من الـــدين على الجملة »(٢) •

ولكن ما ان انهارت الدولة وضعف الدين ، بصرف النظر عن أيهما علة وأيهما معلول أيهما بدأ فى الانهيار أولا وأيهما ثنى نتيجة بدأ الدين والدنيا يأخذان خطين منفصلين ، الأول صاعدا الى أعلى كما فعل الأسينيون أثناء عصر المسيح ، وتابعهم المسيح داعيا الى الدين دون الدنيا والى اعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله ومؤسسا الكهنوت ، والثانى نازلا الى اسفل وهو الذى مثله الفريسيون والاحبار وما كانت تمثله الامبراطورية الرومانية • وأتى الاســـلام ليجمع بين الخطين من جديد ، بين اليهودية والمسيحية ، بين الشريعة والمحبة ، بين الله وقيصر • ونجح فى ذلك أيام الخلفـــاء الاوائل حتى نشـــأ الصراع من جديد فانزوى الدين وراءه الصوفية ، وامتدت الدنيا تحت أقدام الملوك • والشعب بين الاثنين حائر موزع بين دافعيه الرئيسيين ، ومكونيه لمزاجه وطبيعته وثقافته ، ينشد مع الطرق الصوفية ، ويختار حرفة يعيش منها ، يغرق فى الدين ويغرف من الدنيا ، تطول اللحى ، وتتكور الكروش ، ترتفع المآذن وتقام أعمدة القصور • ينـــام المشردون فى المساجد ، ويأوى المجاذيب على نواصى الطرقات • تزدحم المســـاجد

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٥١ ، المكتبة التجارية ، القاهرة •

بالمصلين ويكثر الباعة حولها • وعند البعض الحج تجارة ، والحجاب زينة ، والصوم شبع كما يظهر ذلك فيما تزخر به موائد الافطار وفى المظاهر الدنيوية فى حياة الليل فى رمضان • وفى أجهزة الاعلام بين صلاة المغرب والعشاء فاصل من الرقص الشرقى واحدى حلقات الفوازير • وفى المساجد بعد التراويح الجلوس على المقاهى حتى السحور • انزوى الدين فى ميدان حتى تحول الى شعائر وطقوس ، وتجاور مع الدنيا بضجها وضجيجها • أصبح عالما مستقلا بذاته ، مغلقا على نفســه ، فيه تعويض عن مأسى الدنيا حتى يسهل فيه هم الانتصار ، وتسهل فيه الحصول على المعارف اللدنية •

وفى نفس الوقت • يبزغ حب الدنيا وكما هــو فى المثل الشــعبى « اللى عايزه البيت يحرم على الجامع » • وقد وضح ذلك أيضا فى القواعــد الفقهيــة مثل « لاضرر ولا ضرار » ، « الضرورات تبيح المحظورات » ، « لا تكليف بما لا طاقة به » •• الخ • وكل شىء وفى الطبيعة الانســانية قننه الشرع : والطعام والشراب حتى الاشــباع الجنسى المتعدد •• الخ • والحقيقة ان الدين الشعبى قد أظهر هــذه الوحدة الأولى بين الدين والدنيــا التى تحولت من مســتوى الدولة الى مستوى الممارسة الشعبية ، واستطاع أن يقوم بدور الوسيط بين الطرفين •

٦ ــ **غياب الانسان وتشخيص الفرد** : وفى تصورنا للعالم وفى أحساسنا بالاشياء ، يغيب الانسان كما يغيب البعد الانسانى للاشياء • لايهم وجوده كفرد ، ولاحياته كقيمة • لاتهم راحته البدنية ولا معلوماته الصحيحة ولاتذوقه للجمال • الغذاء الفاسد يكفيه ، والارهاق الجسمانى لاغبار عليه ، والقبح حوله لاحرج • يكفى أنه يتنفس ، ويعيش ، ويتحرك ويسير على الاقدام كباقى الدواب • يتم بناء كل شىء من أجل الكسب بصرف النظر عن حق الانسان فى أن ينال خدمات فى مقابل مايدفع • يتم تجهيز المستشفيات للاستثمار ويظل الانسان يعــانى من آلام المرض أو فى حشرجة الموت وهو يحتضر الا اذا دفع أولا مقدم أتعاب قبل الدخول

من الباب • ويخرج الانسان فى الصباح من منزله ولايعود اليه فى المساء ويختفى • يأتى زوار الفجر ، ويأخـــذون الأب والزوج والابن والاخ الى غير رجعة • تتكدس الأجســـاد فى المواصـــلات العامة ، فى الفصول والمدرجات بلا فردية أو آدمية أو كيان • ولقد غاب الانسان من قبل فى تراثنا القديم فغاب فى وجداننا القومى • يتم الصعود من العالم الى الله مباشرة أو النزول من الله الى العالم دون توسط الانسان الا من قسمته الى قسمين ، جسم فى الطبيعيات وعقل فى الالهيات • فالحكمة القديمة ثلاثة : منطق وطبيعيات والهيات • لاتوجد انسانيات باستثناء اخوان الصفا الذين أضافوا النفسانيات والعقليات • أما الانسان كبعد مستقل ، ككيان ومنطقة وجود فلا وجود له[٣] •

وفى نفس الوقت الذى يغيب فيه الانسان العادى يحضر الانسان الفرد ، الأوحد الفريد ، الذى لامثال له ولا منوال ، رئيس الدولة أو الشركة أو الهيئة أو الجامعة أو رب الأسرة • وكما قال أحـد فلاسفة الغرب : فى الشرق واحد فقط هو الحر ، والباقى عبيد ! وذلك نتيجة للتصور الهرمى للعالم حيث يقبع فى القمة الامام والرئيس والقائد والمعلم والملهم والزعيم والمجاهد الى آخر هذه الالقاب القديمة والحديثة على السواء • اذا خرج من القاعدة على النظام كما يقول الفارابى فانه يجب بتره حتى يستوى الجسم كله كما يحسن بتر العضو الفاسد حماية للجسم كله ! تحمل الدولة اسم الفرد • هذه دولة الأمويين ، وتلك دولة العباسيين والفاطميين والاخشيديين والطولونيين حتى العصر الحاضر • الفرد الأوحد هو الدولة • هو الذى يضع السياسات وينفذها ، والمؤسسات تتابع وتراقب من يعصى أو يعترض ولا تراقب صحة التنفيذ • هو المؤسسة أو المصلحة أو الهيئة • وزير الزراعة هو الزراعة ، وزير الصناعة هو الصناعة ، وزير الكهرباء هو الكهرباء •• الـــخ • رئيس الجامعة هو الجامعة ، والاستاذ هو الفصل أو المدرج ، والسائق أو المحصل هو

---

(٣) انظر دراستنا : « لماذا غاب مبحث الانسان فى تراثنا القــديم ؟ » ، دراســات اسلامية ص ٣٩٣ — ٤١٥ ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨١ •

المركبة ، والأب هو الأسرة • لذلك قيل من قيل « ان الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » • وقيل أيضا : « الناس على دين ملوكهم » • وقال الشاعر العربي :

اذا كان رب البيت بالدف ضاربا   فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

اذا ماتغير الفرد الأوحد تغيرت سياسات الدولـة وسياسات الهيئات والمصالح العامة • وبتغير مزاج الافراد واختياراتهم وولاءاتهم تنقلب السياسات رأسا على عقب • مات الملك ، يحيا الملك كفرعون مصر القديم الذى يأتى فيمحو سجلات الفرعون السابق ليسجل التاريخ من جديد على حوائط المعابد فالتاريخ يبدأ عنده وينتهى به • لذلك غاب من وعينا القومى التراكم التاريخى اللازم لنشأة الوعى التاريخى • أول خبر فى نشرة الاخبار عن الرئيس ، ماذا فعل ؟ ومن قابل ؟ ومن أرسل له برقية أو خطابا ؟ ومن هنأ ومن عزى ؟ ماهى اخر حركاته وأولى سكناته ؟ ماهى تنقلاته ونصائحه وتوجيهاته ؟ أمـا مصائب الناس وأزماتهم ، المنازل المهدمة ، والمجارى الطافحة فهى ليست بأخبار • ثم يتم الانتقال من فرد الى فرد ، من حياة رئيس الى موت رئيس ، من رئيس مقتول الى مرؤوس قاتل ، تجرأ فاغتال الرئيس أو أحد الوزراء من معاونيه • كلاهما منطق البطولة ! وكثيرا ماينال البطل المضاد الذى يزعزع مكانة الرئيس الأوحد تعاطف الشعب واعجابه • وكلاهما يتصدر أخبار الصحف فى الصفحات الأولى • وكما قال برودون وروسو من قبل : ليس السارق من سرق ولكنه أول من أخذ شيئا وقال هذه لى • كذلك ليس القاتل من قتل ولكنه أو رئيس قال أنا ربكم الأعلى !

ويمكن تجاوز هذين النقيضين غياب الانسان وتشخيص الفرد عن طريق تحول التصور الرأسى كله الى تصور أفقى للعالم • وبدل أن تكون العلاقة صعودا وهبوطا تكون تقدما ونكوصا • وبالتالى يمكن رد الاعتبار الى القاعـدة من القمة واثبات اسـتقلال المؤسـسـات عن رؤسائها ، ويكون الجميع على قدم المساواة •

٧ — الاحساس بالزمان : البطء والسرعة : وفى احساسنا بالزمان البطء الشديد فى انجاز العمل ، وتأجيل عمل اليوم الى الغد طبقا للأمثال الشعبية المألوفة « فوت علينا بكره » ، « هيه الدنيا طارت » ، « فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة » • مواصلاتنا من أبطأ المواصلات فى العالم • مواعيدها فى تأخر مستمر • أصبحنا نعرف بعدم الدقة فى تحديد الزمان ، وضبط المواعيد • يقول أحدنا : « سأمر بعد الظهر » أى فى خلال أربع ساعات أو « سأمر غدا » أى فى فترة يبلغ مداها ثمان ساعات على الأقل ! ويظهر عدم الدقة هذا فى برامج الاعلام عندما تغير مواعيد البرامج طبقا لأهمية الأحداث أو طبقا للكم الهائل من الاعلانات بغية التجارة مادام المشاهدون ينتظرون الفيلم ! كل ذلك على الرغم مما قيل فى أمثلتنا وحكمنا ونصائحنا « لا تؤجل عمل اليوم الى الغد » وكذلك قول الشاعر العربى « وكان أفضل لو أنهم عجلوا » •

وفى نفس الوقت لدينا احساس مضاد بالعجلة وعدم الدقة فى اتيان أى شيء و « الطسلأة » • يبدو ذلك فى سرعة تناول الطعام ، وسرعة قيادة السيارات لا ابقاء على حياة ولا حفاظا على أحد • نريد أن نبنى المجتمع الاشتراكى فى جيل واحد فنقفز على المراحل قفزا فنصاب بردة ، ويكتسب الشعب مناعة ضد الاشتراكية اذا ماعادت ثانية • نريد أن تحقق الوحدة القومية فنعلن عنها وحدة جزئية بين يوم وليلة بمجرد لقاء زعيمين ، سرعان مايدب الخلاف بينهما فتنفض الوحدة قبل أن تتم • لايعيش الانسان منا عمره ، بل عمر أجيال قادمة أو أجيال ماضية • فنحن باستمرار خارج الزمن والمرحلة واللحظة اما مبطئين واما مسرعين •

ويمكن تجاوز هذا التناقض بين البطء والسرعة ، بين السكون والحركة عن طريق الانتقال المرحلى ، ومعرفة مسار الاشياء ، وتحديد المرحلة التى يعيشها • وهذا يتطلب احساسا واعيا بالتاريخ وبحركة الاشياء وبالمراحل المتعاقبة حتى لايتم القفز عليها ، والعودة الى مرحلة ماضية أو السبق الى مرحلة تالية • لذلك كان أهم سؤال لجيلنا : فى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش ؟ ويمكن لأفكار الوقت والأجل

والكتاب واللحظة التى لاتتقدم ولا تتأخر أن يكون لها أبلغ الأثر فى احساسنا بضبط الزمان وكما هو الحال فى القرآن الكريم : « قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » (٣٤ : ٣٠) ، « فاذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (١٠ : ٤٩ : ١٦ : ٦١) .

٨ ــ الاحسـاس بالمكان : الارتبـاط بالأرض والهجـرة :

وفى الاحساس بالمكان لدينا أيضا احساسان متعارضان : الأول الالتصاق بالأرض ، وعدم مغادرة القرية ، والشكوى من الغربة ، ومن فراق الأوطان ، والثانى الهجرة والفرار ، والسعى فى أرض الله الواسعة بحثا عن الرزق سواء كانت هجرة مؤقته أو دائمة . ويرتبط بالالتصاق بالارض الضيق والزحام والمكاتفة والتصاق الاجسام . فى مصر خمسون مليونا يسكنون فى ٤٪ من مساحة البلاد . ولايختلف الحال كثيرا فى البلاد العربية من حيث الكثافة السكانية حيث تمتد الصحراء الشاسعة ولايقطن السكان الا فى الوديان وعلى ضفاف الانهار أو فى السهول وعلى شواطىء البحار . والأمثلة الشعبية على ذلك كثيرة « الارض تكفى ماية » . وبسبب ضيق المكان اختنقت الانفاس ، وتوترت الأعصاب ولم يعد أحد يتحمل أحدا لا من القادة ولا من المواطنين . وفى نفس الوقت ننزع الى الهجرة ، ونريد أن نهرب من المكان الضيق الى مكان أوسع وأرحب فى الخليج أو الحجاز أو ليبيا أو الشام أو العراق . وقد تمتد الغربة الى أى مكان الى أوربا وأمريـكا واستراليا . وعلى أبواب السفارات العربية والأجنبية يتجمهر الناس منذ الصباح الباكر بالآلاف طلبا لتأشيرات الدخـول فتقفل فى وجوههم الأبـواب ، ويسـتدعى الأمن المركزى لضربهم بالعصى الخشبية والسيور الجلدية مع السـب واللعن للأب والأم « ايه الى رماك على المر قال اللى أمر منه » . أصبحت الهجرات العربية الحديثة ظاهرة تسترعى الانتباه ، ليست كهجرة القدماء الفاتحين حاملين لواء الاسلام ، ومبشرين به للبلاد المفتوحة ولكن حاملين حقائب الأموال كالعربى القبيح فى لندن لشراء مخازن بأكملها تفتح له

أيام العطلة والآحاد ويشترى بالملايين بما فى ذلك الحوائط والاسقف ومستلزمات القصور • وآخرون يهاجرون ليناموا على الارصفـــة وفى محطات مترو الانفاق ، يغسلون الاطباق ، ويعملون خدما فى المقـــاهى والمطاعم وحراس فنادق بالليل • وتكونت فى الخارج مستعمرات عربية بأكملها فى أحياء خاصة بالمدن الأجنبية ، يتحدثون فيها لغتهم الوطنية ، وينعمون فيها بتقاليدهم ، ويستأنفون نميمتهم وحسدهم • تتلقفهم الكنائس والمساجد لتنسيق نشاطاتهم • يعيشون فى أحياء معزولة Ghetto كما عاش يهود أوربا من قبل وكما هو الحال فى عديد من المدن الأمريكية ، الحى الالمانى ، الحى الايطالى ، الحى الهولندى ، والحى العربى •• الخ •

ويمكن الجمع بين النقيضين عن طريق الهجرة المؤقتة اما لطلب العلم أو لجمع المال أو لكسب الخبرات كما حدث أيام محمد على وعبد الناصر من أجل عودة قريبة الى الوطن والمشاركة فى تنميته الشاملة • أما الهجرة بسبب الاضطهاد فانها تكون أيضا مؤقته « الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا اليها » ، وذلك مثل هجرة الرســـول ثم العودة الى موطنه الأصلى • الهجرة نوع من الانتظار المؤقت الى أن يحين وقت العودة من أجل فعالية اكثر وحماية اكبر •

٩ ــ الانفعال الزائــد واللامبالاة القاتلة : ومما يميز ســلوكنا القومى أيضا هو زيادة النبرة ، وحدة الانفعال فى موقف قد لايتطلب ذلك بل كعنصر دائم ونمط حياة • وفى نفس الوقت ، وفى مواقف تتطلب حدة الانفعال نظهر لامبالاة قاتلة ، وحيادا باردا وكأن الامر لا يعنينا • فالانفعال الزائد هو شحنة عاطفية زائدة على الموقف تطفو منه ، وتنساب عليه ، مثل الصراخ والعويل والضجة غير اللازمة حيث تفيض فى اللغة بلا حساب ، فيغرق الانفعال الالفاظ متجاوزا المعنى • وأصبح الانفعال الزائد وظيفته ، مثل الصراخ ، الاعلان عن الذات ، وتسجيل موقف ، ويكشف بطريق غير مباشر عن العجز عن السيطرة على الموقف أو على عدم اهتمام به عن طريق اظهار العكس • أصبحت الانفعالات التى تبدو فى المعارك الكلامية احد سمات سلوكنا القومى ولا مثيل لها فى

العالم • واذا كنا تميزنا بالمديح قديما فاننا تخصصنا فى « الردح » حديثا ! غاب تحليل العقل ، وساد انفعال العاطفة • أصبحت تحليلاتنا وقتية تتغير باستمرار بتغير العواطف وتقلب الأهواء • تغيرت مجتمعاتنا واختياراتنا من النقيض الى النقيض ، من المصالحة الى الخصام ، ومن الخصام الى المصالحة دون ما سبب يدعو الى هذا أو ذاك • سادت أساليب التمثيل والمسرح لدينا طابع الصراخ والعويل والانفعال الزائد سواء فى المأساة أو فى الملهاة دون أن يتطلبه الموقف وعلى حساب العمل الفنى والأداء السليم • أعلانا صوتا هو اكثرنا انفعالا ! يظن أنه بذلك « التهويش » ينال غرضه ، ويحقق المنال • وفى نفس الوقت نقرأ « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس » (٣ : ١٣٤) !

وفى نفس الوقت كثيرا ما تتطلب بعض المواقف حمية وثورة وغضبا أو رفضا ، ونسلك فيها ببرود تام وكأن الأمر لا يعنينا حتى ولو كان الأمر فى صلب حياتنا ، يمس كرامتنا ويهدد وجودنا • نقول أشياء ، ونأتى بأفعال دون اقتناع وبلا شعور ، ودون أن نضع قلوبنا فيها ، ودون بواعث • أصبح الاضطرار أحد أنماط السلوك لانه تحول الى بناء نفسى دائم ونظرا لأن الفعل الحر أصبح نادر الوقوع • ولا يستثنى الجنس من ذلك • فاصبحنا أحيانا نعطى أجسادنا دون قلوبنا • فى مواقف تستدعى الانفعال مثل النيل من الكرامة أو هضم الحقوق يكون رد الفعل هو البرود التام ، وطأطأة الرأس ، والقبول والاستسلام • نرى الظلم ولا ننفعل • وفى نفس الوقت نردد « الساكت عن الحق شيطان أخرس » ، « ان اعظم شهادة كلمة حق فى وجه سلطان جائر » ! •

ويمكن تجاوز هذين النقيضين عن طريق تحويل الانفعال الزائد الى تحليل عقلى دال • فذاتية الانفعال احدى مراحل موضوعية العقل • ان الفعل الارادى الحر الواعى قادر على احتواء الانفعال والسيطرة على الموقف دون التنازل عن حق الانسان الطبيعى فى الحياة الكريمة • ويتم التعبير عن ذلك بالفعل لا بالقول ، بالسلوك لا بالكلام ، « فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » (٤٨ : ٢٩) •

١٠ ــ المحبة والكراهية : وهما انفعالان متناقضان يميزان وجداننا القومي ، ويصلان الى أقصى حد ، ويتداخلان ويتبادلان المواقف • اذا أحببنا لانرى فعل من نحب أو سلوكه بل نرى شخصه • واذا كرهنا لا نرى الا فعله أو سلوكه ، ولانرى شخصه • نصالح العدو فلا نرى الا شخصه مجردا عن أفعاله وسلوكه ، ونعادى الصديق فلا نرى الى أفعاله وسلوكه مجردا عن شخصه • نحب من يجب أن نكره ، ونكره من يجب أن نحب ! لذلك ظهرت العداوة بين الاخوة الاعداء الى حد الاقتتال بالسيف ، وسفك الدماء • وفى نفس الوقت نقرأ « انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم » ، « لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم » ، « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما » • حب الزعامة يطغى على حب الأخ ، وحب السيطرة يطغى على الابقاء على حياة الأخ •

وفى نفس الوقت نحب من يجب أن نكره • البعض يحب الطاغية والتسلط والمستغل والجاهل تملقا أو قضاء لمصلحة أو تطلعا • والبعض الآخر يصالح العدو ويمدح سماته ، ويتاجر معه ، ويلقبه بأبن العم ! نحب التغريب وهــو يقضى على الهوية ، ونحب تقليد الآخر وهــو اغتراب للذات • ربما ترسب فى وعينا القومى محبة الصوفية الشاملة التى لا تفرق بين عدو وصديق ، بين شيطان وملاك • ربما لأننا ضحايا الذاتية الجوفاء الفارغة من أية واقع موضوعى ، ذاتية عمياء لاترى •

ويمكن تجاوز هذا الخلط بين المحبة والكراهية عن طريق التحليل الموضوعى للمواقف وللعلاقات الاجتماعية مع التفرقة بين التناقضات الرئيسية والتناقضات الثانوية • فالخلافات العربية تناقضات ثانوية ، خلافات لاتقضى على الأواصر ووحدة الهدف والمصير • فى حين أن الصراع العربى الاسرائيلى صراع رئيسى • اذ لا مصالحة مع الصهيونية والغزو والتوسع والعنصرية مهما قبل من امكانية الســلام والتحديث والتنمية والتعاون المشترك • الخلافات داخل الوطن الواحد فرعيــة والصراع بين الوطن وأعدائه خلاف رئيسى ، « أشــداء على الــكفار رحماء بينهم » •

١١ — القديم والجديد : ويرتبط وجداننا القومى بالقديم حتى جعلنا القدم أحد أوصاف الذات الالهية الست بعد الوجود ! وفى أمثالنا العامية « من فات قديمه تاه » ، نعشق الجبن القديم ، ونمدح الخمر المعتق ، ونقدس البيت العتيق ، ونقرأ العهد القـديم ، نرتق الملابس القديمة ، ونصلح العربات القديمة ، ونجمع مخلفات المنازل « الروبابكيا » ، ولا نقذف بشىء • لايوجد فاقد ، بل الكل يعـاد استعماله جيلا بعد جيلا • المخزن مملوء ، والصناديق عامرة بالرغم من ضيق الأماكن • الطعام خزين ، السمن والزبد • والمشهيات خزين ، الزيتون ، والليمون والفلفل ••• الخ • والسلطان فى المغرب العربى هو المخزن ، مخزن الغلال • العجوز أكثر خبرة من الشباب ، والمـاضى اكبر قيمة من الحاضر • نتحسر على الماضى الذى ولى ، ونندم على الحاضر الذى أتى • العصر الذهبى فى الماضى نود اللحاق به ، عصر الخلفاء الراشدين ، والعصر الحاضر فى هذا الزمن الردىء نلعنه ونديته ونتنصل منه • مع أن القديم لفظ اشتباهى يعنى ما قدم عليه العهد • وفى نفس الوقت يعنى ما يتقدم الى الامام بالمعنى الحديث • فالتقدم قد يكون الى الوراء وقد يكون الى الامام ، قد يكون عودا الى الماضى ، وقد يكون استباقا للمستقبل •

ومع ذلك هناك الولع الشديد بالموضة وآخر الصيحات كفقاعات الهواء وكنتوءات وبروزات متناثرة • نداقع عن الشعر الجديد ضد الشعر القديم ، ونؤيد الأدباء الشبان ، ونشجع الشعراء الشبـان ، ونأخذ صف الشباب فى معارك الأجيال • نحب الجديد فى الثقافة ، ويعرض المثقف آخر المذاهب الفـكرية ، ويسـتعرض آخر التيـارات الادبية والفنية دون وعى بالقديم ودون تطوير له • وتكون النتيجـة احيانا ازدواجية الوعى القومى بين قديم تقليدى وجديد منقول • يبدو ذلك بوضوح فى مناهج التعليم وفى تكوين السلوك وفى أساليب البناء والمعمار • لم تسلم الاحياء القديمة من نتوءات جديدة • ولم تخل الاحياء الجديدة من بروزات قديمة • ويتحـول الأمـر فى الفكر والسياسة من مجرد تجاور الى عداء مستحكم •

ويمكن تجاوز هذين النقيضين عن طريق الانتقال من القديم الى الجديد انتقالا طبيعيا متصلا ٠ فلا جديد بلا قديم اذا أردنا الأصالة دون التقليد ٠ ولا قديم بلا جديد ان أردنا التطوير دون التحجر والتقوقع على الذات ٠ واذا كان القدم احدى صفات الذات الالهية فان الابداع أحد اسمائها ٠

١٢ ـ قدرية المصير والبطولة الفردية : وفى وجداننا القومى نتصور التاريخ وكأنه يسير طبقا لخطة مسبقة وقدر محتوم ٠ « لك يوم يا ظالم » ، وأن الانسان لايستطيع أن يغير من الواقع شيئا ٠ هناك يد تحركه وتتحكم فى مساره ، عادلة وواعية ، تأخذ للانسان حقه وتقتص من ظالمه ٠ وعلى الظالم تدور الدوائر ٠ والشواهد كثيرة فى الماضى ٠ وفى قصص الأنبياء هلاك عاد وثمود ، وهلاك قوم نوح وآل فرعون ، قد يعطى ذلك نوعا من التفائل والثقة بالحق ولكنه فى نفس الوقت يطيل الانتظار والترقب ، ويسلب الانسان أية قدرة على الفعل أو التدخل فى مسار التاريخ ٠

وفى نفس الوقت ، هناك انتظار للمخلص ، وتوقع لظهور البطل ، متمثلين دور الانبياء فى التاريخ ، ومعتمدين على دور الابطال فى السير الشعبية : عنترة بن شداد ، سيف بن ذى يزن ، الزناتى خليفة ٠٠ الخ ٠ يخرق البطل مسار التاريخ ، ويظهر فيه كنبع عال ينضب بعد قليل أو كبركان ثائر يخمد بعد فترة ٠ ويكون التاريخ هو مجموع هذه اللحظات ، ربط هذا القمم ، تجمع هذه الاستثناءات ٠

ويمكن تجاوز هذين النقيضين عن طريق تحقيق الفعل فى التاريخ والقيام بمبادرة تاريخية فى اللحظة التاريخية المحددة على مسار تاريخى طويل باجتماع القانون التاريخى والفعل التاريخى ٠ من اجتماع المسار التاريخى والمبادرة الانسانية يقع الحدث التاريخى ٠ البطل نفسه معبر عن احتياجات عصر ، ومتطلبات شعب ، والتاريخ لا يتعين ولا تتفجر براكينه الا فى وعى الابطال ٠ فلا التاريخ قدر ومصير ولا البطولة الفردية وحدها خالقة للأحداث ٠

كانت هذه محاولة اجتهادية خالصة لتحديد المعالم الرئيسية لوجداننا القومى • قد تكون اخطاؤها اكثر من صوابها ، وقد تكثر ظواهر أو تقل ، وقد يقع خلاف فى تلمس اسبابها وطرق علاجها • ولكن تظل الابعاد الرئيسية للوجدان القومى قائمة بصرف النظر عن طرق تناولها •

وقد تكون عموميات وأحكام تنقصها الدقة والتحليلات الجزئية • ولكن القصد منها اثارة الموضوع ، وتنبيه الأذهان • قد يصل الوضوح فيها الى حد السذاجة ولكن غياب الرؤية الواضحة هو فى نفس الوقت تعالم وهروب ، وتشدق بالنظريات ، تعمية للواقع ، وتغليفا له وتحويرا للموضوع ، وتبخيرا له •

وواضح أن التراث الدينى هو المكون الرئيسى للوجدان القومى كما أنه الرافد الأساسى فى الثقافة الوطنية ، والباعث الرئيسى فى السلوك القومى • وهذا حكم واقع وليس حكم قيمة ، اقرار بواقع وليس رغبة وتمن واختيار شخصى • منه يأتى الايجاب والسلب ، ومنه يخرج النقيضان • وهو القادر أيضا على تجاوزها عن طريق التوسط الى فكر وسلوك ووجدان سوى •

وقد يقال ان مصر باستمرار هى المثال • وان الأمثلة المضروبة كلها من مصر ، ومصر لا تمثل الوجدان القومى كله • والحقيقة ان ما يحدث فى مصر فى الفكر او السلوك أو الوجدان انما يحدث أيضا فى الشعور القومى كله • فمصر ممتدة فيه • والأمثلة العامية المصرية بصرف النظر عن ذيوعها فى الوجدان القومى العربى لها مايرادفها فيه • كما أن التراث الدينى عامل مشترك بين مصر والأمة العربية يجمع بينهما فى وجدان قومى واحد •

فان قيل : ان كل هذا الوصف للوجدان القومى انما هو وصف لظروف معينة حدثت فى جيلنا ولكن الوجدان القومى أعم منها وأشمل ، وأعمق منها واكثر استقلالا • قد يتأثر بهذه الظروف وقد لا يتأثر •

وعلى اكثر تقدير هى ظروف مؤقتة وليست سمات دائمة يتم بهـا تشخيص وجداننا القومى • والحقيقة أنه نظر لطول دوام هذه الظروف واستمرارها أصبحت واقعا اجتماعيا وتاريخيا مستديما ، وانعكست على الشخصية القومية فى الفكر والسلوك والوجدان ، وتحولت الى سمات فيها تظهر فى صور مختلفة ، وتكون انطباعا عاما لدى المفكرين والأدباء • وقد يكون المحك الأخير مدى اشـتراك الأخرين فى نفس التجـارب الموصوفة التى من خلالها يوصف الفـكر القومى والسـلوك القومى والوجدان القومى • فلعل التجربة المشـتركة تكون الضـامن لصدق الوصف وان تفاوتت طرق التعبير •

المقومات الثقافيــة للشــخصية العربيــة

أولا : مقـــدمة :

ما زال موضوع « الشخصية القومية » موضع بحث فى العــلوم الانسانية خاصة علوم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا الحضارية ، ومازالت نتائجه مزيجا من الأيديولوجية والعلم ، من الافكار المسـبقة والتحليل العلمى الموضوعى ، وما زالت أحكامه تتفـاوت بين العموم والخصوص ، فما ينطبق منهـا على الكل قـد لا ينطبق على الجـزء ، وما ينطبق على الأفراد قد يستحيل تعميمه على المجموعات • ولما كان يصعب اتباع منهج استقرائى كلى تام نظرا لاستحالة استقراء جميع أفراد الجنس شانه اكتفى اما بمنهج الملاحظة الخارجية أو تلك التى تقوم على المشاركة لبعض النماذج والافراد أو بدراسة عينات فردية ممثلة للمجموع •

وقد ظهر موضوع الشخصية القومية فى أوربا فى القرن التاسع عشر ابان المد الاستعمارى من أجل صياغة نظريات التفوق العنصرى الغربى فى مقابل نظريات الانحطاط والتخلف التى تتسم بها الشعوب المستعمرة ، نظريات التفوق الآدى فى مقابل الانحطاط الســامى ، أو التفوق الجرمانى فى مقابل قوميات سلافية أو رومانية أو كلتيــة أو أنجلوسكسونية أقل منها ، بل قد تحولت هذه النظريات الى أيديولوجيات سياسية وأنظمة للحكم أدت الى حروب طاحنة داخل أوربا وخارجها الى آخر ما هو معروف فى تاريخ أوربا النازية والفاشية •

ولكن فى نفس الوقت ظهر حديث آخر عن الشخصية القومية داخل أوربا وخارجها كدافع للتحرر من الاستعمار ، فالحفــاظ على الطــابع القومى للثقافة أحد مظاهر التحرر • ومن ثم كان المقوم الثقافى شرط التحرر • تشير الثقافة الى الجانب المعنوى أو الفكرى فى الشخصية

(*) القى هذا البحث فى احدى ندوات المجلس القومى للثقافة العربية التى عقدت فى طرابلس الغرب بالجماهيرية الليبية عام ١٩٨٤ •

القومية في مقابل الجانب العملي الذي ينتج من الظروف والعوامل الموضوعية المادية الحاملة للشخصية القومية • وقد ظهر ذلك بوضوح لدى فشته في « نداءات الى الأمة الألمانية » عندما لجأ الى الثقافة واللغة والحضارة والفلسفة والفن والعلم والتاريخ •• الخ كمقوم أساسي للشخصية الألمانية تساعد على بقائها ومقاومتها للمحتل الأجنبي الممثل في نابليون • فإذا أمكن احتلال الأرض فانه لا يمكن احتلال الروح أي الثقافة •

وقد كثر الحديث في حياتنا المعاصرة أثر الهزائم المتلاحقة خاصة بعد هزيمة « حزيران » يونيو ١٩٦٧ ، صراعا من أجل البقاء • وما زال الحديث قائما كرد فعل تاريخي على شمولية الدولة العثمانية وعجزها عن صهر القوميات في اطار وحدة ايديولوجية شاملة ، وظهور القومية العربية كبديل للدولة الاسلامية وكرد فعل على القومية الطورانية وحركة التتريك • وبعد هزائم العرب المتتالية في مواجهة العدو الصهيوني ، وبعد صياغة حركة القومية العربية ابان المد الناصري ، وفي مواجهة التغريب • استمر الحديث عن الشخصية العربية حفاظا على الهوية ، وبالتالي كانت مقاومة الغزو الثقافي أحد مطالبنا القومية •

وفي كل شخصية قومية عنصران : عنصر دائم وثابت يكون أقرب الى الهوية والفكر ، وعنصر متغير ومتحول يكون أقرب الى الاكتساب والممارسة • الأول يحدد معالم الشخصية ، يعطيها رؤيتها للعالم . ويحدد أهدافها البعيدة ، ويساعدها الثاني على التأقلم مع الظروف السياسية والاجتماعية والمراحل التاريخية • والمقومات الثقافية من النوع الأول أي العنصر الثابت الدائم الذي لا يتغير ، وان تعددت مظاهره وصيغه وأشكاله وممارساته طبقا لظروف كل عصر • ويمكن رصد العنصرين بسهولة • فيمكن استقراء بعض عناصر الثبات في الشخصية القومية عبر التاريخ خاصة اذا كانت تتحدد بماهيات أو بموضوعات مثالية • كما يمكن التعرف على الظروف التاريخية التي تجعل الشخصية القومية ترتكن على جانب أو آخر من جوانبها الثقافية •

والشخصية « العربية » ممتدة عبر التاريخ • فهي ليست وليدة القومية العربية كحركة سياسية معاصرة بل هي ممتـدة حتى قبيـل الاسلام فى الجزيرة العربية ، تظهر فى الشعر الجاهلى كما تظهر فى القرآن • بل انها ممتدة الى ما وراء الجاهلية ، الى حضارات ما بين النهرين ، حضارات الشرق الأوسط القديم ، وتكون رافدا أساسيا لها مثل حضارة مصر القديمة ، وحضارات آشـور وبابل • تنتسب الى حمورابى قدر انتسابها الى ابراهيم ، وترجع الى اخناتون قدر رجوعها الى موسى • وما القرآن الا أحد مراحل صياغاتهـا الثقافيـة ، وما الاسلام الا أحد أشكال تعبيرها • ومن ثم فلا تعارض فيها بين الشخصية العربية والشخصية الاسلامية ، فالاسلام قلب العروبة ، والعروبة جسد الاسلام ، الاسلام هو المقوم الثقافى ، والعروبة هو الحامل التاريخى • هذا التعارض نشأ من التغريب وانطلق من ظرف تاريخى طارىء مرت به أوربا ، وهو التعارض فى الشخصية القوميـة بين مقوماتها الثقافيـة وحواملها التاريخية •

ولما كان التوحيد هو جوهر الاسلام وعقيدته الأولى كان التوحيد هو المقوم الرئيسى لهذه الشخصية العربية التى ليس لها مقوم ثقافى آخر الا هذا التوحيد • ولا يعنى التوحيد هنا مجرد عقيدة دينية دعا اليها الأنبياء بل التوحيد تصور للعالم ، وموجه للسلوك • يقوم على مبادىء نظرية عامة لا ترتبط بجنس أو بشعب أو بمرحلة تاريخيـة محددة أو بمكان وزمان معنيين • التوحيد مبـدأ ميتافيزيقى يجعـل الانسان يرى كل شىء بعين الوحدة دون التشتت والتضارب والاختلاف • التوحيد مبدأ كونى يفسر نشأة العالم وتطوره ونهايته ، ومبدأ معرفى يضع للانسان نظرية فى المعرفة تجمع بين الحس والعقل والوجدان ، ومبدأ جمالى يجعل الانسان يعيش فى العالم شاعرا مدركا للجمال كبعد للحقيقة ، ومبدأ اخلاقى يظهر فى وحدة الشخصية والعمل الصالح ، ومبدأ اجتماعى يؤسس المجتمع على العدالة الاجتماعية والمساواة ، وبدأ سياسى يضع نظـاما يقوم على الحرية والشـورى واسـتقلال المؤسسات والرقابة الشعبية •

التوحيد اذن فى كل مظاهره مبدأ وجدانى ، يظهر فى شعور الفرد والجماعة ، وبالتالى فهو أقرب الى التجربة المشتركة والخبرة المعاشة ، يعطى بناء شعوريا للعالم • ولذلك كان أقرب المناهج لوصفه هو المنهج الشعورى الذى يمكن بواسطته تحليل هذه التجربة التى يشارك فيهـا الجميع باعتبارهم عربا ومثقفين ، وهى تجربة واضحة يمكن أدراكهـا بوضوح ، لا تحتاج الى وقائع مادية بقـدر ما تحتـاج الى حدس للماهيات ، ورؤية مباشرة للموضـوع • ولكن التوحيـد أيضا وظيفة عملية تظهر فى شعور الانسان وفى البيئة الاجتماعية ، ولا يشير الى كائن مشخص بل ترتبط الوظيفة بارادة الانسان الحرة ، وبوعيـه بحركة التاريخ ، وقدرته على تحريك الشعوب • ومن ثم يظهر التوحيد كفعل أو يتوارى كامكانية طبقا لفعل الانسان المستقل وارادته الحرة وقيادته للجماهير • يكون فى حالة ظهور أو كمون ، فعل أو انفعال ، اقدام أم احجام ، تقدم أو نكوص ، امتداد أو ضمور ، اتساع أو انكماش • وهو فى كلتا الحالتين موجود اما بالفعل أو بالقوة كما يقول القدماء سواء على مستوى الفرد أو مستوى الجماعة أو مستوى التاريخ • التوحيد اذن له لحظتان ، لحظة تقدم ولحظة تخلف ، لحظة نهوض ولحظة انهيار • فاذا كانت حضارتنا القديمة تمثل اللحظة الاولى فان وجداننا المعاصر قد يمثل اللحظة الثانية ومحاولة تجاوزنا وتحولها الى اللحظة الأولى من جديد • وهذا هو معنى عصر النهضة الذى نعيش فيه •

ثانيا : المبدأ المتيافيزيقى •

التوحيد مبدأ متيافيزيقى يجعل الانسان قادرا على رؤية كل شىء بعين الوحدة دون ما تشتت أو تضارب أو اختلاف أو شقاق • فالانسان وحدة واحدة لا تضارب فيه ولا صراع بين مقتضيات الروح ومطالب البدن ، والمجتمع وحدة واحدة لاطبقات فيه ، والانسانية وحدة واحدة لا وجود فيها لشعب مختار مفضل على سائر الشعوب ، له كل شىء ، وليس للشعوب الأخرى أى شىء • وغاية الانسانية واحدة لا تضارب فيها ولا أهواء • فالوحدة كمبدأ متيافيزيقى ليست مبدأ مجردا بل

هو تصور للعالم يظهر فى الانسان وفى المجتمع وفى التاريخ وفى الكون • تبدو مظاهر الوحدة فى كل شىء ، فى الذهن وفى الواقع ، فى الداخل وفى الخارج ، فى الانسان وفى العالم • فمعارف الانسان الحسية والعقلية والوجدانية تجتمع كلها لاثبات شىء واحد ، والعلوم كلها تبحث حقيقة واحدة ، وكل العلوم يمكن ردها الى موضوع واحد ، والمبادىء العقلية العامة يمكن ردها كلها الى مبدأ واحد هو مبدأ الهوية ، وموضوعات الحساب كلها ترد الى الواحد الرياضى ، وموضوعات الهندسة كلها ترد الى النقطة الرياضية ، والموسيقى تقوم على قياس الوحدة الزمنية ، وعلم الطبيعة يقوم على حساب الذرة والجزئيات • والأديان واحدة ، ورسالات الأنبياء واحدة ، والتاريخ البشرى واحد ، يكشف عن حقيقة واحدة ، ويحكمه قانون واحد • الوحدة أصل كل شىء ومنتهى كل شىء • لا يفسر العالم بالاثنينية أو بالتثليث أو بالكثرة اللامتناهية • فالاثنينية ترجع الى الوحدة اذ لا يمكن أن يتساوى الطرفان فى الاثنين والا كانا واحدا • والكثرة ذاتها ترد الى الوحدة لأنها تكرار للواحد الى مالا نهاية • وقد كانت كل النظريات والايديولوجيات الانسانية التى أثرت فى التاريخ ، كانت كلها تقوم على الوحدة •

ولما كانت الوحدة مانعة من التفرق والاختلاف وحارسة من الوقوع فى الفتن والحروب والصراعات الدموية ، كانت أقدر الى الجمع بين الاطراف ، والتوفيق بين المصالح دون ما تنازل عن حق الوحدة الشاملة على الجميع • ومع ذلك فالوحدة لا تمنع من التعدد والكثرة مثل تعدد اللغات والاجناس ، وتعدد الآراء والاجتهادات ، ولكنه تعدد فى اطار الوحدة • فتعدد اللغات والاجناس لا يمنع من التفاهم والتعاون المشترك « يأيها الناس ، انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا •• » (٤٩ : ١٣) • وتعدد الآراء والاجتهادات لايمنع من وحدة الحقيقة النظرية ، ووحدة الغاية والهدف •

وقد قامت الحضارة الاسلامية على هذه الوحدة ، وحدة الحقيقة واختلاف الفرق ، وحدة الأصول واختلاف الفروع ، وحدة الأمة

واختلاف الأمصار ، وحدة التاريخ واختلاف المراحل ، وحدة الشريعة واختلاف المذاهب ، وحدة العقيدة واختلاف التفسيرات ... الخ . بل ان الحضارة الاسلامية كلها قد قامت ابتداء من نقطة مركزية واحدة هو الوحى تنبثق منه العلوم كدوائر متداخلة (الكلام والفلسفة) أو كمحاور متبادلة للتنزيل والتأويل (الأصول والتصوف) . وقد ظهرت الوحدة بوجه خاص فى علم أصول الدين كتوحيد فى العقيدة وفى علوم التصوف فى وحدة الشهود ، ووحدة الوجود ، والوحدة المطلقة .

ولكن عندما ضمر التوحيد كمبدأ متيافيزيقى ظهر التشتت والتشرذم ، وتضاربت الأهواء ، وعمت الفتن ، وتطايرت الرقاب ، وكفرت كل فرقة الفرق الأخرى ، واعتبر كل مذهب نفسه هو الحق ودونه من المذاهب باطلة . فضاعت الوحدة ، وانقلب التعدد الى تشتت ، وتحول الخلاف الى اختلاف . ومظاهر التشتت كثيرة فى حياتنا الخاصة والعامة ، فى التعليم بين التعليم الدينى والتعليم العلمانى ، بين التعليم الوطنى والتعليم الأجنبى ، بين التعليم العام والتعليم الخاص . كما بدا فى الوجهات والمقاصد ، فهذا شرقى وذاك غربى ، وهذا اشتراكى وذاك رأسمالى ، وهذا قومى والآخر اسلامى ، وأنا وطنى وهو عميل ، ونحن المناضلون وهم الخونة .

وان بقت الوحدة ، فهى وحدة الزعامة الفردية المطلقة التى تجب ما عداها ، وتبتلع ما سواها ، وتقهر ما دونها . فهناك الزعيم الملهم ، والمجاهد الأكبر ، والسيد الرئيس ، والقائد المظفر . فهى وحدة فردية تسلطية ، تمنع التعدد والخلاف فى الرأى ، وترفض الاجتهاد ، وتأبى المراجعة ، أو تبقى الوحدة كوحدة فى الشعارات عن القومية والحرية والاشتراكية والوحدة ، ومفاهيم النضال والتحرير والمقاومة نسمعها فى كل مكان ، وتضج بها كل أجهزة الاعلام ، وفى نفس الوقت يقتتل الفرقاء ، وتتصارع الطوائف ، وتتفتت الأمة ، ويتكالب عليها الاعداء .

ومع ذلك ، تبقى الوحدة هدفا قوميا ، ومطلبا شعبيا ، وغاية ومقصدا . تحرك الجماهير ، تفرح لوجودها ، وتسعى لتحقيقها ،

وتحزن لفراقها ، وتتألم لضياعها • هذه الوحدة كمبدأ فلسفي عــام ما زال ضامرا في شعور الناس ، يحركهم لاشعوريا ، وقادر ، اذا ما تحول الى الشعور ، أن يقضي على التشرذم والتفتت وان يوحد أوصال الأمة ، ويوحدها من جديد •

ثالثا : المبدأ الكوني •

والتوحيد مبدأ كوني يفسر نشأة العالم وتطوره ونهايته • التوحيد بداية العالم ، مبدأ أولي كوني ، بداية مطلقة ليس قبلها بداية أخرى • وهو مساوق لتطور العالم ، لا يغيب عنه ، يسايره ويحاذيه • وهــو نهاية العالم وغايته ، يبقى بعد فنائه ، ويستمر في البقاء الى ما لانهاية • يقوم هذا المبدأ الكوني اذن بالربط بين الانسان والعالم ، يجعل موقف الانسان في العالم واضحا لا غربة فيه ولا تشكك • يقدم له تفســيرا لنشأة العالم على نحو مبدئي بحيث يكون التفسير أقرب الى البداية المطلقة منه الى البداية النسبية أو أقرب الى الانفصال الكيفي منه الى الاتصال الكمي ، وهي نظرية « الخلق من عدم » المشهورة في الفكر الكوني التي تشير الى البداية الجديدة المطلقة والى خروج الشيء من اللاشيء مما يعطي الانسان القدرة على الخلق والنموذج للابداع • وعلى هذا النحو ، لا يكون الوجود مبعثا على الاحساس بالغثيان ، ووجودا منبثقا من عدم ، دون مبرر أو أساس ، ودون فهم أو ادراك • وبالتالي تجعل النظرية الانسان أكثر قدرة على فهم الوجود والتعــامل معه • فالوجود له مبرر ، وليس مجرد انبثاق من عدم ، يقوم على عــدم ، وينتهي الى عدم ، وكأن العدم هو الأساس ، والوجود هو المظهر • كما يجعل هذا المبدأ الكوني الانسان أبعد عن الشك والحيرة فيما يتعلق بنشأة الكون بين النظريات العلمية المختلفة التي تحاول كلها صــياغة نظرية تقوم على الاتصال الكمي دون التمايز الكيفي ، وبالتالي يقدر الانسان على أن يأخذ منها جميعا موقفا ، وعلى اعطاء البديل الآخر كما يساعد الانسان على اكتشاف قوانين التطور الداخلي في الوجود بعد نشأته ، والتعرف عليها ومسايرتها ، والسيطرة عليها والاتحاد بها •

فالانسان حال فى التاريخ ، وجزء من حركته ، وبالتالى يذهب عنه أى عجز عن مواجهة الواقع . كما يساعد المبدأ الكونى الانسان على التنبؤ بالمستقبل بعد معرفة قوانين التطور ، وادراك المستقبل طبقا لهـا ، وبالتالى يغيب عنه الخوف من المجهول ، بل يصبح المجهول لديه معلوما . كما أنه يمنع من تصور الكون على أنه مادة خالصة اذ أن الكون مادة وصورة ، وبالتالى يحمى الانســان من التجريبيــة الخالصــة ، ومن الصورية الخالصة ، وهما عنصر العلم . ومن ثم لا يتأزم العلم بفقدانه أحد عنصرية كما حدث فى الوعى الأوربى . كما يجعل الانسان مرتبطا بالطبيعة وملتصقا بها ، فالطبيعة قريبة من المبدأ ، والمبــدأ قريب من الطبيعة ، وبالتالى ينشأ العلم بتوجه الانسان نحو الطبيعة . كما أنه يجعل الانسان عاملا فى الطبيعة ، مؤثرا فى الكون ، مثبتا للعالم ، غير زاهد فيه أو ناكر له .

وقد ظهر هذا المبدأ الكونى فى الحضارة الاسلامية فنشأ العلم ، وسيطر القدماء على قوانين الطبيعة ، وأوجدوا أنفسهم فى العالم ، ودخلوا التاريخ . وأصبحت مهمتنا نحن التعرف على العلم العربى نبعثه من جديد بعد أن ترجمه الغرب وطوره وأنشأ العلم الحديث . فقد نشأ العلم العربى على هذا المبدأ الكونى الذى كان موجها لذهن العلماء نحو الطبيعة .

ولكن لما ضاع هذا التصور ، التوحيد كمبدأ كونى ، وانهــارت الحضارة العربية الاسلامية مؤقتا ، وتوارى المبدأ تحول التوحيد الى عقيدة خلق العالم على أسس تشبيهية ، فأصبح الله صانعا ، يخلق من عدم ، ويخرج الشىء من الشىء كما يفعل السحرة والحواة دون تمثل هذا الخلق فى علاقة الانسان بالكون . ثم تصورنا العالم على أنه فان ، زائل ، هراء ،هباء منثور ، لا قوام له ولا قانون بفضل حدوث العالم الذى حولناه من مستوى العمل ، أى أن العالم طيع للارادة الانسانية ، الى مستوى النظر أى غياب القانون كما حدث عند الأشاعرة . كما تصورنا العالم على أنه روح ، وذرات ، ومعانى . فتبخرت المادة ،

وأصبح العالم هو الله ، والله هو العالم كما فعل الصوفية • أو تصورنا العالم يفيض عن الله ، ويتدرج منه ولكنه أقل منه ، وبالتالي صغر العالم وقلت قيمته كما فعل الفلاسفة • ومع ذلك ، ظهر التوحيد كمبدأ كوني في الاعتزال ، عند الطبائعيين ، فأثبت المعتزلة قوانين الطبيعة ، واستقلال العالم • وبعد اضطهاد المعتزلة وسيطرة الاشعرية المزدوجة بالتصوف توارى هذا التصور من وجداننا المعاصر ، وانزوى في المخزون الثقافي اللاشعوري •

ومن ثم يمكن للتوحيد كمبدأ كوني ايجاد الصلة بين الله والعالم من خلال شعور الانسان ، وتجاوز مرحلة الكمون الى مرحلة الظهور ، والعودة الى وظيفة التوحيد الأولى التي على أساسها قامت الحضارة الاسلامية في دورتها الأولى ، وانهاء ضمور التوحيد في القرون الأخيرة واسقاط العالم من الحساب حتى سلب منا واستولى عليه الغير • ويظل التوحيد كمبدأ كوني أحد مقومات الشخصية العربية الاسلامية •

رابعا : المبدأ المعرفي •

والتوحيد مبدأ معرفي يعطى الذهن البشرى موقفا معرفيا محددا من العالم يقوم على وجود حقيقة ثابتة ودائمة • وبالتالى يحمى الانسان من الموقف العدمى الذى يجعل العدم أساس الوجود • وهى حقيقة يمكن معرفتها بوسائل المعرفة الانسانية الحسية والعقلية والوجدانية والتاريخية المشروطة بالحس والعقل والوجدان ، وبالتالى تحمى الانسان من الوقوع فى الشك واللاأدرية • ويمكن معرفتها بيقين ويتفق الناس عليها وتتواتر معارفهم فيها وبالتالى تحمى الانسان كذلك من الوقوع فى النسبية • والتوحيد بهذا المعنى يعنى أن هذا العالم مفهوم ، وأنه يقوم على تصور يمكن للانسان ادراكه وبالتالى يحمى الانسان من الوقوع فى اللامعقول والتناقض كمرادفين للوجود • والتوحيد على هذا النحو بحث مستمر عن الحقيقة دون توقف • ولما كان مبدأ منزها لا تشبيه فيه كان البحث دائبا ومستمرا عن

الخالص الصورى المجرد ، مطمع العلماء والفلاسفة ، وكلما انتهى الذهن الى صيغة تجاوزها الى صيغة أخرى حتى لايقع فى التشبيه والتوحيد بين المعنى واللفظ أو بين الماهية وحاملها أو بين الموضوع واشكال تعبيره • التوحيد بهذا المعنى تقدم مستمر للعلم ، وبحث دائب عن الحقيقة ، ورفض للوقوع فى القطعية والمذهبية والانتهاء الى الرأى الأخير النهائى فى كل شىء ، ومنع للتقليد ، ودفع على الابداع والابتكار واعمال للاجتهاد •

وقد ظهر هذا المبدأ المعرفى فى حضارتنا القومية خاصة فى علم أصول الفقه ، وتأسيس مناهج الاستنباط والاستقراء فى القياس الشرعى ، ووضع شروط التواتر فى علوم الحديث • كما ظهر فى علم أصول الدين فى اعتبار المعرفة الحسية والعقلية والوجدانية كأساس لموضوعات الايمان ولفهم النص • وأصبحت مادة العلم تأتى من الأوليات والبديهيات والمحسوسات والمجربات ، والمشاهدات ، والمتواترات • وظهر العقل أساسا للنقل عند المعتزلة ، والحس ومجرى العادات كمقياس لليقين عند الفقهاء ، والتجربة الوجدانية كموطن للمعارف والحقائق عند الصوفية • كما استبعدت علوم القدماء الشك والوهم والظن والاعتقاد وتكافؤ الأدلة كمواقف معرفية • وأصبح البرهان هو طريق المعرفة • ومالا دليل عليه يجب نفيه • بل يمكن أن يقال ان الحضارة الاسلامية القديمة كانت حضارة العقل ، وأصبحت نموذجا يهتدى به فى العصر الوسيط المتأخر الأوربى ، ونشأ بفضلها التيار العقلانى الأوربى الذى مهد لبداية عصر النهضة ونشأة الفلسفة الحديثة •

ولما توقفت الحضارة الاسلامية وبدأت فى الانحسار ، وضمر التوحيد فى وجداننا غابت المعرفة عن كونها وعيا بالعالم ، وأصبحنا ننظر الى العالم وكأنه غير معروف ، وسقط الرباط المعرفى بيننا وبين العالم فعشنا كأشياء فى عالم الاشياء دون أى أساس معرفى للشىء نفسه • كما ضاع ايمان البعض منا بوجود حقيقة ثابتة ، ووقع فى اللا أدرية والنسبية

والشك ، يقوى ذلك فيه اثر المذاهب الغربية المماثلة بالرغم من اختلاف الظروف والمعطيات • ثم انزوى هـذا المبدأ المعرفى وتحجر فوقعنـا فى التشخيص والتشبيه ، وتحولت العلاقة المعرفية بين الذهن وموضوعه الى علاقة تبعية بين الانسان والله ، فالانسان يسأل والله يجيب ، والانسان يدعو والله يستجيب • كما تحول التنزيه باعتباره تقـدما مستمرا للعلم الى قطعية وثبوت وتقليـد ، وتمت صياغة العقـائد الخمسين صياغة نهائية والتى على كل مسلم أن يؤمن بها ، اثنـان وأربعون فى الله ، وثمانيـة فى الرسـول ! توقف الاجتهـاد ، وعم التقليد ، وانتهى الابداع ، وساد الاتباع • كمـا قضى على المعرفـة الحسية ومجرى العادات ، وشهادة الواقع كأساس لصدق الوحى ، ولم تعد هناك ثقة بشهادة الحواس وكأنها خداع ووهم • كما قضى على المعرفة العقلية ، ولم يعد العقل أساس النقل ، وظهر اللامعقول فى حياتنا ، وسـاد اللامفهوم فى صورة ايمـان قلبى • كما تحولت التجربة الوجدانية الى تجربة صوفية خالصة مناقضة لشهادة الحس ولحكم العقل ، فسادت الغيبيات ، وأصبح الالهام طريقـا وحيـدا للمعرفة ، لا يربطه رابط ، ولايحده حد • ولم تعد المعرفة المتواترة مشروطة بصدق شهـادة الحس ومنطق العقل بل أصبحت اقرب الى أخبار الآحاد تعتمد على الرواية وصدقها الخارجى المظنون • ومع ذلك يظل التوحيد فى وجدان الناس حـافظا لتصورهم للعالم ومؤكدا على شهادة الحس وحكم العقل وبداهة الوجدان •

خامسا : المبدأ الجمالى •

والتوحيد مبدأ اجمالى يجعل الجمال بعدا للحقيقة سواء فى ادراكها أو فى التعبير عنها • وقد ظهر ذلك فى الشعر العربى قبل الاسلام ، وكيف أنه كان سجلا قوميا للعرب ، يضعون فيه حكمتهم وعرفهم ، يظهرون فيه ابداعهم وتصورهم للحياة • وكما قال عمر بن الخطاب « عليكم بشعر جاهليتكم ، فان فيه تفسير كتابكم » • ثم نزل الوحى مستعملا الصور الفنية كوسيلة للتعبير ، ولايضاح المعانى ، وللتأثير على النفوس ،

ولاقناع الخاصة والعامة • فالتقى العقل بالحس بالوجدان لفهم الواقع وتصويره وادراكه بالحس • فاحدث ذلك أبلغ الأثر فى النفوس ، وآمن الناس ، واتصلت حياتهم الماضية بالحاضرة • وكما تذوقوا الشعر الجاهلى فهموا الوحى الاسلامى • وتمت صياغة نظرية « التخييل » عند عبد القاهر الجرجانى يعبر بها عن جماليات الذوق العربى سواء فى الشعر أو فى الوحى • وقد تم التركيز فى جيلنا على هذا الجانب التصويرى كما هو واضح لدى سيد قطب[1] •

وقد ظهر هذا البعد الجمالى فى الفن العربى ، فن الزخرفة ، سواء بالحروف العربية أو بالاشكال الهندسية • ظهرت جماليات الخط العربى بأنواعه المختلفة حتى أصبح الكلام ليس فقط صفة لله أو أحد مظاهر الطاقة الانسانية بل أيضا ابداعا جماليا للانسان • وتوالت الاشكال الهندسية تعبر عن اللانهائى فى الروح ، وتتحد فيها الطبيعة بالفن • واستطاع الانسان ان يتصور اللانهائية من خلال الخطوط الهندسية اللانهائية • وبالتالى حفظ البعد الجمالى الشعور من الوقوع فى التشبيه والتجسيم وفى ثبات ومحدودية الفنون التشكيلية •

وتأسست العمارة العربية على نقل جمال الطبيعة الى جمال الفن ، فكان صحن الدار قطعة غناء من الطبيعة بها الماء والخضرة والهواء ، تطلع عليه الشمس ، وتسرى فيه النسمات ، ويستقبل الضوء والهواء ، وتدور حول الصحن أعمدة النخيل الرخامى فوقها أقواس كالجذوع ، وتتدلى من السقوف الثريا كالطلوع • كما أدرك الصوفية جمال الطبيعة وصوروا آياتها وصاغوا القول المشهور « ان الله جميل يحب الجمال » تفسيرا لأية « ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك » (٣ : ١٩) ، وتعبيرا عن آية « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » (١٦ : ٦) • وكان الجمال أحد أسماء الله الحسنى • وغنى الصوفية فى اشعارهم جمال الكون تعبيرا عن الجمال الالهى • وكانت المدينة العربية القديمة

---

(١) أنظر دراستنا : أثر الشهيد سيد قطب على الحركات الاسلامية المعاصرة ، الجزء الخامس : الحركات الاسلامية المعاصرة •

بأسوارها ومسجدها الكبير وحماماتها نموذجـا للمدينة المتكاملة التى تدور حول مركز تجتمع فيه شئون الدين والدنيا • وكانت بأســوارها وقلاعها وحصونها وحامياتها نموذجا للدفاع طبقا لمستوى العصر •

ولما ضمر التوحيد فى النفوس وانزوى فى القلوب انهارت الحضارة العربية الاسلامية • فخبا هذا البعد الجمالى ، وتحولت الصور الفنية الى وقائع حسية ، ووقعنا فى التفسير الحرفى المـادى للنصوص • وبالتالى تحولت الحقائق الى أطماع ورغبات مستقبلية تعبيرا عن الحرمان بدلا من تأثيرها فى النفوس واقناعها للاذهان فى الحاضر • كمـا تحول الفن العربى الى فن متحفى لايزوره أحد ، من بقايا العهود الغابرة ، يعجب من يراه بالقدماء اكثر مما يبعث فى المحدثين من جمال أو يهتم به كمظهر فنى خالص دون أن يدرك ميتافيزيقاه أو يحـــدث أثره فى الاحساس بالتنزيه والتالى واللانهائية • وضاع من وجداننا فن العمارة العربى • وحولناه الى كهوف حديثة ، وعلب مغلقة لا منافذ لها ولا مخـــارج ، هواؤها مصطنع ، وضوؤها مصطنع ، ملساء جرداء ووقعنا تحت أثر التغريب • كما اسقطنا البعد الجمالى من الطبيعـــة وحولناها الى مكان للنفايات البشرية حتى تعودنا على القبح • وغابت المساحة الخضراء ، وينابيع المياه ، وانتهى التخطيط المستدير للمدينة حول القلب الى خطوط متقاطعة لارابط بينها ، يتباعد سكانها ، كل جماعة فى طريق • ولكن لما كان ادراك الجمال مستقلا عن القدرات المادية ، فالادراك الجمالى ليس مكلفا ، تكفيه أبسط المظاهر ، وقد يؤدى الغنى الى القبح ، ويبعد عن الجمال ـــ لما كان الأمر كذلك ظل هذا البعد الجمـــالى كامنا فى الوجدان العربى ، حيا فى أحلك الظروف ، وان غاب ادراكه فى العالم أو عجز عن التأثير فيه •

سادسا : المبدأ الأخلاقى •

والتوحيد مبدأ اخلاقى يعطى الشعور بناء توحيديا خالصا • فاذا كانت طاقات الشعور وأشكال تعبيره أربعة : الفكر ، والوجدان ، والقول ، والعمل فان التوحيد يقوم بتوحيد هذه الطاقات الأربعة ليكون وحدة

الشخصية الانسانية وبالتالي يمحي خطر الفصال بين الفكر والوجدان الذى يولد الخوف والجبن ، أو بين الفكر والقول الذى يولد النفاق والمداهنة ، أو بين الفكر والعمل الذى يولد السلبية والعجز ، أو يحدث الفصام بين الوجدان والقول الذى يولد الثرثرة والهراء ، أو بين الوجدان والعمل الذى يولد الآلية والرتابة • أو يحدث فصام ثالث بين القول والعمل فيولد الخطابة والانشاء وبالتالي تتسرب طاقات الانسان من خلال هذه المنافذ فيضيع التوحيد كمشروع فردى وتاريخي يبدأ من شعور الفرد حتى يضم التاريخ الانسانى كله • يخلق التوحيد اذن وحدة الشخصية حيث يتوحد الفكر والوجدان فيولد الصدق ، والفكر والقول فيولد الصراحة ، والفكر والعمل فيولد القوة • كما يوحد بين الوجدان والقول فيولد الجرأة ، وبين الوجدان والعمل فيولد المتعة والالتزام • كما يوحد بين القول والعمل فيولد الفعالية والأثر • وعلى هذا النحو تتوحد طاقات الانسان وتختزن ثم تنطلق فى مسارها الطبيعى لتغير الواقع ، وتحقق التوحيد من داخل الشعور الفردى الى خارجه فى العالم •

كما يظهر هذا التوحيد فى العمل الصالح ، وفعل الخير للناس ، وفى تحقيق الرسالة على الأرض فالايمان لا يظهر الا فى العمل الصالح كما هو واضح فى آيات « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ••• » التى تقرن الايمان بالعمل الصالح • لا يظهر التوحيد فى الشعائر أو الطقوس أو الرسوم أو المسوح أو الكهانة بل فى العمل الصالح المؤثر فى حياة الفرد والجماعة والمحرك للتاريخ • فالدنيا دار عمل ، والعمل الصالح يبقيها • والانسان خليفة الله فى الأرض ، عليه آداء الأمانة ، وهو تحقيق كلمة الله أو تنفيذ ارادته أى تحويل الوحى الى نظام للعالم • والانسان سيد الكون ولأجله تم تسخير كل شىء فى العالم ، من أجل السيطرة على قوانينه ، واستعمار الكون • وبالعمل الصالح يتحدد مستقبل الانسان وأثره فى الدنيا ، وعليه يكون الحساب طبقا لقانون العدل دون ما وساطة أو شفاعة •

وقد ظهر هذا التوحيد كمبدأ اخلاقى فى تراثنا القديم • فقد أظهر الصوفية هذه الوحدة الشاملة ابتداء من وحدة الشخصية الانسانية ومارا بوحدة الشهود ووحدة الوجود وانتهاء الى الوحدة المطلقة • كما ظهر فى أصول الفقه تحقيقا لخلافة الانسان لله فى الأرض وأداء الرسالة عليها ، وظهر فى الفلسفة وعلوم الحكمة فى أهمية العمل الصالح وفعل الخير • وظهر فى علم أصول الدين خاصة عند الخوارج واقتران العمل بالايمان وعند المعتزلة فى مبدأ العدل واقرانه بالتوحيد •

ولكن بعد أن توقفت الحضارة الاسلامية وانزوى التوحيد كمبدأ أخلاقى ظهر الفصام فى الشخصية ، وتسربت طاقاتها ، وظهر الفصل بين الفكر والوجدان فشاع الخوف ، وبين الفكر والقول فساد الجبن ، وبين الفكر والعمل فظهر العجز ، وبين الوجدان والقول فانتشر الكذب ، وبين الوجدان والعمل فنتج الاستسلام ، وبين القول والعمل فعم النفاق• وأصبح يضرب بنا المثل بالذين يقولون مالا يفعلون ، وفى نفس الوقت نقرأ « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٦١ : ٢ ــ ٣) • كما ظهر الايمان فارغا بلا مضمون ، وكأن الشهادتين كتمتمة بالشفتين تكفيان • وغابت الشهادة على العصر ، والاستشهاد من أجل قضاياه ، وأصبح ايماننا مثل ايمان العجائز • كما تحول العمل الصالح الى شعائر وطقوس ، استسهالا للايمان ، وايثارا للسلامة ، وهروبا من المعركة ، أو تسترا على العمل الفاضح الذى يؤدى الى الفساد فى الأرض • كما سادت الجوانب السلبية فى التصرف على حياتنا العامة • فزهد البعض فى الدنيا ، وتصورها دار فناء ، وأنه كراحلة أو كعابر سبيل ، فترك العمل فيها ، وتخلى عن رسالته عليها ، ورنا الى عالم آخر يعد نفسه له خارج الدنيا ، فلعله يجد تعويضا عما فاته ، ويلحق بركب الفائزين • وتم تأجيل المعارك الى يوم الحساب يفصل الله فيها كما يشاء وحيث يتأكد الفوز المبين • وتحولت قيمة الانسان الى الثروة والجاه ، أو السطوة والسلطان ، أو النسب والحسب ، أو العشيرة والقبيلة ، أو الوجاهة

والصدارة ، أو الدرجة والطبقة • وكاد يمحي من وجداننا الحديث المشهور « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى والعمل الصالح » •

ولما كان هذا الضمور فى التوحيد كمبدأ خلقى هو المسؤول عن تخلف الأمة ، فان الوعى به أحد مقومات نهضتها •

سابعا : المبـدأ الاجتماعى •

والتوحيد مبدأ اجتماعى ، عليه تقوم بنية المجتمع • فالله واحد ، والأمة واحدة « أن هـذه أمتكم أمة واحـدة ، وأنا ربكم فاعبدون » (٢١ : ٩٢) ، لافرق بين جنس وجنس ، أو قوم وقـوم ، أو شعب وشعب ، أو قبيلة وقبيلة • فالأمة مجتمع انسـانى واحـد ، يجمعه التوحيد ، ولا تفرقه الحدود الجغرافية المصطنعة أو العادات والأعراف ، أو اللغات والقوميات •

والمجتمع الواحد ، مجتمع بلا طبقات ، مجتمع المساواة الكاملة ، العمل فيه مصدر القيمة بدليل تحريم الربا • فالمال لا يولد المال من تلقاء نفسه دون توسط العمل المنتج والعرق الكادح • والعمل رسالة لتحقيق غاية عليا أو هدف قومى ، ليس غايته الربح أو الكسب المادى من أجل الثراء ، واكتناز المال • الملـكية وظيفـة اجتماعيـة وليس له حق الاستغلال أو الاحتكار أو الاضرار بالغير • فان أساء الاستعمال أو اضر بالغير كان للامام ، ممثل الأمة ، حق التدخل لحماية الصالح العام ، بانتزاع الملكية والمصـادرة والتأميم • وهـذه هى نظـرية « الاستخلاف » المشهورة فى علم الفقه ، فالمال مال الله والانسـان مستخلف فيه « وأنفقوا مما جعلناكم مستخلفين فيه » (٥٧ : ٧) • المال وديعة لدى الانسان ، أمانة أؤتمن عليها ، وعليه أداء الأمانة الى أهلها • ولا يمكن تركيز المال فى أيدى قلة والأغلبية معدمة « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٥٩ : ٧) • لا يمكن أن يظهر فى المجتمع الواحد ، أغنياء وفقراء ، فما فاض عن الحاجة أصبح لصالح الأمة « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (٧٠ : ٢٥) ، «وفى أموالهم حق

للسائل والمحروم » (٥١ : ١٩) ، وفى المال حق غير الزكاة . هذا الانتقال للثروة ممن يملك لمن لا يملك ليس مجرد دافع خلقى أو عاطفة انسانية أو صدقة ، بل هو اعادة لتوزيع الثروة طبقا لمبادىء العدالة الاجتماعية والمساواة وتذويب الفوارق بين الطبقات . ولا توجد فى المجتمع ملكية خاصة لأدوات الانتاج بل هى ملك للأمة ، كما أن انماط الانتاج تقوم على العمل المشترك والملكية العامة لقطاعات الانتاج الرئيسية مثل الزراعة (الكلأ) والصناعة (النار) والتعدين (الملح) . كل ما تنتجه الأرض من فوقها كالزراعة أو من باطنها كالمعادن ملك للأمة ، لقد عرف القدماء الذهب والفضة والنحاس والحديد فى باطن الأرض من الركاز وعرفنا نحن النفط . فلا يجوز لقبيلة أو للملك أو الأمير أو لحاكم امتلاكه وبيعه والتصرف فيه . أقام المجتمع الاسلامى الأول بنيته الاجتماعية على هذه الأسس لا فرق بين أمير وعامة ، بين حاكم ومحكوم ، وظل التوحيد هو المنبع الأول لهذه البنية الاجتماعية .

ولما خبا التوحيد كمبدأ اجتماعى ظهر الفرق الشاسع بين الاغنياء والفقراء ، بين من يملكون كل شىء وبين من لا يمكلون شيئا ، وشاعت الملكية الخاصة ، وأطلقه بلا حد أعلى للكسب وبلا حد أدنى للفقر ، وأحاط الناس أراضيهم بالاسوار ، ووضعوا على أبوابهم الاقفال ، ووضعوا ثرواتهم تحت أرقام سرية فى الخزائن والمصارف ، داخل البلاد وخارجها ، وأصبح الصالح الخاص مقدما على الصالح العام . وظهرت طبقة العمال والأجراء الذين لا يشاركون فى رأس المال أو فى نتاج الأرض . كما نشأت طبقات الفقراء والمعدمين فى مقابل الأثرياء المترفين ، وتشتت الأمة ، واتسع نطاق الطبقات المحرومة ، تفرز لها أجهزة الاعلام ثقافة الحرمان والتعويض ، وتقضى على أية امكانية لتثويرها وتحريكها وكأن قدرها قد حتم عليها ، ولا مفر منه . استحال الحراك الاجتماعى ، وانتكست الثورات ، ولم تدم مفاهيم الاشتراكية والعدالة الاجتماعية والمساواة وتذويب الفوارق بين الطبقات ، وأصبح يضرب بمجتمعاتنا المثل فى الغنى والفقر على حد سواء ، فى البطنة والحرمان فى نفس

المجتمع ، فى الترف والبؤس ، فى البطر والشقاء • نستجدى المعونة من غيرنا لفقرائنا ، ويساعد أغنياؤنا فقراء غيرنا ونحن أولى بالمساعدة ، فالأغيار لا تخشى منهم ثورة • بل الثورة كامنة فى نفوس فقرائنا •

ومع ذلك ظل التوحيد قابعا فى الوجدان ، تتأصل فيه الثورة الاجتماعية ، وتمتد الى جذوره الدعوات الاشتراكية ، يحفظ الأمة ، ويعطيها أهدافها القومية ، ويزلزل أنظمة الاقطاع والرأسمالية ، ويهدد العروش والتيجان ، ويقضى على الأمراء والسلاطين ، فأساس الأمة هى الوحدة وليس التفاوت ، وعمادها المساواة وليس الطبقات الاجتماعية • وبالتالى يستحيل وجود نظام اقطاعى أو رأسمالى فى الوجدان العربى اذا ما نشط التوحيد ، وانتهى ضموره ، واتسع نطاقه ، وخرج من الوجدان الى نظام العالم •

ثامنا : المبدأ السياسى •

والتوحيد مبدأ سياسى ، عليه تقوم الدولة أى الكيان السياسى للمجتمع • فلا يوجد مجتمع دون سلطة ، ولا توجد سلطة دون حاكم ومؤسسات وشعوب • فالحاكم يمثل الأمة ، ويرعى مصالحها ، وينفذ الشرع ، والشرع له أساس وضعى فى المصلحة ، والحاكم نائب عن الأمة بالبيعة ، والأمر شورى بين الناس ، والمؤسسات مستقلة وعلى رأسها القضاء • فلا يعزل قاضى القضاة بل هو الذى يعزل الحاكم ان لم ينفذ أوامر الشرع ، وان لم يؤد الأمانة ، فالولاية أمانة • ويقوم المحتسبون بالرقابة على أجهزة الدولة ، ويسهرون على تطبيق الشريعة • فالحسبة هى وظيفة الحكومة الاسلامية كما يقول الفقهاء • والأئمة عليهم واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتوعية الأمة ، وتهيئتهم للثورة على الحكام ان عصوا الشريعة أو خرجوا على أحكامها أو تهاونوا فى تطبيقها أو طبقوا غيرها • ولكل عالم حرية التعبير والرأى ، وله حق الاجتهاد والافتاء • لا عصمة لأحد ، يتصدى لعظائم الأمور وليس لصغائرها ، ويتعرض لما تعم به البلوى ، ويتقدم على السلطان فى الرأى والاجتهاد •

وعلى هذا النحو ، كان التوحيد ثورة فى التاريخ ، منذ نشأة الاسلام حتى الثورة الاسلامية فى ايران • « الله أكبر » تهز العروش ، وتقضى على الجبابرة ، وتقصم الجبارين ، فالتوحيد تحرير سياسى واجتماعى لوجدان الانسان من أية سلطة خارجية باستثناء سلطة الله أى سلطة الأمة الممثلة فى مصالح الجماهير •

ولما خبا التوحيد كمبدأ سياسى فى النفوس ، عم التسلط ، وتكبر الحكام ، وملكوا رقاب الناس ، وحكمت القبائل والعشائر باسم الحكم الوراثى ، فيولد ابن الملك ملكا وهو مخالف لنص التوحيد « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن • قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين » (٢ : ١٢٤) • ظهر حكم الفرد المطلق مدعيا الحكم باسم الله ، جاعلا نفسه خليفة الله فى الأرض دون ما بيعة أو شورى أو رعاية لمصالح الناس ، ودون ما رد من علماء المسلمين • وغابت المؤسسات المستقلة عن السلطة التنفيذية ، أو وجدت كصور وأشكال ، لاقوام لها ولا كيان ، مهمتها الموافقة والتأييد لقرارات الحكام واستنكار وشجب قرارات خصومه • وضاع استقلال العلماء ، وساروا وراء الحكام يبررون سلطانهم بالفتاوى ، ولا يتعرضون لعظائم الأمور التى أصبحت حكرا على السلطان ، وترك لهم قانون الاحوال الشخصية ، يصولون فيه ويجولون دون تعرض لنظام الاسلام السياسى والاجتماعى فأصبحوا « فقهاء السلطان وفقهاء الحيض والنفاس » • ولم تعد هناك رقابة على أجهزة الدولة فى الدواوين أو فى الاسواق • ولم يعد هناك محتسبون ، بل سيطرت الدولة على أجهزة الاعلام ، وعينت رؤساء تحرير الصحف ، وفصلت المعارضين ، واضطهدت المخالفين فى الرأى • وعم تغييب الوعى القومى ، وأصبحت العامة فى يد السلطان يسيرها كيف يشاء ، ويزج بطليعتها الثورية فى السجون ، وتلفق لهم القضايا ، فلا يجدون أمامهم الا الخروج أو الجهاد ، ويمارسون شتى أنواع العنف والاغتيال السياسى •

ومع ذلك يظل التوحيد أكبر خطر على أنظمة القهر والتسلط ،

محافظا على الوجدان العربى الاسلامى الحر ، وتظل « لا اله الا الله » تحريرا للوجدان الانسانى بنفى كل قوى الطاغوت من جاه وسلطان وشهوة وتجبر واثبات الاله الواحد القهـار الذى يقف أمامه جميع البشر أحرارا متساوين • فالتحرر الدائم هو أحد العناصر المكونة للوجدان العربى الذى لا يعرف الا الصحراء الشاسعة والسماء المرصعة بالنجوم ، ولا تعترى نفسه الا القيم العربية التى نقاها الاســلام • الشوق الى الحرية مقوم أساسى للشخصية العربية ، وهو نابع من التوحيد ، وأحد وظائفه ، فالتوحيد اسم فعل ، يدل على عملية أكثر مما يشير الى شىء •

تاســعا : خاتمة •

ومع ذلك ، فقد ظل التوحيد فى كلتا الحالتين ، تمدده فى وعينـا القديم أو ضموره فى وجداننا المعاصر المقوم الرئيسى للشخصية العربية والمحافظ على هويتها ، والحامى لبقائها واستمرارها فى التاريخ ، يظل التوحيد هو الجـدار الحافظ لهـا من التغريب والضـياع ، والراعى لأصالتها واستقلالها فى مواجهة الغير ومخاطر التميع والذوبان •

وبالتالى يكون السؤال هـو : ما الضامن على بقـاء التوحيد فى حيويته وانتشاره دون ضموره وانحساره ؟ وكيف يمكن اعادة الحياة الى التوحيد فى وجدان العصر كما كان حيا فى وجدان القدماء ؟ ويكون الجواب : ان حرية الانسان وقدرته على التأثير فى الجماعة هى القادرة على حيوية التوحيد ، واطلاقه من ضموره الحبيس الى رحابة الحياة فى العالم الفسيح • فاذا ما فرضت ظروف العصر وأوضاعـه ضمور التوحيد فان حرية الانسان ، حرية الاعتقاد وحرية الممارسة ، قادرة على اطلاق التوحيد الحبيس من عقاله حتى يوجه الظروف ، ويحرك التاريخ •

ان الظروف التاريخية وحدها لاتحرك شعبا ، والاوضاع السياسية وحدها لا تخلق فكرا ، والأبنية الاجتماعية وحدها لا تثير ذهنا • وبالتالى كانت المقومات الثقافية فى الشخصية العربية تمثل العامل الأول ، وليس

الوحيد ، فى تحديد معالم هذه الشخصية والتأثير عليها ، سلبا أم ايجابا • ومن هنا أتت أهمية العقائد والتصورات والنبوات فى تاريخ العرب • وكما قال ابن خلدون من قبل « ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة » • وبدلا من أن تكون النبوة فى عصرنا الألفاظ والعبارات والشعارات أو المذاهب التى انتشرت على غفوة منا تحت أثر التغريب فانهـا تكون تصورا للعالم تنتج عنه نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية ، وبالتالى يمتلأ « الفراغ » النظرى الذى يشعر به المعاصرون • وتظل الشخصية العربية محافظة على هويتها فى التاريخ •

المســـؤوليات الراهنـــة للثقافـــة العربيـــة

ان ثقافة كل أمة تعبر عن المرحلة التاريخية التى تمر بها ، فالثقافة هى تسجيل لتاريخها ، وتعبيرعن وجودها ، وفى المرحلة الراهنة التى تمر بها الأمة العربية تتحد مسؤوليات الثقافة العربية بحيث تواكب هذه المرحلة وتدفعها الى مرحلة أخرى وحتى تؤمن مسار الأمة فى التاريخ • وان الأمن الثقافى العربى لا يقل أهمية عن الأمن الغــذائى أو الأمن العسكرى ، وطالما وقفت الأمة العربيـــة عبر تاريخهـــا أمام الغزوات الحضارية المتتابعة وحققت لنفسها أكبر قدر ممكن من الأمن الاحضارى •

وأداء لهذا الدور ، تتحدد المسؤوليات الراهنة للثقافة العربية على النحو الآتى :

أولا : مسؤوليتها تجاه التراث القديم :

لقد ورثت الأمة العربية تراثا حضاريا ، قد يكون أغزر تراث عرفه تاريخ الأمم القديمة والحديثة على حد سواء • يشـــمل التراث جميع أنواع العلوم والفنون والآداب والفلسفات والديانات • أصبحت الأمة العربية وريثة دين ابراهيم ، اليهودية والمســيحية والاســلام • كما أصبحت موطنا لتفاعل هذا الدين مع ديانات فارس والهند • كما استطاعت احتواء الحضارات القديمة من يونانية ورومانيـــة • ثم أبدعت ، بعــد ظهور الاسلام ، علومها الخاصة : العــلوم النقلية كالتفسير والحــديث أو العلوم النقلية العقليـــة مثل أصـــول الدين وأصول الفقـــه وعلوم الحكمة وعلوم التصوف أو العلوم العقلية الخالصة مثل العلوم الرياضية من حساب وهندسة وفلك وموسيقى ووضع أصول علم الجبر أو العلوم الطبيعية مثل الكيمياء والطبيعة أو العلوم الانسانية مثل الجغرافيـــا والتاريخ • وان الثقافة العربية الراهنة لمسؤولة عن هذا التراث كله على النحو الآتى :

مجلة « أقلام » المغربية العدد ٩ ابريل ١٩٧٩ •

١ ــ جمع هذا التراث الموزع بين مكتبات العالم العامة والخاصة ، وتحقيقة ونشره حتى يظهر تاريخنا أمامنا ، وأن نضع أنفسنا فيه بدلا من أن يكون غائبا عنا ونحن خارجون عنه • وأن يتم النشر تبعا لأولويات احتياجاتنا • فان كنا فى حاجة الى عقلانية اثر نهضتنا الحديثة أعطينـــا الأولية للتراث الاعتزالى الفلســـفى وليس للتراث الصوفى الاشراقى الذى نرزخ تحته وتمتلىء به أنوفنا وآذاننا وتموج به قلوبنا • واذا كنا فى حاجة الى رعــاية الصالح العــام والدفـــاع عن مصالح المسلمين أعطينا الأولوية للتراث الأصولى وما وضعه من اصول تشريعية تقوم على جلب المنافع ودفع المضـــار وليس فقط للتراث الفقهى الافتراضى الذى تزخر به مكتباتنا ويحفظه علماؤنا وتضج منه أسرنا ومجتمعاتنا • ان ما تنشره جامعات العالم ومراكز البحث الدوليـــة لتحقيق التراث العربى الأولى أن يتم كجزء من خطتنا القومية لتأصيل جذور النهضة العربية وبعث ماضيها الحضارى الذى تجد فيه نفسها كما تجد فيه دفعة لها على الانتقال من مرحلة الاحياء الى مرحلة النهضة •

٢ ــ احياء هذا التراث عن طريق اعادة بنائه ، وبيـــان مواطن أصالته وجدته ، ومعرفة كيف واجه علماؤنا مشاكل حضارتهم ، وكيف جابهوا الحضارات المجاورة ، وتمثلوها وردوا عليها • ان اعادة بناء المواقف الحضارة القديمة لهو السبيل الى فهم المواقف الحالية التى نبدو فيها أحيانا عاجزين أو متفرجين أو ناقلين • وتتم اعادة بناء التراث عن طريق تجديد لغته واعادة التعبير عن مضمونه بلغة العصر • كما تتم أيضا عن طريق تجديد مناهج فكره واكتشاف مناهج الواقع ووسائل المدركات الحسية وطرق العلل بعد أن نقلنا طويلا مناهج التنزيل وطرق الاستنباط والمعارف القبلية من الأخبار المتواترة • كما يتم أيضا عن طريق تغيير المحاور القديمة واكتشاف بؤر جديدة مثل الانسان والتاريخ حتى نستطيع أن نجد فى تراثنا ما نحتاجه فى حاضرنا لتأصيل حاجاتنا وتحقيقها على نحو دائم •

٣ ــ تنقية هذا التراث عمـــا علق به من شـــوائب عارضة نظرا

للظروف التي مرت بها مجتمعاتنا القديمة مثل العداء التقليدى بين الشيعة وأهل السنة أو تكفير الفرق المعارضة أو ظهور التصوف كرد فعل سلبى تجاه النظم السياسية القائمة واستحالة مقاومة الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى أو ظهور بعض جوانب الفقه الافتراضى الذى يضحى بالواقع فى سبيل النص ، ويترك المصلحة التى هى أساس التشريع • كذلك تنقية علوم التفسير والحديث مما علق بهما من روايات غير صحيحة والانتقال من التفسير الاخبارى الذى يجمع اكبر قدر من المعلومات التاريخية عن الوقائع والحوادث الماضية الى التفسير الاجتماعى الهادف الموجه نحو المجتمع الاسلامى لحل مشاكله والقضاء على اوجه النقص فيه •

٤ — تطوير بعض جوانب تراثنا القديم التى نحن فى أمس الحاجة اليها الآن وذلك عن طريق اما اعادة الاختيار بين البدائل كما هو الحال بين الاشاعرة والمعتزلة وقضائنا على المعتزلة منذ القرن الخامس وسيادة الأشعرية فى فكرنا القومى حتى الآن ، وضرورة احياء التراث الاعتزالى كما حدث ابتداء من حركاتنا الاصلاحية الأخيرة خاصة عند محمد عبده نظرا لما نحتاجه فى نهضتنا العربية الحالية من تركيز على العقل واعلان من شأن الحرية والديمقراطية • وقد يتم أيضا عن طريق اعادة الاختيار بين الغزالى وابن رشد ، فكما قضينا على المعتزلة فى القرن الخامس قضينا على ابن رشد فى القرن السادس وآثرنا الغزالى فازدوجت الاشعرية بالتصوف وساد حتى القرن الماضى • لقد تأخرنا باختيارنا الغزالى على ابن رشد ، وتقدم الغرب باختياره ابن رشد على الغزالى • وقد يتم أيضا عن طريق تطوير مواطن الاقدام والجرأة فى تراثنا القديم مثل القول بالطبائع عند المعتزلة حتى نخفف من وجداننا المعاصر عالم المعجزات والأسرار أو بابراز جوانب المصلحة العامة واعادة بناء تشريعاتنا على نحو وضعى دفاعا عن مصالح الأمة التى هى مقاصد الشرع •

٥ — تحريك هذا التراث حول محاور جديدة نحتاجها فى واقعنا المعاصر ولم تظهر بوضوح فى تراثنا القديم • فنحن نحاول فى نهضتنا

الحالية اقامة حضارتنا حول الانسان والمجتمع أى حول الفرد والتاريخ حتى نقيم حضارة أنسانية تكون تطورا لحضارتنا ومكانتنا فى التاريخ • فالانسان والتاريخ محوران جديدان يمكن تحريك حضارتنا القديمة حولهما • فقد دارت حضارتنا القديمة حول الالهيات وأوفتها حقهـا ، وكانت الطبيعيات الهيات مقلوبة ، فعشنا مع الالهيات خارج الزمان • ولقد حدث فى كل حضارة أن أعيد تفسير الالهيات بحيث تصبح العناية الالهية تقدما فى التاريخ ، وبحيث يصبح الانسان عاملا محركا فيه • والانسان فى النهاية خليفة الله فى الأرض ، والأمة هى الوارثة لهذه الخلافة • على هذين المحورين يتحرك تراثنا القديم من جديد • ويسير الى الامام بدل أن كان دائرا حول مركزه القديم سائرا فى محله لايتحرك •

٦ ــ استمرار التراث وذلك عن طريق استمرار مواقفه واستئناف نشاطه • فنحن الان فى مواجهة حضارات غازية وعلى رأسها الحضارة الغربية كما كان الحال فى الموقف القديم فى مواجهة الحضارة اليونانية • مسؤوليتنا هى فى اعادة فهم الأصول الأولى أى معطيات الوحى بناء على متطلبات المواجهة الجديدة ومعطيات العصر ولارساء دعائم النهضة العربية الحديثة • ان استمرارية التراث أمر ممكن نظرا لأنه مازال حيا يفعل فى نفوسنا ، ويؤثر فى سلوكنا • فالقدماء رجال ونحن رجال ، والجبهات متكررة ، والمواجهة مستمرة ، ومعارك التحديث قائمة •

ثانيا : مسئوليتها تجاه التراث الغربى :

وتقع علينا هذه المسئولية وعلى الثقافة العربية وذلك لاننا اليوم فى مواجهة مع الحضارة الغربية باعتبارها حضارة غازية وفدت الينا منذ قرنين من الزمان وما زالت تمثل تحديا حضاريا لنـا • نقف منهـا اما موقف الرافض المطلق بدعوى أن تراثنا القديم قد أغنانا عن كل شيء أو القابل المطلق بدعوى أن الغرب هو نمط التحديث والتقدم أو المنتقى الذى يبتسر أحد جوانبها ويفصله عن بيئته ويخرجه ويعممه ويطلقه وينقله الى كل حضارة فيحدث الاغتراب فى الحضارات غـير الأوربية ، وتتحول هذه الجوانب المبشرة الى مواطن اغتراب فى وجداننا المعاصر

مثل الوضعية العربية ، والماركسية العربية ، والوجودية العربية ، والبنائية العربية .. الخ .

وتتحدد مسؤولية الثقافة العربية تجاه التراث الغربي على النحو الآتي :

١ ـ تحجيم التراث الغربي ، ورده الى داخل حدوده الطبيعية وذلك لأنه يحتوى على فكر بيئى خالص نشأ فى ظروف معينة ، وحتمته طبيعة معطياته الدينية . ثم كشف هذا الادعاء الذى كثيرا ماروجنا له فوصفنا الفكر الغربى بأنه فكر شامل انسانى عام ، تنقله كل حضارة ، وتتبناه كل أمة سواء فى العلم أو فى الفن أو فى الدين أو فى السياسة . وعلى هذا النحو يمكن ايقاف الغزو الثقافى الغربى واظهار خصوصيات الثقافات غير الغربية حتى تتنوع الثقافات وتثرى بعضها بعضها ، ولا تكون هناك ثقافة أم وثقافات فرعية ، ثقافة نموذجية وثقافات تحذو حذوها ، ثقافة مبدعة وثقافات مقلدة . وقد يكون فى ذلك فائدة كبرى للتراث الغربى ذاته الذى قد يرى حينئذ ثقافته من خلال ثقافات الآخرين المتميزة ، ويكون له نقاط احالة أخرى يمكن الرجوع اليها . وبالتالى تخف نرجسيته . ويتعلم من الثقافات التى حاول مرة القضاء عليها .

٢ ـ القضاء على اغتراب مثقفينا الذين انحازوا للغرب وأصبحوا جزءا منه ، وتخليص أذهاننا من قوالب الفكر الغربى وخروجنا عن أتجاهاته حتى يمكن أن يعود لشعورنا الحياد والقدرة على الرؤية الموضوعية لهذا التراث كموضوع مستقل عنا . ولما كان المثقفون طليعة الجماهير ومحددو مسار الوعى فان القضاء على اغتراب المثقفين هو عودة الوعى للجماهير العربية واكتشاف لذاتيتها الخاصة ، ووضعها فى مسار تاريخها الصحيح بدلا من استغرابها على أيدى قادة وعيها أو رجوعها الى تراثها القديم تجد فيه ملاذها وفرارها .

٣ ـ دراسة التراث الغربى دراسة نقدية خالصة ، والقيام بمحاولة لوصف بداية الوعى الأوربى ومساره واكتماله فينشأ لدينا علم « الاستغراب » كما أنشأ الغربيون لديهم علم « الاستشراق » . وبالتالى

تكون نهضتنا الحالية قد تحولت من مجرد خطابة واعلان للنوايا الحسنة الى تخطيط علمي كما حدث فى نهضة أوربا فى القرون الماضية وأخذها غيرها من الشعوب موضوعا للدراسة • وعلى هذا النحو يمكننا تحديد مراحل هذا الوعى ابتداء من مصادره اليونانية والرومانية أو المسيحية اليهودية الى فتراته سواء فى العصور الوسطى أو فى العصور الحديثة حتى يمكننا معرفة فى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش سواء بالنسبة لأنفسنا أو بالنسبة لغيرنا • واذا كنا قد وقعنا تحت اغراءات العصور الحديثة ووضعنا أنفسنا فى القرن العشرين فان مسؤوليتنا فى تحديد مهام هذه العصور ابتداء من الاصلاح الدينى فى القرن الخامس عشر، والنهضة فى السادس عشر، والعقلانية فى السابع عشر، والتنوير فى الثامن عشروالعلمية فى التاسع عشر، وأزمة العشرين • وقد نكون نحن قد خرجنا للتو من الاصلاح الدينى وفى بدايات عصر النهضة •

٤ ــ بيان حدود العقلانية الأوربية ومصادرها سواء عند اليونان أو عند العرب القدماء، وكيف أن العقل أصبح فيما بعد اما أحادى الطرف أو مرتبطا بالوجدان أو بالحس أو بالتاريخ أو بالقومية أو بالعنصرية • أصبحت العقلانية مرادفة لروح الشعب، وتعبر عن القومية والنزعة العنصرية، وأصبح الشمول الذى يفرضه العقل مرتبطا بالأمة La Nation فظهرت لدينا عقلانيات عدة بقدر مالدينا من قوميات : عقلانية المانية تمجد الروح والشعب والتاريخ، وعقلانية انجليزية تمجد الحس والتجربة والواقع، وعقلانية فرنسية تمجد النفس والتجارب الباطنية والشعور، وعقلانية أمريكية تمجد الحرية والديمقراطية والمساواة • وبالتالى تحطمت العقلانية الأوربية على حدود القوميات ونقصها الشمول الذى قد لا يظهر فى العقل الا بفعل التوحيد •

٥ ــ بيان حدود التجريبية الأوربية ومصادرها سواء عند الشكاك اليونان والرومان أو عند العلماء العرب أو بعد الاكتشاف التلقائى للواقع المادى فى أوائل العصور الحديثة بعد رفض كل المعطيات القبلية التى لم تستطع الصمود امام نقد العقل ومكتشفات الطبيعة • تحولت التجربة

الغربية الى مادية ساذجة أو حسية خالصة ، وأصبحت مصدر كل علم بناء على المشاهدة والتجربة ورفض أى مصدر آخر • لقد ارتبط الوعى الأوربى بالواقع التجريبى حتى فقد حريته فى نقد التجربة وبيان حدودها ، وبأن المجربات والمشاهدات والحسيات ما هى الا مصادر للمعرفة مثل الحدسيات والعقليات ، والتجارب الباطنة والمتواترات كما قال علماؤنا فى التراث • بل ان العلم الأوربى وهو الذى قام على التجربة والمشاهدة لايهم نقله الى حضارات أخرى بقدر مايهم تأسيسه فى وعى الشعوب غير الأوربية عن طريق مناهج التجربة الكاملة وليست المبتسرة•

٦ ــ بيان حدود المذهب الانسانى الغربى ابتداء من عصر النهضة فى السادس عشر مارا بالليبرالية الأوربية فى السادس عشر حتى النزعات الانسانية الاجتماعية فى الثامن عشر والاتجاهات الاشتراكية فى التاسع عشر والفلسفات الوجودية فى العشرين • فالنزعة الانسانية الغربية ظلت على مستوى النظر ولم تتحقق فى الحياة الأوربية التى سادتها الحروب الطائفية والصراع بين القوميات • واذا ما تحققت داخل أوربا فانها سرعان ما تختفى خارجها ، وكان الانسانية فى أوربا وحدها ، تنقلب على همجية ووحشية واستعمار واذلال للشعوب خارج أوربا وبفعل شعوبها • فالاكتشافات الجغرافية خير لأوربا لاتساع رقعتها وزيادة ثرواتها واسترقاق افريقيا فى عصر قيام النزعة الانسانية على مستوى الثقافة والفكر •

ثالثا : مسؤوليتها تجاه الواقع العربى :

ان المسؤوليات الراهنة للثقافة العربية لاتتحدد فقط بالنسبة للتراث القديم أو بالنسبة للتراث الغربى ، وذلك لانها تتجاوز المهام الحضارية الملقاة عليها الى الواقع المباشر الذى تعيش الثقافة العربية والجماهير العربية فيه •فالثقافة تعبير عن الواقع ، والواقع تحكمه الثقافة • ومن ثم كانت المسؤوليات الراهنة للثقافة العربية هى ايضا مسؤوليات تجاه الواقع العربى • وتتحدد هذه المسؤوليات ايضا على النحو الآتى :

١ ــ مسؤولية محو الأمية التى مازالت هى الغالبة على جماهيرنا العربية • ولا تعنى الأمية مجرد تعلم القراءة والكتابة فقد يكون من يجهلهما اكثر علما ووعيا ممن هو عالم بهما وذلك بفضل التراث الشفوى ، والسنة المروية ، والقرآن المحفوظ ، وخبرة السنين الطويلة • ولكن تعنى الأمية أيضا أمية أنصاف المتعلمين الذين يقرؤون دون أن يحدث لديهم الوعى الحضارى • كما تعنى أمية المتعلمين المغتربين أو الناكصين على أعقابهم هاربين الى التراث القديم ، وكلاهما ناقل علم وليس مؤسس علم ، مرة عن القدماء ومرة عن المحدثين • وتعنى ثالثا أمية المهنيين المتخصصين فى شتى فروع المعرفة دون أن يكون لهم اى ثقل حضارى أو أى دور فى توجيه الواقع العربى الراهن •

٢ ــ خلق الثقافة الوطنية التى يمكن أن تجمع الجماهير العربية عليها ، وتشمل الحد الأدنى من الاتفاق على بعض المعايير النظريه ، والمقولات الذهنية ، فالثقافة الوطنية فى البلاد الناميــة هو الحــامل لأيديولوجياتها السياسية • ونحن نتحدث منذ ربــع قرن أو يزيد عن ثوراتنا العربية دون أن نقيمها على ثقــافة وطنيــة أى على تصورات الشعب ومقولاته التى من خلالها يحقق مشروعاته القومية • وبالتالى ظلت قوالبنا الذهنية منفصلة عن ثوراتنا العربية • ومــا كان أســهل اذا ما أصيبت هذه الثورات بانتكاسة ما أن تظهر قوالبنــا الذهنيــة كدعامة للمحافظة • ان الثقافة الوطنية ، ومفاهيم الجماهير عن الانسان والزمان والتاريخ والتطور والحركة هى التى تضمن استمرار الثوره ، فلا ثورة بلا نهضة ، ولا نهضة الا بثقافة وطنية ، أى تنظير النهضة على مستوى الفكر(١) •

٣ ــ مساهمة الثقافة العربية فى حل المشاكل الكبرى التى يغرق فيها عالمنا العربى الراهن وعلى رأسها قضية تحرير الأرض • فمازالت أجزاء كبيرة من أراضينا محتلة ، ومــازالت فلســطين فى يد العــدو الصهيونى • وبالتالى فان مسؤولية الثقافة العربية تتحدد فى مساهمتها

---

(١) انظر دراستنا السابقة « فى الثقافة الوطنية » •

فى ربط الثقافة بالارض ، والدين بالتحرر ، والفكر بالمقاومة ، والفن بالصمود ، واقامة لاهوت الثورة أى ربط ثقافتنا بحياتنا ، وأن تصبح ثقافتنا جزءا من مصيرنا • ان قوة العدو الصهيونى تتمثل فى قوة دعاوية التى يستند عليها والتى تقوم أساسا على تاريخه ودينة وتراثه أى ثقافته الوطنية • وان الحق العربى يمكنه أن يتأكد اكثر واكثر من خلال اقامة ثقافة وطنية • وما اكثر المفاهيم فى تراثنا حول استخلاف الأمـة ، ووراثتها للأرض •

٤ ـــ مساهمة الثقافة العربية فى حل مشاكل التخلف • فالتنمية لاتعنى فقط زيادة الموارد ، وتخطيط العمران ، وشـق الطرق ، وبنـاء السدود ، واصلاح الأراضى بل تعنى التنمية الشاملة التى تضم أيضا تصورتنا للعالم ونظرتنا للحياة ، واحساسنا بالتاريخ ، وشعورنا بالزمان ، وتصورنا للعلاقات بين الأطراف بين الأعلى والادنى أم بـين الامـام والخلف ، وتصوراتنا لمراكز الكون ، الله ام الأمة أم الانسـان • ان كثيرا من المظاهر المادية للتخلف فى حياتنا لترجع أساسا الى تصورات نظرية ورثناها وأصبحت أبنية شعورية لنا توجه سلوكنا وتفرض على حياتنا العامة أنظمتها • وقد تكون نظرية الفيض التى ورثناها من تراثنا الفلسفى سبب ما نعانيه من بيروقراطية وتفـاوت طبقى فى حيـاتنا الاجتماعية والسياسية ، وقد يكون ادانة الصوفية للعالم واحتقارهم له سبب هزائمنا السياسية والعسكرية نظرا لأننا لم نعد نعيش فى عالم باق نحرص عليه • والأمثلة كثيرة على أن الشعوب النامية لاتتحرك الا من خلال تراثها وثقافتها الوطنية واعادة صبها فى مخزون حاجات العصر •

٥ ـــ خلق ثقافة تستطيع أن توصل شعارات الأمة العربية من حرية واشتراكية ووحدة حتى لاتبقى هذه الشعارات مجرد كلمات خاليه من أى مضمون أو أن تكون لها مضامين متضاربة طبقا لنوعيات الأنظمة العربية وحتى تتحول الشعارات الثلاث الى مطالب قوميـة لاتخضع لتقلبات الأنظمة السياسية • تتأصل الحرية بالرجوع الى جذورها فى تراثنا القومى تأكيدا لحرية الانسان واستقلال فعله وانهاء كل التصورات

التسلطية التي تحد من الحرية الانسانية[٢] • وتتأصل الاشتراكية لا عن طريق تبرير ما هو قائم اعتمادا على تراثنا ولكن على المطالبة بمزيد من العدالة الاجتماعية والمساواة اعتمادا على التوحيد والاستخلاف • وتتأصل الوحدة العربية فى حياتنا بالرجوع أيضا الى التوحيد الذى يعنى أيضا وحدة الأمة • ووحدة هدفها ، ووحدة نضالها المشترك •

٦ ـ تحديد مسار الحضارة العربية فى التاريخ بعد أن بدأ العالم يعى نهضة الأمة العربية والاسلامية ويخشى نهضتها المستمرة ، وعودتها الى حضارتها المجيدة ، وقيادتها لمسار التاريخ • مهمة الثقافة العربية هى أن تكون على مستوى المسؤولية الملقى على عاتقها فى تحديد مسار الأمة خاصة وان الحضارات المعاصرة التى مازالت تمثل تحديا لنا فى الشرق أو فى الغرب يؤذن أهلها ومفكروها ببداية النهاية بالنسبة لها • ويتحدثون عن الخلط ، والقلب ، والتبديل ، والانهيار ، والسقوط ، والأزمة ، والمحنة ، والصدمة التى تعم كل شىء • وبالتالى تستطيع الأمة العربية أن تختط لنفسها استراتيجية حضارية جديدة تحدد مسارها فى المستقبل ، وتشق طريقها بين مختلف الشعوب ، فقد تستطيع اذا ماهى قامت بمهمتها قيادة مسار التاريخ فى الأجيال القادمة •

تلك هى بعض المسؤوليات الراهنة للثقافة العربية تتجاوز بها مرحلة التعالم وجمع المعلومات ، كما تتجاوز بها التخصص الدقيق والثقافة المهنية ، وتتجاوز بها كثرة المؤسسات الثقافية كما ونوعا • فالثقافة بالنسبة للأمة العربية هى حياتها ورسالتها • وكثيرا ما تهزم الامم ولكن تحيا ثقافتها ، بل ان الصمود الثقافى هو الضمان الوحيد للأمن الحضارى وهو ما تحتاجه الأمة العربية فى هذه الأيام العصيبة من تاريخها •

---

(٢) أنظر مقالنا : الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديموقراطية فى وجداننا المعاصر ، المستقبل العربى يناير ١٩٧٩ ، وأيضا ، الفصل الثانى : الدين والتحرر الثقافى .

الفلســـــفة كمشـــــروع قـــــومى

اولا : ماذا تعنى الفلسفة ؟

ليست الفلسفة كما تبدو من المعنى الشائع مجرد كلام نظرى غامض يتشدق به المتعالمون ، ويدعيه الجاهلون أو هى سفسطه تقلب الحق باطلا والباطل حقا تمويها على النـــاس ، وتعمية لواقعهـــم . وهى ليست بديلا عن تراث الأمة أو خروجا على تقاليدها ، تحاصر ، وتستبعد ، ويكفر اصحابها . انما الفلسفة هى الحكمة . وقد شاع اللفظ اليونانى المعرب وهو الفلسفة مثل ذيوع اللفظ العربى الأصيل وهو الحكمة خاصة لدينا فى عصورنا الحديثة تحت أثر الثقافة الغربية . سماها القدماء الحكمة اقتفاء لأثر القرآن الكريم « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خـــيرا كثيرا » (٢ : ٢٦٩) . والحكيم فى النهـــاية أحـــد أسمـــاء الله الحسنى . وقد ارتبطت الحكمة فى القرآن الكريم بالكتاب أى بالوحى فاذا كانت الحكمة هى الفلسفة والكتاب هو الوحى فان الفلسفة والوحى يكونان صنوين كما قال فلاسفة المسلمين من قبل ، الكندى ، والفارابى وابن سينا وابن رشد . الحكمة والشريعة أختان رضيعتان ، متحابتان بالجوهر والغريزة . ثم ارتبطت الحكمة أيضـــا بالملك أى بالسياسة والحكم وبالاخلاق والموعظة الحسنة وبفصل الخطاب أى بالقول السديد والمنطق السليم[1] .

كتبت عناصر هذا المقال فى ربيع ١٩٨٥ أثناء وجودى أستاذا زائرا بجامعة الامارات العربية المتحدة اثناء الفصل الدراسى الثانى للعام الجامعى ١٩٨٤/٨٥ وبعد احساسى بأزمة المجتمع كله وغو عدم ربط الجامعة عامة وقسم الفلسفة خاصة بمشروع قومى واحد للبلاد . اذ لا فلسفة بلا وطن ، ولا طالب بلا مواطن ، ولا جامعة بلا أمة . وهذه صياغة ثانية من تلك العناصر الأولى كتبت فى صيف ١٩٨٧ . أنظر ايضا بعد ذلك « الجامعة والوطن » .

(١) ذكر لفظ الحكمة فى القرآن عشرون مرة . سبع مرات بمفردها مثل « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا » (٢ : ٢٦٩) ، « ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة » (١٧ : ٣٩) ، « ولقد آتينا لقمان الحكمة ان اشكر لله » (٣١ : ١٢) ، « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » (٣٣ : ٣٤) ، « قال لقـــد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه » (٤٣ : ٦٣) ، « حكمة بالغة فما تغنى النذر » (٥٤ : ٥) ، وعشر مرات مضافة الى الكتاب مثل « يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » (٢ : ١٢٩) ، « يتلو عليهم آياتنا ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (٢ : ١٥١) ،

وقد ظهرت الفلسفة فى كل أمة ، ولدى كل شعب ، وكانت أحد مقومات حضارته ، وبلغة العصر ، ارتبطت الفلسفة بالمشروع القومى لكل أمة وحضارة وشعب ، تساهم فى البناء ، وتؤسس النظم ، وترعى الدولة ، ففى الصين القديمة ، ارتبطت الفلسفة بالأخلاق السياسية وبعلاقة الفرد بالدولة وبتربية الحاكم الصالح كما يبدو ذلك من تعاليم كونفوشيوس حتى ماوتسى تونج والماركسية اللينينية الماوية،كما ارتبطت الفلسفة بالهند ، وصاغت تصورها للعالم ، وحدة الروح والطبيعة ، وصلة الانسان بالكون كما بدا ذلك فى تعاليم بوذا وفى المنطق البوذى والاستنارة الداخلية ، كما ارتبطت الفلسفة بحكمة فارس القديمة وبتدوين الدواوين وبفن الحكم وبتكوين الحاكم الفيلسوف كما ظهر ذلك فى عديد من الكتب الفارسية القديمة التى نقلها ابن مسكويه[٢] ، وفى مصر القديمة ارتبطت الفلسفة بالدين وبالدولة ، وكانت العقائد أساس التنظيم ومهد العلم وأساس الدولة ، وفى مقدمتها فرعون الاله والخلود ، وعند اليونان نشأت الفلسفة مرتبطة بالتعليم وبالمدارس وبالجدل والحوار من أجل تنظير العالم وتأسيس الأخلاق واقامة نظام للدولة أيضا ، وكما ارتبطت الفلسفة بالأمم والشعوب فانها ارتبطت أيضا بالديانات والحضارات كما هو الحال فى الفلسفات اليهودية والمسيحية والاسلامية ، فالفلسفة اليهودية تعبير عن الحضارة اليهودية سواء فى عصر التدوين وجمع التراث اليهودى ، التوراة ، وكتب الانبياء والحكمة وكتب القضاة والملوك أو التراث الشفاهى كما هو الحال فى التلمود والمشناه ، ثم نشأت الفلسفة العقلية اليهودية فى أحضان

« واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة » (٢ : ٢٣١) ، « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » (٣ : ٤٨) ، « لما آتيتكم من كتاب وحكمة » (٣ : ٨١) ، « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (٤ : ١١٣) ، « وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » (٥ : ١١٠) ، ومرة واحدة مع مع الموعظة الحسنة « وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (١٦ : ١٢٥) ، ومرة واحدة مع الملك « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة (٢ : ٢٥٠) ، ومرة واحدة مع فصل الخطاب « وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » (٣٨ : ٢٠) .

(٢) ابن مسكويه : الحكمة الخالدة ، تحقيق د. عبد الرحمن بدوى ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٢ .

الفلسفة الاسلامية لتمثل المشروع اليهودى وتجعله أقرب الى التوحيد الشامل(٣) • كما نشأت الفلسفة المسيحية من ثنايا الفلسفة اليونانية مع المنطق الجديد وهو العقائد المسيحية المتمركزة حول شخص المسيح • وعبرت عن سيادة الامبراطورية المسيحية فى العصور الوسطى والتى خلفت الامبراطورية الرومانية ومن نفس العاصمة حتى العصور الحديثة وبروز القوميات الأوربية • وهنا ارتبطت الفلسفة من جديد بالمشروع الغربى الحديث وتأسيس الذاتية بعد التحول من التمركز على الله والكنيسة الى التمركز على الانسان والطبيعة • ولم تكن الفلسفة الاسلامية استثناء من ذلك فقد ارتبطت بالمشروع الاسلامى وهو تحويل الوحى لنظام الحكم وارتباط الدين بالدولة •

وقد مرت الحضارة الاسلامية بمرحلتين : الاولى استغرقت القرون السبعة الأولى حيث نشأت الحضارة الاسلامية وتطورت وازدهرت واكتملت وبلغت قمتها فى القرن الرابع الهجرى • ثم بدأت فى التقلص والانزواء منذ هجوم الغزالى على العلوم العقلية فى القرن الخامس • ولم تشفع بارقة ابن رشد فى القرن السادس ان تعيد الى الفلسفة حيويتها وعنفوانها الأول • ثم انهارت الحضارة كلها فى القرنين السادس والسابع حتى أتى ابن خلدون فى القرن الثامن ليؤرخ للحضارة الأسلامية فى دورتها الأولى • ارتبطت الفلسفة بالمشروع الاسلامى الأول وهو تحويل الوحى الى علم ، وتحويل العلوم الى نسق علمى حضارى واحد ، واقامة النظم والمؤسسات ومقومات الحياة المدنية على أساس من النهضة العلمية والحضارية الجديدة • فنشأت العلوم النقلية الخمسة : علوم القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه • كما تأسست العلوم النقلية العقلية الأربعة : علم أصول الدين ، وعلم أصول الفقه ، وعلوم الحكمة ، وعلوم التصوف • ثم قامت العلوم الرياضية والطبيعية والانسانية الخالصة معتمدة على العقل والطبيعة الرياضة مثل : الحساب ، والهندسة ، والفلك ، والموسيقى • والطبيعة مثل :

---

(٣) انظر دراستنا Islam and Judaism, Unesco, Paris, 1985
وأيضا فى كتابنا : Religion, Ideology and Development

الكيمياء ، والطب ، والصيدلة ، والحيوان ، والنبات ، والانسانية مثل : اللغة ، والأدب ، والجغرافيا ، والتاريخ . نشأت المرحلة الاولى فى احضان الفتح وتأسيس الدولة الاسلامية المترامية الاطراف . لذلك نشأت العلوم لتأسيس حضارة ، ونشأت الحضارة لقيام أمة[٤] .

أما المرحلة الثانية التى استغرقت القرون السبعة التالية من القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر فانها شاهدت ثلاث فترات أيضا كالتى شاهدتها المرحلة الأولى (وهى : النشأة والتطور ، الازدهار والاكتمال ، التوقف والانهيار) . أما فترات المرحلة الثانية فهى الاستمرار عندما ازدهرت الفلسفة الاشراقية فى القرون الثامن والتاسع والعاشر فى ايران فى الفلسفة الاشراقية عند صدر الدين الشيرازى . ثم فترة الشروح والمخلصات وتدوين الموسوعات الكبرى للحفاظ على التراث الحضارى بعد أن توقف خشية الضياع وتمهيدا لابداع جديد . ثم فترة الاصلاح والنهضة منذ القرن الماضى والتى قامت بها الحركات الاصلاحية الحديثة . ارتبطت الفلسفة فى المرحلة الثانية أيضا بمشروع ثان الا وهو استمرار الابداع خارج المنطقة السنية فى ايران ، ثم تدوين التراث فى المنطقة السنية خاصة فى مصر ثم بداية النهضة الجديدة فى شتى ارجاء العالم الاسلامى فى الهند وشبه الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر والسودان والمغرب العربى كله وتركيا وعلى ربوع القارتين العظيمتين أفريقيا وآسيا[٥] .

ثانيا : الفلسفة كوعى بالذات وبالأمة وبالتاريخ .

وبصرف النظر عن الحضارات والشعوب ، والعصور والمراحل والفترات ظل عنصر دائم فى الفلسفة الا وهو الفلسفة كوعى بالذات وبالأمة وبالتاريخ . فارتبطت الفلسفة أولا بالوعى أو الشعور أو

---

(٤) انظر خطة مشروع اعادة بناء هذه العلوم فى كتابنا « التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم » ص ٢٠٣ — ٢٠٩ ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

(٥) مالك بن نبى : فكرة الافريقية الأسيوية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار العروبة القاهرة ، ١٩٥٧ .

النفس أو الفرد أو الذات أو المواطن أو الأنسان • ارتبطت ثانيا بالأمة والشعب والوطن والمجتمع • وارتبطت ثالثا بالتاريخ والتطور والزمان• الفلسفة اذن هى وعي بالذات ، ووعى بالأمة ، ووعى بالتاريخ •

١ ــ **الفلسفة كوعى بالذات** : الفلسفة هى أولا وعى بالذات • ودون البحث عن أصولها فى حكمة الشرق القديم • وضع سقراط أساسها الأول فى « اعرف نفسك بنفسك » والتى من أجلها وصفته كاهنة معبد دلفى بأنه أحكم البشر • وقد انتقل الشعار ، وتحول الى قول مأثور عند الصوفية فى « من عرف نفسه فقد عرفه ربه » • واستمر فى العصر الوسيط الأوربى عند أوغسطين فى نظرية « المعلم » • ففى داخل كل منا معلم يعلمنا الحكمة « فى داخلك أيها الانســان ، تكمن الحقيقة »(٦) • ثم أكدت العصور الأوربية الحديثة كلها على ذلك منذ الكوجيتو الديكارتى « أنا أفكر فأنا اذن موجود » ، والثورة الكوبرنيقية عند كانط ، الذات مركز والعالم يدور حولها ، وعندما جعل هيجل الروح هى كل شيء ، وجعلت الوجودية الذاتية محور العالم • وقد لخص القرآن الكريم ذلك كله فى أية « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (٥١ : ٢١) مطالبا ايانا بالنظر فى آياته فى الكون ثم الارتداد فى الذات والتأمل فى النفس •

الفلســفة اذن وعى بالذات • وقــد أكدت الحــركة الاسلامية المعاصرة على ذلــك بتركيزهــا على يقظــة الوعى أو فلســفة الوعى أو « الجوانية »(٧) • وقد حدد الامام محمد عبده الحكيم الفيلسوف بأنه « العاكف على شأنه ، الخبير بأهل زمانه » أى الواعى بالذات وبالعالم • الفلسفة هى القادرة على جعل الانسان يتأمل فى ذاته ، ويستبطن مكنونات نفسه ، ويقرأ ضميره ، ويسمع صوته الباطن • وفى

---

(٦) القديس أوغسطين : محاورة « المعلم » فى كتابنا : نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط • الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٨ •

(٧) عنونة المرحوم د• عثمان أمين بهذا القبلو وتأويله المثالية الغربية ورواد الاصلاح الدينى بهذا المعنى • انظر دراستنا : « من الوعى الفردى الى الوعى الاجتماعى » فى دراسات اسلامية ص ٣٤٧ ــ ٣٩٢ ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨١ •

نفس الوقت هو القادر على توحيد طاقاته ، نظره وعمله ، قوله وسلوكه ، فكره ووجدانه • لا يؤمن بشيء الا بعد تصديق ، ولا يفكر فى شيء دون أن يعيه ، ولا يقول شيئا الا اذا عمله والا كان من الأخسرين أعمالا • لذلك ارتبطت الفلسفة بحياة الانسان ، بوجدانه ومشاعره ، بأحزانه وافراحه ، بأزماته وكروبه ، بآلامه وآماله ، بأشواقه وطموحاته • وعلى هذا النحو يمكن قراءة النصوص الفلسفية عن طريق ردها الى تجاربها الأولى التى نشأت منها ومشاركة الطالب لها ، معها أو ضدها بحيث تكون حياة الطالب تأويلا للنص • اذ يتحول النص لديه الى تجربة معاشه ، الى موقف فلسفى ، فيصبح العلم قضية(٨) • حينئذ لا يصاب الطالب بالملل ، ولا ينتابه الفتور ، لا يأنف ولا يتضجر ، لا يغيب ولا يكسل ، لا يرهب الامتحان ، ولا يهرب من الفلسفة ، لا يتجاهلها ولا يعاديها ، ولا يقع تحت تأثير خصومها الذين يقطعون بالحقائق الجاهزة ، ويتخذونها حرفة لهم بالدفاع عنها والتكسب منها • فاذا تحول تعليم الفلسفة الى مسافات وكتب مقررة ، معلومات تلقن ونظريات تحفظ ، ومواد يمتحن فيها سرعان ما ينساها الطالب بعد الامتحان فانه يشب ويكبر ولم يع نفسه وبالتالى يقضى على الفلسفة من الأساس •

٢ ــ **الفلسفة كوعى بالأمة** : والوعى بالذات يؤدى بالضرورة الى الوعى بالآخر • فالآخر يقبع فى الأنا ، ويكون قصدا لها • الذاتية على ما يقول محمد اقبال أما فردية واما جماعية ، اما ذاتية الفرد أو ذاتية الأمة • فاذا ما حققت الفلسفة غايتها بتكوين وحدة الشخصية الانسانية فانها تتجه نحو وعى الأمة لتربيته ، كما تربى الفرد من قبل على الحرية والاستقلال • لذلك ارتبطت الفلسفة فى تاريخها بحياة الشعوب ، وتاريخ الحضارات ، ونشأة الدول •

لقد الهب خيال حكماء الاسلام الصلة بين أرسطو والاسكندر • فجعلو أرسطو المعلم الأول ، والاسكندر تلميذه النجيب • وان أول

---

(٨) انظر دراستنا : « قراءة النص » فى دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ وأيضا « العلم قضية » فى هذا الجزء الاول ، الدين والثقافة الوطنية .

مشروع تكوين أمبراطورية فى الشرق لهى فكرة الاستاذ نفثها فى روع التلميذ • وكثرت النصائح والرسائل والتوجيهات من المعلم الأول الى الاسكندر عبر فيها القدماء عن الصلة بين الفلسفة والدولة • كما جعلوا الفيلسوف هو الرئيس ، وهو أحكم الناس ، وأكثرهم علما وقدرة على الرؤية والاستنباط • والمدنية الفاضلة هى التى يرأسها الفيلسوف كما هو الحال عند الفارابى • كذلك تصور أوغسطين « مدينة الله » ، مدينة المؤمنين التى يحكمها قانون الفضيلة على عكس مدينة الشيطان التى تقوم على القهر والغلبة واستبعاد القوى للضعيف • الأولى لا تنهار أبدا لأنها ملكوت السموات بينها تنهار الثانية لأنها ملكوت الأرض •

ولا يوجد فيلسوف الا وله مشروع سياسى • فلأفلاطون الجمهورية ولأرسطو السياسة ودستور أثينا ، ولاوغسطين مدينة الله ، وللفاربى آراء أهل المدينة الفاضلة والسياسة المدنية ، ولابن سينا رسـالة فى السياسة ، وللصوفية مدينة الأقطاب والابدال ، وللمتكلمين الامامة ، وللفقهاء السياسة الشرعية ، وللحكماء « اخوان الصفا وخلان الوفاء » • وفى بدايات عصر النهضة ، لمارسيليوس البادوى « المدافع عن السلام » ولتوماس مور اليوتابيا ، ولميكيافيللى الأمير • وفى العصور الحديثة لا يوجد فيلسوف الا ويطبق فلسفته النظرية على السياسة كما فعـل كانط فى مشروع السلام الدائم ، وهيجل فى نظرية الحق ، وفشته فى نداءته للأمة الألمانية ، وباكونين فى الله والدولة ، وبوزانكويت فى النظرية الفلسفية للدولة ، وكاسيرر فى الانسان والدولة •• الخ •

ولم تنهض أمة الا بفلسفة قومية لها أى عندما تحولت الفلسفة الى مشروع قومى لها • فنشأة الدولة الروسية الحديثة وتوحيدها انما تم بفضل مفكرى وأدباء حركة أنصار السلافية « السلافوفيل » للبحث عن روح روسيا قبل تأسيس دولة روسيا ، ووجدوها فى الأورثوذكسية الوطنية القائمة على حب الأرض والشعب • وقامت الوحدة الالمانية بفضل الفلاسفة الالمان وتصورهم للدولة التى تجسد روح الشعب وحركة التاريخ ، دولة واحدة تكون صورة الواحد فى الأمة • وقد بدأت

الوحدة الالمانية فى الفلسفة الالمانية قبل أن تتحقق على يد بسمارك ، وذلك عند فلسفات الوحدة المطلقة عند هيجل وشلنج فى الجامعـات الالمانية . واذا كان غاريبالدى هو مؤسس الوحدة الايطالية فان ما زينى هو فيلسوفها الذى صاغ وحدتها على مستوى الفكر وفى وعى الأمة . بل ان دولة باكستان الحديثة انما كانت خيالا فى ذهن شاعرها محمـد اقبال قبل أن تتحقق بالفعل على يد محمد على جناح . وان الجمهورية الفرنسية الحديثة قامت بفضل فلسفة التنوير وشعارات الثورة الفرنسية ، الحرية والإخاء والمساواة وآراء المفكرين الأحرار فى الحرية والعقـد الاجتماعى . كما قامت الثورة الامريكية من أجل الاستقلال بفضل اعلان حقوق الانسان . وان انقلاب أمريكا الآن الى ثورة مضادة انما كان نتيجة للنكوص عن المبادىء العامة التى قام عليها الدستور الامريكى ووثيقة الاستقلال منذ اعلانها .

الفلسفة اذن ممكنة باعتبارها مشروعا قوميا يبدأ بتربية المواطن المواطن واذكاء وعيه بالأمة . فلا توجد فلسفة بلا وطن ، ولا فـكر بلا شعب ، ولا ثقافة بلا قوم . لقد ارتبطت الفلسفة بتكوين المواطن حرا وعاقلا ومسؤولا ، ومساويا لأقرانه ، متسامحا معه . عينه على الطبيعة ، الكتاب الأبدى المفتوح ، ونبضه على مسار التاريخ وحركته . الفلسفة اذن ليست مزاجا خاصا أو مجرد تعبير أدبى عن واقع اجتماعى للمشاهدة بل هى رؤية للواقع وتحديد له ، وكشف لحركته ، وصياغة لنظمه وقوانيه . الفلسفة خطة تنمية لمجتمع ومشروع نهضة لأمة . ان غياب الفلسـفة كمشروع قومى تجعل مشـاريعنا فى التنمية مجرد هندسة بشرية ترمى الى زيادة معدلات النمو على نحو مادى خالص كما يتصوره خبراء التنمية فى الغرب ، مرهونة بوجود القيادة الرشيدة ، وبالتمويل اللازم ، اعتمادا على الخبرات الاجنبية أو المحلية . فتظل مشاريع التنمية فوقية لا ينتسب اليهـا الناس ولا ينضمون اليهـا أو يشاركون فيها لأنها لم تنبع من تصوراتهم للعالم وليست لديهم البواعث على المشاركة فيها . ان شرط الفلسفة كمشروع قومى هو أن تنبعث

الفلسفة من روح الأمة المتمثل فى تراثها . فالنظم السياسية الجاهزة قيود على الفكر وحكر على الابداع ، سرعان ما تنتهى أمام المد التراثى الشعبى والحركات الاسلامية الغاضبة الرافضة للتغريب . ان الفلاسفة ليسوا أعداد الأمة أو خصومها بل هم المؤسســـون لها ، والمدعمون لمؤسساتها ، والحارســـون على أمنها . لا يعنى ذلك أنهم فلاســـفة السلطة أو فقهاء السلطان يبررون قراراتها ويشرعون لسلطانه بل هم يرشدون ويوجهون وينصحون ثم ينذرون ويحذرون ويبصرون ، ثم يقودون ثورات الشعوب ضد الظلم والطغيان .

٣ ــ **الفلسفة كوعى بالتاريخ** : لمـــا كان لا وجود لفرد بلا وطن ، ولا لانسان بلا أمة كذلك لا وجود لشعب بلا تاريخ . وكما أنه لا وجود لوعى فردى دون وعى اجتماعى فانه لا وجود لوعى اجتماعى دون وعى تاريخى . وكما أن الفرد يعيش فى الزمان والأمة تعيش فى عصـــور فان تراكم عصورها يولد فى شعورها الجمعى شعورا تاريخيا ، رصيد الخبرات السابقة وحصيلة تعلم الاجيال . الفلسفة هى القادرة على تجسيم روح العصر والتعبير عنه ، فـــلا حركة بلا تاريخ ولا تاريخ بلا روح . وتبدو الروح فى الثقافة وفى كل مظاهر الابداع الذهنى للامة. الفلسفة هى الوعى الطبيعى لكل ذلك . والفلسفة هى القادرة على تحديد المرحلة التاريخية التى تمر بها أمة ما حتى لا تؤدى ادوارا أدتها من قبل أو تؤدى أدوارا لـــم تأت بعد . وفى كلتـــا الحالتين تنسى دورها الحاضر ! الفلسفة اذن هى وعى بالزمان وبالتطور وبالتاريخ ، وادراك للمرحلة التى تمر بها الأمة . لذلك ظهرت فلسفات التاريخ لتحـــديد قانون لتطور الشعوب وتحديد المرحلة الراهنة التى يمر بها كل شعب . لقد قام فلاسفة التاريخ المحدثون بتتبع مسار الغرب ، وانتهوا الى وصف بداياته ، وحددوا مساره ، وتنبؤوا بنهاياته . تحدث اشبنجلر عن أفول الغرب ، وتوينبى عن نهاية الحضارة الغربية ، وهوسرل عن أزمة العلوم الأوربية باعتبارها أزمة للوعى الأوربى ، وبرجسون عن تدهور الغرب وآلاته التى تصنع آلهة جديدة . الفلسفة اذن بلا وعى بالتاريخ تجعل الشعب بلا مسار ، بلا ماض أو حاضر أو مستقبل ، مجرد

متيافيزيقا تربطه بالخلود ، بكل الزمان دون تحديد أية لحظة فيه • لذلك ارتبطت العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية والعلوم التاريخية معا ارتباط الوعى الفردى بالوعى الاجتماعى بالوعى التاريخى • بل ان الأصل هى العلوم التاريخية والتى من ثناياها نشأت العلوم الاجتماعية ثم العلوم الانسانية المستقلة وكأن الانسان تاريخ ثم مجتمع ثم فرد !

وكما أن فى كل حضارة فلسفة اجتماعية ولدى كل فيلسوف رؤية اجتماعية وتطبيقا لفلسفته النظرية فى السياسة كذلك لكل حضارة فلسفة فى التاريخ ورؤية لمسار التطور البشرى كما أن لكل فيلسوف تطبيقا لفلسته النظرية فى التاريخ • فأرسطو فيلسوف مؤرخ للفلسفة اليونانية • وأوغسطين فيلسوف ومؤرخ للنظم السياسية سواء لمدينة الله أو لمدينة الشيطان • وكان يواقيم الفيورى فى القرن الثانى عشر أول من صاغ فلسفة للتاريخ بعد تحويل التثليث من مستواه الرأسى الى مستواه الأفقى فى ثلاث مراحل : مرحلة الأب ، ومرحلة الابن ثم مرحلة الروح القدس[٩] • ولكن العصور الأوربية الحديثة منذ هردر ولسنج وكانط وفيكو وكندرسيه وتورجو حتى فلاسفة القرن التاسع عشر هيجل وماركس وأوجست كونت وكورنو ثم فلاسفة القرن العشرين عند كروتشة واشبنجلر وتوينبى هى التى جعلت فلسفة التاريخ رواية لقصة الوعى الأوربى بمراحله المختلفة وكأنه قد اكتمل فى القرن العشرين كما اكتملت الفلسفة اليونانية من قبل على يد أرسطو مؤرخا •

وبالنسبة لنا ، تستطيع الفلسفة أن تكتشف أننا الآن فى مرحلتنا الثالثة بعد أن اكتملت الدورة الاولى للحضارة الاسلامية على مدى سبعة قرون بلغت ذروتها فى القرن الرابع الهجرى وهى الفترة التى أرخ ابن خلدون لنشأتها وتطورها ونهايتها • ثم تلتها فترة ثانية عصر الشروح والملخصات الذى تم فيه تدوين الحضارة لنفسها بعد أن توقفت عن الابداع وتطوير العلوم القديمة • عملت الذاكرة بعد أن

---

(٩) أنظر دراستنا
« Joachim of Fiore and Islam » in Religious Dialogue and Revolution, PP. 95 - 108, Anglo - Egyptian Bookshop Cairo, 1977

توقف العقل ، ونشأ التدوين بعد أن تحقق الابداع • ومنذ القرن الماضى ونحن فى بداية مرحلة ثالثة منذ الحركة الاصلاحية الحديثة • ونحاول منذ أربعة أجيال بداية نهضة جديدة وابداعا ثانيا يخلص الأمة من هزائمها ، ويقيل نهضتها الأخيرة من عثرتها • ولقد قام جيلنا بثورات حديثة لتغيير النظم الاجتماعية القديمة ، ونال البعض منا الاستقلال الوطنى ، قام البعض بالثورة ، ونال البعض الآخر الثروة • واجتمعت الثورة والثروة فى جيل واحد • ولكن القضية الان هى تعثر الثورات العربية الحديثة وانقلاب البعض منها الى ثورات مضادة أو ثورات عاجزة عن مواجهة احتلال الأراضى ومقاومة العدو • كما أن القضية هى ظهور عصر ما بعد النفط ، وتقلص مشاريع التنمية واختراق الأوبك ، والحروب الطاحنة الجانبية وتفتيت الأمة • مهمة الفلسفة اذن هو أعادة النظر فى تعثر الثورات العربية المعاصرة ، والتمهيد لعصر ما بعد النفط ، وتأسيس مجتمعات لها مصادرها من أنتاجها القومى •

ثالثا : ألفلسفة كمشروع قومى حديث •

والفلسفة بالنسبة لجيلنا قادرة على صياغة مشروع قومى حديث للأمة ، تثبت به ذاتيتها وتحقق به مصالحها • ولقد تمت صياغة هذا المشروع منذ القرن الماضى ومازال قائما • وكلما تحققت احدى خطواته تعثر من جديد ، وعدنا كما بدأنا بحيث لم يحدث تراكم تاريخى كاف يولد تغيرا كيفيا فى رؤيتنا للواقع وتجديد المشروع واعادة صياغته • مازال مشروعنا القومى الذى حددناه منذ القرن الماضى نظريا ، خطابيا ، شعاريا ، دعائيا • بينه وبين الواقع هوة سحيقة • كلما ازدادت الخطابة النظرية ازداد الواقع عنه ابتعادا • لم تتحول من الشعارات الى اعادة بناء حياتنا الثقافية والفكرية والعقائدية والتشريعية ونظمنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية وقيمنا الاخلاقية والجمالية بناء على متطلبات هذا المشروع ومراحل تحققه(١٠) •

---

(١٠) أنظر دراستنا : « جمال الدين الأفغانى » ، قضايا معاصرة ، الجزء الاول من فكرنا المعاصر ص ٩١ — ١١٠ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، وايضا « كبوة الاصلاح » ، دراسات فلسفية . الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ •

هذا المشروع القومي الحديث هو التعبير عن الواقع الحالي على مستوى النظر والاهداف • هو رؤية مباشرة للواقع من حيث هو متطلبات تعبر عن حاجة العصر ومصلحة الجماهير • ولما كانت الفلسفة ثقافة وحضارة فانها تدخل ضمن هذه الرؤية للواقع اما كعامل مساعد أو كعامل مزاحم ، لتقوية هذه الرؤية أو لاضعافها • ولما كانت الفلسفة فى جيلنا تنبع من مصدرين ، التراث القديم والتراث الغربى فان الرؤية المباشرة للواقع تصبح المصدر الثالث للفلسفة ، ومن هنا يجد المثقف العربى نفسه فى جبهات ثلاث : ثنتان حضاريتان : التراث القديم والتراث الغربى ، وثالثة وهى الواقع المباشر • ولما كان يسهل التعامل مع التراثين الحضاريين بالقراءة والتأويل والاختيار واعادة البناء فى حين أنه يصعب تبديل الواقع فان مهمة الفلسفة فى بناء المشروع القومى الحديث انما يكون عن طريق اعادة بناء التراثين القديم والغربى بناء على هذه الرؤية المباشرة للواقع ، أى تركيب الثقافتين على الواقع ، وصب الرافدين فى منبع الحاضر ، وجعل الثقافة برافديها كعامل مساعد لتقوية الرؤية المباشرة للواقع تنظيرا وعلمية وتعبئة للجماهير[11] •

ويمكن تحديد أهداف العصر بصرف النظر عن أسمائها فى سبعة وبصرف النظر عن ترتيبها الذى قد تختلف فيه الرؤى السياسية • ويمكن للفلسفة المستمدة من التراثين ، القديم والغربى أن تساهم نظريا من حيث التصورات والمفاهيم وعمليا من حيث تعبئة الجماهير على النحو الآتى :

١ — **تحرير الأرض المحتلة :** وهو الهدف الأول الذى مازال قائما منذ الاستعمار الأوربى الحديث وحتى الى ما بعد حركات الاستقلال الحديثة التى حررت أجزاء من الأرض وبقت الأجزاء الأخرى خاضعة للاحتلال فى فلسطين ، وسبته ، ومليلية ، وكشمير ، وأفغانستان • قد يكون هذا الاحتلال فى صورة قواعد عسكرية أو أحلاف أو تبعية

---

(11) انظر دراستنا : « موقفنا الحضارى » ، بحوث المؤتمر الفلسفى العربى الأول ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ ، وايضا « الفكر الاسلامى والتخطيط لدوره الثقافى المستقبلى » فى دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨.

سياسية أو مناورات مشتركة أو كمصدر خارجي للتسليح المشروط • تحرير الأرض هدف قومي ضد الاحتلال المباشر أولا قبـل أشكال الاحتلال الأخرى مثل التبعية الاقتصادية ، والغزو الثقافي ، وارتهان الارادة الوطنية • ولا يكفي في ذلك « يوم الأرض » أو « فرقة الأرض » بل اظهار الأرض في وعينا القومي واعادة بناء ثقافتنا القومية ارتكازا عليها • فالأرض مفهوم رئيسي في تراثنا القديم ابتداء من مصدره الأول وهو القرآن الكريم « اله السموات والأرض » ، « رب السموات والأرض » ، « وهو الذي في السماء اله وفي الأرض اله » • وفي علم أصول الدين ، العالم طريق الى الله ، ومن العالم الحادث يثبت الله القديم • وفي علوم التصوف وكما ظهرت في الفلسفة الانهية ، الله والعالم حقيقة واحدة ، واجهتان لشيء واحد ، الحق والخلق • وفي علم أصول الفقه الواقع أساس النص في التشريع نشأة وتطورا وتطبيقا في تخريج المناط وتحقيق المناط وتنقيح المناط • ولكننا مازلنا حتى الآن في حرج من اعلان ذلك نتيجة لتطهرنا القديم ونقص في وعينا السياسي النظري •

لقد استطاعت الصهيونية ايجاد الصلة بين الله والأرض في أرض المعاد • فاليهودي لا يستطيع أن يعبد الله دون أرض ومدينة ومعبـد وهيكل • فدفاعه عن الأرض تأكيد لله واثبات له • والفلسفة قادرة على أن تصوغ عقيدة في الأرض كما استطاع فشتة في ألمانيا صياغـة فلسفة في المقاومة لطرد المحتل بعد غزو نابليون لأراضي ألمانيا « أنا أقاوم فأنا اذن موجود » ، « الآن تضع ذاتها حين تقاوم » • وحتى الآن لدينا شعر المقاومة ، وأدب المقاومة ، وليست لدينا فلسفة المقاومة • ان الاستنفار بالجهاد حمية ولكن تحرير الأرض جزء من العقيدة لدرجة تحريم الفقهاء الصلاة في الأرض المغصوبة اذ لا يجتمع فعلان حسن وقبيح في موضوع واحد • تحرير الأرض أولا ثم الصـلاة فيهـا ثانيا[١٢] • يمكن اذن ابراز ارتباط الفلسفة بالأرض في كل حضـارة ولدى كل شعب وفي كل تراث : الأرض في الأدب الروسي عند أنصار

---

(١٢) انظر مقالنا : « هل تجوز الصلاة في الدار المغصوبة ؟ » ، الجزء السابع : اليمين واليسار في الفكر الديني •

الحركة السلافية ، الأرض فى حركات التحرر الوطنى ، الأرض فى أدب المقاومة الفلسطينية كنماذج لصياغة فلسفة فى الأرض ، ومتيافيزيقا الأرض ، وجماليات الأرض .. الخ .

٢ ـ اطلاق الحريات : مما لاشك فيه أن أمتنا تعانى من أزمة فى الحريات العامة . فكثير من الأنظمة تقوم على الرأى الواحد ، والحزب الواحد ، والتنظيم الواحد ، والصحافة الواحدة باستثناء القليل . وان غياب الرأى الاخر اضرار بالفكر ، ونذير بسوء العاقبة . وتضرب بمجتمعاتنا المثل فى عدد نزلاء السجون وضحايا حرية الرأى . وتثار لدينا باستمرار قضايا حقوق الانسان . والفلسفة قادرة على الدفاع عن حرية الرأى الآخر . الفلسفة حوار ، وتبادل وجهات النظر ، لا تكفر أحدا ، وتقبل كل شىء . حجتها البرهان ، ومقياسها الصدق الداخلى . لا تعتمد على سلطان الا سلطان العقل ، ولا تخاف سلطه ، ولا تداهن سلطانا . وهى فى هذا مثل الدين تماما فى تأكيده على ضرورة النصيحة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعن خلق الله الناس أحرارا . وان أول ركن من أركان الاسلام « أشهد أن لا اله الا الله .. » لهو اعلان عن حرية المسلم . فهو يشهد ويتكلم ، لا يصمت ولا يدارى . فالساكت عن الحق شيطان أخرس . والشهادة شهادة على العصر ، ومنها يأتى الشهيد الذى يسقط شهيدا جزاء شهادته من جراء قول الحق فى وجه حاكم ظالم . تضم الشهادة فعلين : الأول فعل نفى « لا اله » ، والثانى فعل اثبات إلا الله » . ينفى المسلم من شعوره كل مظاهر الطاغوت ، كل آلهة العصر المزيفة . فاذا ما تحرر منها قام بالفعل الموجب الثانى « إلا الله » اثباتا للحق الواحد الذى يتساوى أمامه الجميع[١٣] . واذا كان القدماء قد اختاروا الجبر أو الكسب نظرا لظروفهم الخاصة ورغبة فى الاستسلام للسلطان بغية الاستقرار وحصارا للمعارضة فان من مصلحتنا اليوم ابراز حرية الاختيار حتى يسترد الناس مصيرهم

---

(١٣) أنظر مقالنا : ماذا تعنى « اشهد ان لا اله الا الله » ، الجزء السابق .

بأيديهم ضد طغيان الدولة واحتكارها الرأى والنظر • واذا كان الصوفية قديما قد اسقطوا التدبير فان من صالحنا اليوم اثبات التدبير وقدرة الانسان على تسيير أموره • واذا كان بعض فقهاء السلطان قد أفتوا بجواز الاستيلاء على السلطة بالشوكة فان من مصلحتنا حاليا الاصرار على أن الامامة بيعة وعقد واختيار • واذا كان القدماء قد أساءوا تأويل « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فان من واجبنا اليوم ابراز أنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » • واذا كان الحكماء قديما قد تصوروا الكون فى اطار من الحتمية فان من حقنا اليوم أن نتصور الكون فى اطار من الحرية الانسانية القادرة على تشكيله • ولقد حاولنا ذلك فى التراث الغربي لأنه أقل خطورة وأقل اثارة للمشاكل • فترجمنا دستور أثينا وسياسة أرسطو اعتزازا بالليبرالية القديمة • ولكننا عندما أتينا الى العصر الحاضر ربطنا بين الليبرالية والرأسمالية كما هو الحال فى الغرب الحديث • فتحولت الليبرالية الى محافظةوالرأسمالية الى اقطاع نظرا لأن المجتمع كله لم ينتقل من مرحلة الى أخرى • ونقلنا تصورات ديكارت وكانط للحرية العاقلة • ونشرنا آراء الوجوديين عن الحرية والالتزام ولكننا حتى الآن تنقصنا فلسفة فى الحرية وممارسات فى التحرر دفاعا عن الحريات السياسية وفى اطار الوحدة الوطنيه •

٣ — **العدالة الاجتماعيــة** : نحن أمة يصيبهــا الجوع والقحط والجفاف وسوء التغذية عند الأغلبية بينما يضرب بها المثل فى تضخم الثروات وتكدس الأموال والبذخ والترف عند الأقلية • هــذا التفاوت الضخم فى الدخول فى أرجاء الأمة بين من يهلكون جوعا وبين من يموتون بطنة أحد أسباب انتشار المذاهب الغربية الداعية للمساواة والعدالــة الاجتماعية • والفلسفة قادرة على حل قضية الغنى والفقر والمساهمة فكريا وعلميا فى صياغة فلسفة للفقر وفقر الفلسفة الداعية الى الغنى ، وتأسيس نظريات فى العدالة الاجتماعية ، وايجاد الأساليب لاعادة توزيع الدخول • وما أسهل تأصيل ذلك فى التراث القديم فى نظرية العمل كمصدر وحيد للقيمة بدليل تحريم الربا ، وجعل المصالح العامة فى يد الدولة منعا

للاستغلال والاحتكار ، وحق الحاكم فى تأميم الوسائل العامة للانتاج دفاعا عن الصالح العام ، وحق الفقراء فى أموال الأغنياء ، وانهيار المجتمعات القائمة على التفاوت الطبيعى ، « وبئر معطلة وقصر مشيد » ، والله باعتباره اشباعا من جوع وأمانا من خوف « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » • وفى نظرية الاستخلاف ما يكفى للحد من الملكية الخاصة المستغلة • فالمال مال الله ، والانسان مستخلف فيه • له حق الانتفاع والتصرف والاستثمار ، وليس له حق الاكتناز والاحتكار والاستغلال •

الملكية وظيفة اجتماعية وليس شيئا يتم الاستحواذ عليه • وان الركاز أى كل ما هو فى باطن الأرض مثل الذهب والحديد والنحاس ، وبلغتنا النفط ، لا تجوز ملكيته ملكية خاصة لأنه ملك للأمة • كل ذلك عناصر من التراث يمكن أن تعطينا فلسفة اجتماعية قادرة على حل قضية الغنى والفقر • والأمثلة فى التراث الغربى كثيرة أيضا ترجمناها منذ برودون وسان سيمون وماركس وروبرت أوين وكل أنواع الاشتراكات الغربية • مازالت موضع شبهة وخوف ، نقترب منها بحذر ، وقد نستبعد بعضها • ان التراث الاشتراكى الفكرى الغربى يفوق الآن القرن الواحد فى فكرنا المعاصر كما أن تأصيل مفاهيم العدالة الاجتماعية فى تراثنا القديم قد بدأ منذ وقت طويل • ولكن حتى الآن ، لم تنشأ فلسفة متكاملة للفقر والغنى فى لب الفلسفة العامة التى ظلت مباحث فى المعرفة والوجود والأخلاق الفردية • ان الفلسفة قادرة على أن تتجاوز مرحلة الدعاية من خلال أجهزة الاعلام ومرحله النقل النظرى للفلسفات الغربية بلا اختيار وتوجيه مقصود (١٤) •

٤ — **وحدة الأمة :** وتظل وحدة الأمة مطلبا أساسيا من مطالبنا القومية بعد عصر تجزئة مصطنعة موروثة من الاستعمار عندما قسمت الدول الأوربية الكبرى العالم الاسلامى فيما بينها خاصة بعد انهيار

(١٤) أنظر بحثينا « الدين والتنمية فى مصر » ، « الدين وتوزيع الدخل القومى فى مصر الجزء الرابع : الدين والتنمية القومية •

دولة الخلافة بعد الحرب الأولى وخلق مشاكل حدود وهمية مصطنعة لبث التفرقة واحداث الحروب بين الاخوة الاعداء كما نشاهد هـذه الأيام من التدمير المتبادل والدماء المراقة وتشتيت جبهـة الصراع العربى الأولى فى فلسطين الى جبهات أخرى ثانوية هنـا وهنـاك • تستطيع الفلسفة بفكرتها عن الواحد ، وحدة الذات ، ووحدة الأمة ، ووحدة الكون ، ووحدانية الله ، وضع أسس للوحدة الشاملة ، فالله واحد • وتنعكس هذه الوحدانية فى الأمة الواحدة ، « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٢١ : ٩٢) ، « وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » (٢٣ : ٥٢) • وان أى توحيد للأمة يقوم على أساس عرقى أو لغوى أو مصلحى صرف ليظل قاصراً عن ادراك الأساس النظرى للوحدة • بل ان خلق الشـعوب والقبـائل والأمم المختلفة انما تم لأجل التعارف وخلق وحدة المعرفة بينهما • فالتعدد من أجل الوحدة • ويمكن تأصـيل وحدة الأمة فى تراثنـا القديم فى وحدانية الله كأحد أوصاف الذات الالهية وفى وحدة مصدر الوحى وفى نظريات الوحدة عند الصوفية ابتداء من وحدة الذات الانسانيـة الى وحدة الشهود الى وحدة الوجود • ونظرية الوحدة فى تراثنا القديم هى بلورة لنظريات الوحدة فى الشرق القديم فى الهند خاصة ، وحدة الانسان مع الطبيعة والكون ، ووحدة حضارة ما بين النهرين ، وحـدة الله والطبيعة ، ووحدة مصر القديمة ، وحدة الله مع النفس والطبيعة والكون والدولة • وفى التراث الغربى الحديث تحققت مفاهيم الوحدة عمليا فى نشأة الدول القومية مثل الوحدة الألمـانية ، والوحدة الايطالية • ودون مفهوم أصيل للوحدة والاقتصار على وحدة المصالح والاعراق تتعثر التجارب كما هو الحال فى وحدة الأراضى الروسية ، والوحدة الامريكية ، والوحدة الأوربية •

٥ ـ **التنمية القومية** : ويضرب بأمتنا المثل فى التخلف الشامل وليس فقط فى التخلف الاقتصادى • فمازال اقتصادنا يعتمد عـلى الخارج أما فى التجارة بتصدير النفط أو فى الغذاء باستيراد المـواد

الغذائية أو فى الدفاع باستيراد السلاح • كما أننا نعتمد فى تكنولوجيا الصناعة على الخارج ونقل الخبرات • وعلى أقصى تقدير تصنف الأمة فى عداد الدول النامية اذ أن معظمنا فى آسيا وأفريقيا أى أننا ننتسب الى العالم الثالث الذى يحتاج الى تنمية شاملة فى الزراعة والصناعة والخدمات والتعليم والصحة ووسائل الاتصال •• الخ • والفلسفة قادرة على الدخول فى معارك التنمية اعتمادا على تراث الأمة • ففى القرآن الكريم الأرض خضراء ، ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، والأرض الصفراء هشيم تذروه الرياح • وقد سخر الله الطبيعة للانسان كى يكتشف قوانينها ويسيطر عليها ويستخدمها لصالحه • فالانسان سيد الكون بأمر الله ، وخليفة الله فى الأرض « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » (٢ : ٣٠) ، « يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق » (٣٨ : ٢٦) • فالخلافة هنا اقتصادية للتعمير وسياسية للحكم[١٥] • بل ان « القدم » وهو احدى صفات الذات الالهية من التقدم أى السبق الى الامام وليس بالضرورة التقدم الى الخلف • وان لفظ التقدم لفظ قرآنى « لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » (٧٤ : ٣٧) • وان ما نسميه نحن بلغة عصرنا التقدمى والمتخلف يسميه القرآن بلغة المستقدم والمستأخر ، « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » (١٥ ، ٢٤) • وفى تراثنا القديم امكانية تأصيل مفاهيم التنمية والتقدم • ففى علم أصول الدين فى مقدماته النظرية الأولى ، هناك أنواع التقدم بالزمان وبالمكان وبالرتبة وبالعلية وبالشرف •• الخ • وفى الفلسفة هناك التقدم فى الزمان وأنواع الحركة • وفى علوم التصوف يتدرج الوعى ، وتتجلى النبوة خطوة خطوة فى الزمان ، جيلا بعد جيل ، وعصرا بعد عصر • وفى أصول الفقه يتواتر الاجماع جيلا بعد جيل ، فلكل جيل اجماعه ، ولكل عصر مصالحه • والجيل اللاحق قادر على عقد اجماعه حتى ولو خالف اجماع العصر السابق • ولقد

---

(١٥) انظر دراستنا : Human Subservience of Nature, Stockholm, 1980
وايضا فى كتابنا Religion, Ideology and Development

أصبح مفهوم التقدم والتغير والارتقاء دعامة التشريع على ما هو معروف فى علوم القرآن باسم « الناسخ والمنسوخ » أى تطور التشريع فى الزمان طبقا لتطور القدرات(١٦) • وفى التراث الغربى ، أصبح مفهوم التقدم هو دعامة العصور الحديثة منذ نشأته فى فلسفة التاريخ عند هردر ولسنج وكانط وفيكو وتورجو وكوندرسيه حتى فلسفات التاريخ فى القرن التاسع عشر عند هيجل وماركس وكورنو ، ويظل الغرب حتى الآن بالرغم من توقف المفهوم وتحوله الى مفهوم النكوص أو الانهيار أنه وحده هو الذى صاغ مفهوم التقدم وأقام فلسفات فى التقدم • وقد قامت كل خطط التنمية فى الغرب على فلسفات التقدم • لذلك كانت فلسفات التاريخ فى الغرب أحد الروافد لاقامة فلسفة قومية تقوم على مفهوم التقدم الى الامام وليس التقدم الى أعلى أو التقدم الى الداخل أو التقدم الى الوراء(١٧) • وما أكثر المجلات الثقافية التى حاولت منذ فجر النهضة الحديثة التى أخذت مفهوم التقدم شعارا لها ولكننا مازلنا حتى الآن دون تأصيل نظرى له كأساس لخطة قومية فى التنمية •

٦ — **الهوية الحضارية** : وتختلف أزمة الهوية الحضارية من قطر الى قطر وان كان هناك شعور عام بأنها هدف قومى عام بصرف النظر عن اختلاف درجة الشدة من قطر الى آخر • وقد نشأت الأزمة منذ اتصالنا بالغرب الحديث وخلق مصدر جديد للثقافة ونمط جديد للسلوك وأخذ من الخارج دون تطوير طبيعى للقديم بعد أن توقفت الحضارة فى عصر الشروح والملخصات • فازدوجت حياتنا الثقافية والسلوكية بين موروث قديم ووافد جديد ، بين أغلبية وأقلية ، بين محكومين وحكام • وكلما ازداد الرافد قوة وانتشارا زادت المحافظة التقليدية دفاعا وتمسكا بالقديم ، وقد حاولت الحركة الاصلاحية

---

(١٦) انظر دراستنا : علم المستقبليات (عالم الغد بين الأمس واليوم) فى دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ •

(١٧) انظر مقدمة كتابنا : لسنج : تربية الجنس البشرى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ •

الحفاظ على المصدرين وشق الطريق بين الموروث القديم والوافد الدخيل فى التمسك بالهوية الحضارية مع التفتح على ثقافات العصر بين العثمانيين أنصار الخلافة وبين العلمانيين أنصار الاتحاد والترقى . وازدحمت المفاهيم ، وتداخلت الهويات القومية والحضارية والثقافية . ونشأ الخلاف بين أنصار الاسلام وأنصار العروبة ، بين الهوية الحضارية والهوية القومية . والحقيقة أن الهوية بصرف النظر عن وصفها ، قومية أو وطنية أو ثقافية أو حضارية هى أساسا اثبات الذات فى مواجهة الغير ، اثبات الأنا فى مقابل الآخر . فهى أقرب الى الكوجيتو الحضارى منها الى اثبات واقعة قومية . ويمكن تأكيدها اعتمادا على تراثنا القديم فى تحريم موالاة الغير والتقابل بين الأنا والآخر « قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » . لا يجوز اذن موالاة المسلم لغير المسلم ، « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » (٣ : ٢٨) ، « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا » (٤ : ١٣٩) ، « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين (٤ : ١٤٤) ، « يأيها الذين آمنوا لاتتخذو اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم » (٥ : ١٥) ، « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء » (٥ : ٥٧) ، « يأيها الذين آمنو لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » (٦٠ : ١)[١٨] . وفى التراث الغربى طالما تحدثت العلوم الاجتماعية عن الهوية الثقافية كأساس للتنمية فى مواجهة الاغتراب . فقد كان من أهداف الاستعمار القضاء على الهويات الثقافية للشعوب كمقدمة للقضاء على الهويات القومية حتى يسهل عليه السيطرة العسكرية والهيمنة الثقافية . وكانت حجة الاستعمار فى الاستمرار أنه لا توجد هويات قومية أو ثقافية

(١٨) انظر دراستنا « هل يجوز شرعا الصلح مع بنى اسرائيل ؟ » ، اليسار الاسلامى القاهرة : ١٩٨١ وأيضا ، الجزء الثالث : الدين والنضال الوطنى .

للمستعمرات ! وما زال الغزو الثقافى مستمرا بالرغم من تغير أشكاله بما فى ذلك نقل التكنولوجيا • واذا كانت مشكلة « الهوية والاختلاف » هى المشكلة الميتافيزيقية الأولى فان الفلسفة تكون قادرة على المساهمة فى حل هذه القضية التى تكون أحد معالم مشروعنا القومى الحديث •.

٧ — **تعبئة الجماهير** : وهى احدى قضايا عصرنا حتى ولو بدت أقل فلسفية وأكثر عملية • والحقيقة أنها القضية العلمية العملية الأولى لأنه بدون الجماهير ومشاركتها لا يمكن تحقيق أى هدف قومى من الأهداف التى تكون ملامح مشروعنا القومى الحديث • اقتصر دور الجماهير على التأييد المفروض عليها من خلال أجهزة الاعلام أو المعارضة المكتومة من خلال الأحزاب والتنظيمات السرية أو اللامبالاة وعدم الاكتراث وهو موقف الأغلبية الصامتة منها • وفى حركاتنا الاصلاحية الحديثة كان حلما لدى الافغانى تكوين حزب جماهيرى شعبى يقوم بتحقيق مشروع الاصلاح الذى مازال هو الصياغة الأولى لمشروعنا القومى الحديث ولكنه لم يتحقق الا نظرا وفيما سماه رشيد رضا حزب الاصلاح وعملا لدى الاخوان المسلمين عند حسن البنا والذى انتهى بصراعه مع الثورة المصرية ثم تحوله فى داخل السجون الى الجماعات الاسلامية الحالية[١٩] • ويمكن تأصيل هذا الهدف أعنى تعبئة الجماهير من خلال تراثنا وممارساتنا القديمة • ففكرة الحزب ، حزب الله ، فكرة قرآنية فى مقابل الاحزاب • فهو الحزب الغالب « فان حزب الله هم الغالبون » (٥ : ٥٦) ، وهو الحزب الناجح « الا ان حزب الله هم المفلحون » (٥٨ : ٢٢) • ولقد انتشر الاسلام وتحول الى دولة بفضل الحزب الاسلامى ، الجيل القرآنى الفريد ، جيل الصحابة الأوائل من المهاجرين والانصار • قادته هم الأمة الذين يتوجهون بالنصيحة ، ويقومون بالأمر بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويدافعون عن مصالح الأمة • وفكرة الجمهور فكرة شرعية • فالجمهور هم الغالبية من فقهاء الأمة

---

(١٩) انظر دراستنا « كبوة الاصلاح » ، دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، وايضا « الاصولية الاسلامية » ، الجزء السادس •

الذين لا يخشون فى الله لومة لائم ، وينصرون الحق ضد الباطل ، والعدل ضد الظلم . وفى التراث الغربى أصبحت فكرة « الجماهير » فكرة فلسفية ، وعصر من العصور ، اذ أننا نعيش الآن فى عصر الجماهير[٢٠] . ولقد سماها ماركس البروليتاريا ، وجعلها الوريث الوحيد للايديولوجيا الالمانية ، واجهتان لعملة واحدة ، العمل فى مقابل النظر ، تغيير العالم فى مقابل فهمه . لذلك كان العمل السياسى جزءا لا يتجزأ من العمل الفلسفى ، وكان الحزب الثورى أحد مهام التراث والتجديد[٢١] .

تلك هى الأهداف الوطنية السبعة التى حددها جيلنا والتى تمثل تحديات عصره الكبرى والتى تكون العناصر الرئيسية فى مشروعه القومى الحديث . والفلسفة قادرة على أن تتبناها وتؤهلها فى التراثين القديم والغربى اللذين يكونان المصدرين الرئيسين فى ثقافتنا المعاصرة . وعلى هذا النحو يكون واقعنا المعاصر أساس بناء هاتين الثقافتين الموروثة والوافدة . عندئذ لا تكون ثمة شكوى من عزلة الثقافة عن الواقع . ولا يكون ثمة عتاب للفلسفة أنها لم تقم بدور فى جيلنا ألا وهو المساهمة فى صياغة مشروعنا القومى الحديث .

---

(٢٠) أنظر دراستنا : « ثورة الجماهير عند أورتيجا اى جاسيه » ، دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

(٢١) أنظر كتابنا « التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم » ص ٣٧ ــ ٥٥ ، الطبعة الثالثة ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٧ .

اجهـــاض العقـــول *

كثر الحديث فى السنوات الأخيرة عن هجرة العقول ، واستنزاف الثروات البشرية فى البلاد النامية ، ونهب خبرات أبنائها لحســاب الدول المتقدمة حتى لم يعد التنمية على هذا الخطر من داخل البــلاد أو من المحافل الدولية يثير أى فزع لدى الحكام أو الشعوب وأصبحت الهجرة أمرا واقعا تشجعه الحكومات فى البلاد النامية لتخفيف ضغط المعارضة السياســية عليها ســواء من صــفوة المثقفين أو من جمهور الخريجين أو من مجموع قوى الشعب العامل حتى تأمن الانفجار الداخلى الذى يعرض نظمها للانهيار . وتقبله البلاد المتقدمة بصدر رحب ، بالرغم مما تدعيه من صعوبات قوانين الهجرة امعــانا فى تفريغ بلاد المواد الخام من طاقاتها البشرية وزيادة لقدرات البلاد المتقــدمة فى الخلق والابداع والسيطرة على موارد الطبيعة وتسخير قوانينها من أجل السيادة على شعوب العالم والهيمنة على قدراتها البشرية .

ولكن آن الأوان للحديث عن « اجهاض العقول » ، عقول العلماء الصامدين داخل البلاد النامية الذين مازالوا يشاركون فى معارك التحرر والاستقلال ويساهمون فى عمليات التنمية والتغير الاجتماعى ، مدافعين عن الحرية ، ومطالبين بالديمقراطية ، ومنادين بالعدالة الاجتماعية ، وحارسين لأمتهم ، وواضعين لها علامات على الطريق حتى يستمر التاريخ من خلالهم ، وتبقى روح الأمة نابضة فيهم . وكأن النزيف البشرى الخارجى للبلاد النامية لم يتوقف على هجرة العقول التقليدية بل تحول الى نزيف داخلى يهــدد الجسم البشرى كله بالموت البطىء والفناء التام . وكأن هناك عقلا ذكيا شاملا يخطط لاحتواء البــلاد النامية وامتصاص قدراتها الابداعية وتفريغ طاقاتها بعد أن فرحت باستقلالها الوطنى وأخذت مظاهر السلطة والحكم ، وأشكال الدولة والسيادة ، سفراء وممثلين ، وزراء ومديرين ، تشريفات ونياشين ،

---

* الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٩٨٠ .

استقبالات وأعياد ، وبطولات وانتصارات ، وأعلام وأناشيد • والنظام الاجتماعي نفسه يقوم بالحراسة والابقاء على هذا الطنين الأجوف لابعاد الشعوب عن أخذ مصائرها بأيديها وحصار الملكات حتى لا تلتف حولها القوى الابداعية الوطنية وتشق طريقها فى سبيل التقدم ، وحكومات البلاد النامية المعوبة فى ايدى هذا « الشيطان الماكر » ، تتحد مصالحها معه من أجل تفريغ قوى الابداع حتى تطمئن النظم السياسية على مستقبلها أولا ، وتضمن لأنفسها الأمان والاستقرار • وقد لا تدرى ماذا يحال لها من شراك تاريخية وحضارية نظرا لأنها ، وهى الشعوب التاريخية ، قد أسقطت البعد التاريخى من شعورها القومى ، فتصير ألعوبة فى أيدى غيرها وهى تعلن أنها تتمتع بارادة وطنية مستقلة تظهر فى الصراخ الاعلامى وفى الخطب السياسية ، والغاء البيانات ، ومظاهر الابتهاج فى الأعياد الوطنية •

وسيتم وصف هذه الظاهرة ، « اجهاض العقول » ، ابتداء من تحليل التجارب المشتركة عند العقول المجهضة والاحباط العام الذى نشعر به جميعا ، كتاب وأدباء ، علماء وفنانين ، مفكرين وقادة • دون ذكر لأسماء أو لمؤسسات أو لوقائع أو لاحصاءات بل تكتفى بمجرد وصف للماهيات من خلال التجارب المعاشة لدى العلماء والمفكرين والأدباء • وما أسهل أن تأتى الوقائع وتتقابل • ويكون مقياس صدق الوصف حينئذ هو مطابقته لما يمر به كل منا من تجارب وما يحمله من ماهيات يدركها بحدسه الصامت وان لم يتم تحليلها بعقله بعد ، تحاول هذه الدراسة اذن تحليل تجارب الاحباط عند المبدعين فى البلاد النامية وتحويل حديث النفس الخافت الى حديث الأمة الجهور •

١ ـ لماذا اجهاض العقول ؟

ان الامم لاتتحرك الا بعقول أبنائها ، فالعقل هو محرك التاريخ لأنه هو الذى يدرك قوانين الحركة ويوجه اليها طاقات الشعوب • وقد قامت الثورات كلها بعد حركات تنويرية قام بها المفكرون الأحرار معتمدين على العقل وعلى دوره فى الكشف عن الظلم الاجتماعى

والقهر السياسى ارهاصا للاحساس بالظلم والاضطهاد ٠ حدث ذلك فى الثورة الفرنسية لدى المفكرين الاحرار وفى الثورة الاشتراكيــة الكبرى على أيدى الأدباء ٠ ولمــا قامت ثوراتنا الأخــيرة على أيدى الضباط الأحرار دون أن يسبقها تمهيد من المفكرين الاحرار ، الثوريين وليس فقط الليبراليين ، كان لابد أن يحدث صدام بين الضباط والمفكرين فعادت الثورة المثقفين ، وقضت على فضائل الليبراليــة القديمــة الموروثة تاريخيا فى المئتى سنة الأخيرة من الفكر الدينى الاصلاحى أو الفكر العلمانى الغربى او الفكر القومى السياسى ، فيما يتعلق بالفكر وحريــة الرأى ، وحولت فكرنا الوطنى الى مجــرد تبرير للســلطة القائمة ٠ لذلك لم يخش الاستعمار التقليدى هذه الثورات فى بدايتها ولا فى نهايتها الا فيمــا تمثله من مبادىء وطنية عــامة ، ونزعــات اشتراكية واتجاهات لمقاومة الاستعمار ، ورفض للرأسمالية ، ومعاداة للصهيونية ، ومناداة بوحدة شاملة ، عربية وأفريقية ، أفريقية وآسيوية أو وحدة القارات الثلاث أو لدول عدم الانحياز ٠ ولما كانت امكانية هذه الثورات محدودة ، بمواردها الطبيعية ، وبنظمهــا الاجتماعيــة والسياسية من أجل تحقيق هذه الأهداف القومية بالاضافة الى محاصرة أعدائها لها من الخارج فان التحرر الوطنى سرعان ما خبأ بانقلاب هذه الثورات على نفسها ، وعملها ضد مشروعها القومى الأول فى مشروع مضاد ، وقعت فى حبائله ٠ كما أن التحرر الاجتماعى سرعان ما أدى الى ظهور طبقات جديدة ورثت لمجتمع الاقطاعى القديم ، وأصبحت عميلة الرأسمالية العالمية ، بيدها السلطتين السياسية والاقتصادية ٠

وحتى تتأكد الثورات المضادة ، ويتم ترسيخها أتت محاولة أخرى للسيطرة على الأذهان البشرية وحصارها من أجل اجهاضها حتى تستسلم الشعوب تماما وتنتهى آخر قوى المقاومة فيها لأهداف القوى الكبرى التى كثيرا ما تتحد فيما بينها لامتصاص ثروات الشعوب ، والهيمنة على مقدراتها ، واقتسام الغنائم بينها على الرغم مما يبدو من ادعات حول الخلافات الأيديولوجية وتباين النظم السياسية بينها ٠ وكثيرا ما نبه البعض منا الى مخاطر الاستعمار الثقافى الذى يعود فيه الاستعمار

من الباب الخلفي بعد أن تفرح الشعوب بمظاهر الاستقلال السياسى ، وببدايات الاقتصاد الوطنى • وكنا نعنى آنذاك بالاستعمار الثقافى ظاهرة « التغريب » Westernization فى مجتمعاتنا أى تبعية المثقفين للغرب وتقليدهم له ليس فقط فى المظاهر الخارجية من لباس وأسلوب حياة ولغة بل فى قوالبهم الذهنية واتجاهاتهم الحضارية ، والتبشير بأثر الحضارة الغربية من خلال الارساليات الدينية أو مراكز الثقافة التابعة للسفارات الأجنبية • ولكن تحول الأمر من هـذا الاستعمـار الثقافى المباشر الذى يقوم على الدعاية والاعلام الى استعمار وطنى يقـوم على محاصرة مواطن الابداع داخل الشـعوب فى مراكز الابحـاث والمعاهد العلمية والجامعات الوطنية وفى الجمعيات العلمية والمنتديات الأدبية والدوائر الثقافية بوجه عام • فالاستعمار الثقافى الدعائى عن طريق المجلات والنشرات والاذاعات نشاط علنى مفضوح ، ولكن اجهاض العقول من الداخل عن طريق استعمال النظم الوطنية ذاتها ضد أبنائها ونصائح الخبراء وتوجيها تهم أجدى وأبقى واقل علانية واكثر تسترا ، ويلبس ثوب الحق والمصلحة الوطنية • فاذا كان الاستعمار الاقتصادى قد ورث الاستعمار العسكرى ، واذا كان الاستعمار الثقافى المباشر قد ورث الاستعمار الاقتصادى ، فان الاستعمار الحضـارى الحـالى وهو وريث الاستعمار الثقافى التقليدى من أجل انهـاء خصوصيات الحضارات المستقلة والتى لها جذورها التاريخية العريقة والتى يخشى منها فى المستقبل نظرا لامكانياتها فى توليد فكر أصيل يتحول الى حركات شعبية تدافع عن الخصوصية والاصالة وهما اكبر خطران يواجهان القوى العظمى التى تريد الهيمنة على باقى الشعوب •

الهدف اذن من « اجهاض العقول » هو السيطرة على امكانيات الابداع لدى الشـعوب ذات التاريخ العريق وادخالها فى النطـاق الحضارى للغرب الذى مازال يمثل بالنسبة لنا التحـدى الحضـارى الأعظم حتى تستمر التبعية للغرب والتقليد لنظمه وتبنى قيمه ومثله ؛ ولا ابداع حيث التقليد ، ولا خلق حيث التبعية • وبالتالى ، تسـتمر الشعوب التاريخية فى النقل عن الغرب خاصة اذا كان الغـرب سريع

الانتاج ولا تستطيع الشعوب التاريخية ــ كما يقال دائما ــ اللحاق به ترجمة أو نقلا ، قراءة أو تمثلا ، وبالتالي تظل لا هثة حتى يتعبها العدو ، فتقف عاجزة ، وتصاب بعقدة النقص ، وتتحول الى شعوب تابعة الى الأبد ، من الدرجة الثانية أو الثالثة ، مهمتها النقل والاستيعاب دون الخلق والابداع • ثم يتحول ذلك الوضع الى تأكيد ملموس للنظرية العنصرية بأن الغرب وحده هو الخالق ، وما سواه من الشعوب ، بالرغم من جذورها التاريخية ، ليس أمامها الا التقليد • فاذا ما أصرت القوى الوطنية الابداعية فى الشعوب « المتحررة حديثا » والمتخلفة دائما على أن تكون خالقة فليس أمامها الا تقليد نمط الغرب بعدائه للدين ، وبنقده لكل الموروث ، وبرفضه كل المعطيات السابقة ، وبتذبذبه الدائم بين المذاهب وشكه المطلق • اذا ما ارادت الشعوب غير الأوربية أن تبدع فليس أمامها الا تقليد المبدعين •

الهدف من اجهاض العقول هو « أسر الروح » وذلك لأن روح الشعوب تظهر فى حضاراتها • فاذا ما تم أسر الروح ضمرت الحضارة وأجدبت ثم اندثرت واختفت • كانت تلك خطة الاستعمار الأبيض فى أفريقيا خاصة عندما أسر الرح الزنجية وحول المواطن الأفريقى الى أوربى أبيض ، مسيحى غربى ، يلبس غير ثوبه ، فيما يسمى بعملية التحضير أو التثقيف Acculturation ، الهدف منها ليس اعطاء ثقافة جديدة بل القضاء على الثقافة الوطنية والايقاع فى « التغريب » •

فاذا ما تم « أسر الروح » ضمن الغرب المستقبل لنفسه بعد أن قام بتخدير الشعوب التاريخية ، فالمستقبل يقلق الغرب ، ويثير همومه ، قام لأجله بانشاء « الدراسات المستقبلية » ، وتحدث عن سنه ٢٠٠٠ . وأدرك أزمة الطاقة ، وغزو الفضاء ، والانسان الآلى ، والحاسب الآلى • ثم أوحى بالصدمة الحضارية للشعوب التاريخية واتساع الهوة بينها وبين الشعوب المتقدمة ، واتساع الهوة المتزايدة ، وأن سرعة البلاد النامية للحاق بالتقدم تقليدا وتبعية أقل بكثير من سرعة البلاد المتقدمة على التقدم أشواطا أخرى فى طريق التقدم خلقا وابداعا • وشيئا فشيئا يتم أسر الروح نهائيا •

٢ ـ مظاهر الاجهاض :

وتبدو مظاهر الاجهاض فى محاربة المبدعين الشبان ، أدباء ومفكرين وعلماء بل ومهنيين وفنيين وأسطوات بطرق عديدة مثـل منع النشر ، ضيق امكانيات البحث العلمى ، الرقابة على الفكر ، الغاء المؤتمرات ومظاهر النشاط الجماعى ، تحريم جميع منابر الرأى ووسائل التعبير حتى يتقوقع الشبان على ذواتهم ، ويجترون أدبهم وفكرهم وعلمهم لأنفسهم ، ويمارسـون نشـاطاتهم كما يمارس المراهقـون « العادة السرية » دون أن يجـدوا منفـذا لهم فى العـالم الخـارجى • فيضمرون ويعجزون ، ويتحولون الى أجساد بشرية تكبر وتزداد بطنه ، وتنجب الأولاد ، ويعيشون فى مجتمع يسوده الكبار على مدى أكبر من نصف قرن ، فهم الرواد والمريدون ، يخشـون المنافسـة تسترا على عيوبهم • يصبح المبدعون الشبان موظفين بالهيئات العامة ، يجلسون على مكاتبهم أو فى بيوتهم ، فالأمر سيان ، ويقضون الساعات الطوال ، بين الحضور والانصراف فى العلاقات الاجتماعية وذكر سير الآخرين • ومن ينزوى منهم يكتب الابحاث الطوال للترقية أو للتاريخ ، توضع فى الأدراج • فاذا ما حاول واحد أو أكثر أخذ زمام المبادرة ، والتحرك بطاقاته الخاصة قتلت محاولته فى مهدها ، ووضعت أمامه العراقيل حتى ييأس ويتحطم ، ويلعن الزمن ويكفر بالحياة أو يتمتم « لايكذب نبى الا فى بنى قومه » •

ثم يفرز المجتمع قيما جديدة لهم لامتصاص طاقاتهم تعوضهم عن خلقهم المكتوم وعلى رأسها قيم التسلط والادارة • فيوضع البعض منهم فى السلطة والادارة حتى يكون الصعود البيروقراطى فى المناصب الادارية من أجل سلطة أكبر ـ لامن أجل علم أكبر ـ مطمح العلماء • ولما كانت السلطة فى مجتمع متخلف توحى بالأثرة والتسلط ، وكان المنصب وسيلة للصعود الاجتماعى ينشأ التنافس على السلطة والقتال على المناصب الادارية والاحباط حين عدم الوصول لكثرة العرض وقلة الطلب • فبدل أن يتحد العلماء ويعملون معا فى خلق العلم يتقاتلون

على المناصب ، وبدل أن يعمل المفكرون معا يتناحرون على الاداريات ، وبدل أن يكون المبدعون فريقا يتفرقون شيعا • ولما كانت المناصب الادارية تتبعها درجات مالية تحول التنافس على السلطة الى قتال من أجل لقمة العيش ، ويتلهى الجميع فى لعبة الكراسى الموسيقية وحساب المدخرات ، وفرق المرتب ، واستبدال المعاش انتظارا لحسن الختام • وكلما ازداد الغلاء ازداد التناحر وكأن الضائقة المالية مقصودة بالمبدعين حتى يقاتلون من أجل قوت الحياة اليومية ، ويتركون العلم • ومع ضياع كرامة العلماء لا يحدث خلق أو ابداع •

فاذا ما استطاع بعض المبدعين الصمود ، ورفض هذه القيم الجديدة التى يفرزها لهم المجتمع فانه يسهل ايقاعهم فى المخالفات الادارية وخرق القوانين اذا ما حاولوا التحرك والعمل ، وتحويلهم الى مجالس التأديب والحكم عليهم باللوم أو التأديب وأحيانا الفصل والحرمان حتى يسأم الانسان العمل فى وطنه ويكفر بآداء الواجب • ومعروف أن المبدع دائما يلجأ الى المضمون دون الصورة ، وأن من مظاهر التخلف تغليب الصورة على المضمون كما يظهر ذلك فى البيروقراطية • ينشأ الصدام بين القوى الابداعية للعلماء والأدباء والمفكرين الشبان وبين اللوائح والقوانين والنظم الادارية • والمبدع فى لحظة الخلق لا يفكر فى قانون أو لائحة ، والرئيس فى لحظة الادارة الجدباء لا يفكر الا فى القوانين واللوائح التى يسلطها على رقاب العاملين طوعا أو كرها ، عن حسن نية أو سوء نية ، حقا كان ذلك أم باطلا • فتفتر العزائم ، وتضعف الهمم ، وينال كل عالم جزاء سنمار ، ويتساءل : « وهل جزاء الاحسان الا الاحسان ؟ »

فاذا استطاع المبدع ترك الدنيا لأصحابها ، وعكف على العلم ، وترك المناصب لأهلها ، وعزف عن السلطة ، وحاول تأصيل فكرة أو أخذ موقف أو نقد موروث أو اعادة بناء علم فانه سرعان ما تحوم حوله الشبهات ويتهم بالغرور أو التعالم فى أحسن الأحوال ، وبالالحاد والشيوعية والكفر فى أسوء الأحوال • ولما كان الابداع لا يتم الا بعد

رفض ما هو موجود كان المبدع أيضا رافضا للنظم القائمة ومن ثم سهل اتهامه أيضا بأنه ضد السلطة ، يعمل لحزب المعارضة ، وبالتالى يتم حصاره ، وتشويه سمعته واضطهاده ، وتسليمه للسلطات ، يسلبونه شخصية العالم ويلبسونه شخصية المشاغب ،يصفونه بأنه غير متعاون ، غير اجتماعي ، لا يعيش عصره ولا زمانه ، ولا يوجد فى الصورة ، مثالى ، غير واقعى ، يسىء الى الجميع ، ويخشاه الناس ، ويصبح كالأجرب وسط الأصحاء • وهنا يتحول ابداعه الى مناجاة للنفس أو بالأحرى الى مواساة للنفس ، يتأمل غربته عن الناس ويقارنها بغربة الناس عنه •

٣ ـ نتائج الاجهاض :

تبدو نتائج « اجهاض العقول » فى الداخل فى مزيد من هجرتها الى الخارج لمن يريد لابداعه أن يستمر وأن ينفع به آى وطن ما دام وطنه الأول قد حاصره وأسر روحه • وهناك وبعد مدة قصيرة حيث الامكانيات العلمية غير المحدودة ، وتقييم الفرد طبقا لقدراته الابداعية ، والمجالات العديدة المفتوحة لاكبر قدر ممكن من الباحثين ، هناك يبرز المبدعون ، ثم تنقل صحفنا وأخبارنا : جراح القلب الأول فى العالم مصرى ، عالم الفضاء الأول مصرى ، مهندس الذرة الأول مصرى ، دون ذكر لأوضاع هؤلاء العلماء عندما كانوا فى جامعاتنا ، وكيف تم اجهاض عقولهم ، واحباط هممهم • ثم يأتون الى الوطن فى مؤتمرات سنوية أو فى مهمات قصيرة لتعليم العقول المجهضة وللتعامل مع أحدث الاجهزة ، ولاجراء أدق الجراحات ، ولاعطاء النصائح والتوجيهات ، ويصبحون مستشارين علميين للسلطة ، وتظهر صورهم على الصفحات الأولى • ولا أحد يدرى أن عقل مصر المجهض فى الداخل قد أبدع فى الخارج ، وأن يأتى العون من الخارج خير من الاعتماد على الجهد الذاتى • تنزف الأمة من دماء أبنائها ، وتجهض عقول مواطنيها ثم تعيش بعد ذلك على نقل الدم منهم اليها ، وكنا أحوج الى اختصار الطريق بدل أن نميت أنفسنا ثم نحييها •

أما العلماء الصامدون بالداخل الذين يؤثرون الاستمرار فى المعاناة دون الحلول السريعة السهلة فى الهجرة فانهم يتمزقون ، وتستنزف طاقاتهم • هؤلاء هم الأنبياء والقديسون والشهداء ، ويكونون علامات على الطريق للأجيال من بعدهم ، شهداء عصرهم وشاهدين عليه • بهم ذرات أمل لا تنتهى ، ومن خلالهم تظل روح الآمة سارية ، لا تأسرها حبائل الاستعمار الحضارى للشعوب التاريخية • وكلما قوى الصمود ازداد التحطيم واشتد الحصار • قد ينتهى البعض الى الجنون العقلى أو الموت حسرة وكمدا ، فجأة وبلا مقدمات أو العزلة التامة لا يرى أحدا ولا يراه أحد ، ولكن يشير الناس اليهم ، ويتمنون لهم الخير ان كانوا من الأحياء أو يطلبون لهم الرحمة ان كانوا من الأموات •

فاذا اشتد الحصار حول العلماء الصامدين ولم يستطيعوا النفاذ منه يحدث الصدام والانفجار ثم الانتحار • فان قوة الابداع لا تعرف الكتمان بل تقفذ من وراء الأسوار أو ترتطم بالصخور • نسمع عن انتحار الأدباء أو جنون الفلاسفة أو الاكتئاب النفسى عند الفنانين أو عزلة الكتاب أو التنفيس عن النفس بالانشغال بالتجارة وبتربية الدواجن بدل تربية الشعوب • وفى النهاية يكون المبدع هو الخاسر ، ويكون الابداع شهادة العصر ، ويكون الخلق هو تعلم الموت •

فاذا ما استمرت محاولات فك الحصار والصدام حتى الموت وقع اليأس القاتل وشاعت روح الهزيمة بعد فشل محاولات الصمود الفردية ، وبالتالى تنجح الهيمنة الحضارية للغرب فى امتصاص روح الأمم وابتلاع ثقافاتها وضياع خصوصياتها ودخولها فى انماط استهلاكية خالصة تلك التى أفرزها الغرب ويحاول تصديرها بعد أن ثبت له فشل مشروعه القومى : مزيد من الانتاج والوفرة لمزيد من الاستهلاك والنهم لمزيد من السعادة والرفاهية ، وقلب انماط الشعوب التاريخية واستبدال قيمها ، تلك التى عرفت بدياناتها ومذاهبها وأيديولوجياتها ، يريدون لها أن تقلب قيمها كما حدث فى الغرب وبالتالى تتحول باسم الثورة وباسم الرفاهية الى تحليل مادى للمجتمعات الذى على أساسه تقوم

الأيديولوجيتان المعاصرتان المتصارعتان ، فتغفل الشعوب التاريخيـة مصادر قوتها فى روحها وقيمها ودياناتها وتراثها • ويؤمن الغـرب مستقبله بعد أن فقد قواه الذاتية وبعد أن خدر باقى الشعوب التاريخية •

٤ ـ وسائل الاجهاض :

ويتم اجهاض العقول عن طريق ايقاع العلماء فى تنافس مصطنع بينهم فى اذكاء روح العداوة والفرقة داخل الجماعات العلمية والادبية ، وتحويلهم الى وحوش يفترس بعضهم بعضا ، ويتكالب الجميع على المبدع لقتله • والسلطة تدعى البراءة الأصلية ولا تقتل بيدها بل تنفذ أغراضها من خلال الأجهزة والنظم القائمة • ولما كان المبدع مهموما بابداعه ولا يدخل معركة مع خصوم أحيـاء الا فيما يتعلق بالتقاليـد الأوربية وبالصور الفنية القديمة فانه لايحسن النزال وسرعان مايهزمه الأحياء وان استطاع هو أن يقضى على الصور الموروثة القـديمة • المطلوب من المبدع أن يفعل كل شىء الا ابداعه وأن تغرقه هموم الحياة اليومية وتداخل العلاقات الاجتماعية الا أن يغرق فى ابداعـه ويكون مهموما به • بل ان نظام التفرغ للفنانين دخل عليه أيضـا التنافس والاقتتال وتم عزل الفنان فيه عن معترك الحياة العامة • وفى النهاية تم حصارهم جميعا فى قلعة واحدة لاغتيالهم دفعة واحدة وكأنهم المماليك الجدد •

ويتم الاجهاض أيضا عن طريق امتصاص قوى المبدع داخل النظام بارهاقه بالأعمال الادارية ، وتوزيع نشاطه ، وتشتيت جهوده فى مسائل بيروقراطية لا يأتى منها أى نفع ، وتقضى على نشاطه الذهنى وتفرغه من مضمونه • ولما كان المبدع لا يحسن الأعمال غير الابداعية فانه يتـوه لا محالة ، ويخطىء لا ريب ، ويظهر كالمعتوه الذى لا يعلم شيئا ولايحسن عمل شىء • ومن ثم يقوم حاجز بينه وبين مجتمعه • اذ كيف يقبل المجتمع ابداع معتوه أبله • أو تحويلهم الى موظفين كتبة ، خبراء علم وحمـلة معلومات ينقلونها لغيرهم ، ويستبدلونهم عند الحاجة بآخرين ، وطنيين أم أجانب دون تعامل مباشر مع الواقع ، ودون أن ينشئوا العلم برؤيتهم

للعالم . هذا النوع هو الذى يخلط بين العلم والسياسة ، هو السياسى الماكر الذى يلبس ثوب العلم والخداع ! وبالتالى يغيب قيام العلم الوطنى خاصة فى العلوم الانسانية ويتحول العلماء الى حرفيين ومهنيين يتم نقلهم من وطن الى وطن مجتثى الجذور عن شعوبهم التاريخية .

ويحدث الاجهاض كذلك عن طريق اهمال المبدع وعدم الاستماع اليه وتركه وكأنه يصرخ فى واد بلا مجيب ، وكأنه يبدع لنفسه ، فيصبح الفنان بلا جمهور ، والمفكر بلا قراء ، والعالم بلا مواطنين ، يصبح ذاتا بلا موضوع ، وروحا بلا بدن ، وعقلا بلا مادة ، وفى ذلك ضمور المبدع وموته . أو على أكثر تقدير ، جعله ماشيا بلا تأثير على الناس ، لا يلمسهم ولا يلمسونه وكأنه جرب لا يقترب منه أحد الا كحالة للدراسة والاستقصاء . فيعيش العالم على هامش مجتمعه وكأنه لا ينتسب اليه ، وبالتالى يشعر بأن العالم ليس عالمه وكأنه بلا جذور فيه . فاذا ما حدث الانـ ـم بين المبدع والعالم يضمر المبدع لأنه العالم هو الذى يمده بنبض الحـ .

وأخيرا يتم الاجهاض عن طريق جعل وطن العالم استثناء بين الدول يخضع لقانون خاص لا تسير عليه باقى البلاد وكأنه وطنه هو الاستثناء من حركة التاريخ وقوانين المجتمعات . فاذا ما أراد المبدع الخلق والتغيير بث فى روحه أن الوطن ليس ككل الأوطان بل أقل بكثير ، وأن الشعب ليس كباقى الشعوب بل أحط بكثير ، وأننا لسنا وطنا ولا شعبا ، وليس لدينا علما ولا جامعة ، وأنه لابد من قبول الأمر الواقع والعيش بحساب[1] .وبالتالى يطالب المبدع بأن يكون له مقياسان للتقييم ، مقياس عالمى يقبل ابداعه ونشاطه ومقياس محلى يدعو للتسليم وقبول الأمر الواقع وعدم بذل الجهد لأنه لا فائدة ترجى من أى عمل فى مجتمع مختلف لا يستحق منا الا التعالى عليه ، والتعالم أمامه ، والرثاء له . ويصبح الوطن وكأنه بدعة بين الأوطان ويصبح الشعب وكأنه استثناء من بين الشعوب !

(١) أنظر : « ولماذا تكون مصر استثناء ؟ » فى الجزء الثانى : الدين والتحرر

٥ ــ تجـاوز الاجهاض :

ومع ذلك ، يمكن تجـاوز الاجهـاض عن طريق الصمود الذاتى بالرغم من كل محاولات الحصر والأسر • فالمبدع علامة على الطريق ، تؤشر للناس • وبالرغم من احساسه المرهف بالزمان وبالعصر الا أنه فى حالنا هذه قد يكتب للتاريخ وللأجيال القادمة انتظارا لفك الحصار ، واتساع البؤرة التى يكون هو مركزها • وكلما قوى الصمود حمى نفسه من التآكل الداخلى ، يكفيه الصدق مع النفس ، وتحديه للعالم ، وفرجته على الناس كعالم دائما فى معمله أو مفكر دائما يصف واقعه أو كفنان يرسم فى مرسمه ، فماذا ينفع الانسان لو كسب العالم وخسر نفسه •

ويمكن أيضا العمل من خلال الجماعة الضيقة حتى تمتد الذات وينتشر المبدع من خلال الآخرين ، يجد من يستمعون له ، ويقيمون له أفكاره ، ويبينون له مواقفه • ولما اسـتحالت الجماعات الـكبيرة : الجمعيات الحرة ، الأحزاب السياسية ، الندوات الثقافية فـلم يبق الا جماعات الاصدقاء أو المنتديات الخاصة الى أن تدخـل الجماهير الساحةفتغير النظم السياسية لصالحها • حينئذ تظهر حلقات المثقفين وندوات العلماء كطليعة لحركة جماهيرية واسعة •

ويمكن أيضا تكوين خلايا وبؤر ثقافية يلتف حولها النبت الجديد وتحويل جماعات الأصدقاء الى جمعيات أدبية وفلسفية وعلمية ودينية وفنية وثقافية بوجه عام • وقد قامت هذه الجمعيات فى عديد من الأمم بكسر الأسر الحضارى الذى فرضته القوى العظمى عليها حينئذ ، وظلت الحافظة لروح الأمة • فالتغير الاجتماعى هو فى الحقيقة تراكم ثقافى ذو منظور حضارى فى وعى العلماء • والحزب السياسى هو فى حقيقة الأمر تيار ثقافى يرتكز على أسس حضارية فى تاريخ الأمة • وبالتالى يمكن لابداع العلماء أن يستمر فى أضيق الحدود حتى يتراكم ويكون حركة تاريخية مقصودة وداعية حتى يأتى العرض التاريخى الخالص فتنفجر الثورة ، ثورة الأقلام معبرة عن حركة التاريخ •

ويمكن أخيرا الكتابة الجادة للتاريخ وللأجيال القادمة سـواء فى صيغة إعمال علمية أو فى صيغة سير ذاتية • وان كثيرا من الأعمـال العلمية ظلت مجهولة فى عصرها بل وظلت مخطوطـة ولم تؤثر الا فى الأجيال القادمة • كما أن كثيرا من السير الذاتية كشفت عن أحوال عصر أصحابها ، وكانت خير شهادة على الموقف الانسانى الذى عاش فيه المبدع وعلى وسائل احباطه • لما كانت الأعمال الابداعية سابقة على عصرها فلا عجب ألا تؤثر الا فى العصور التالية • لا يعنى ذلك أى تقوقع على الذات أو كفر بايصال الرسالة ولكنه يعنى أنه مهما حدث حصار للحريات فان شعور المبدع يظل خارج دائرة الأسر ، أوحد عصره ، ووحيد زمانه • ومهما حاول الاستعمار فى أشكاله الجديدة الايقـاع بالشعوب التاريخية فى شراكه وحبائله فان وعى هذه الأمم من خلال وعى روادها يحول دون تحقيق مخططاته ، وان التاريخ لخير شاهد •

الاصـــــــلاح الجـــــــامعى

الجامعة هى نقطة التقاء بين مختلف النظم التعليمية ــ التعليم العام والتعليم العالى ــ من ناحية وبين الثقافة الوطنية والوعى السياسى من ناحية أخرى ، ولقد ثارت مشكلة الاصلاح الجامعى فى الآونة الأخيرة على صفحات « الاشتراكى » مما يؤكد وجودها الفعلى وضرورة اعادة النظر فى مفهوم الجامعة وصلتها بالدولة ، فالذى يهمنا اذن ليس الجانب الوضعى للجامعة : عدد كلياتها ، وعدد كراسي أساتذتها ، وشكل اللوائح والقوانين ، ونظمها الخاصـــة كما عرضت لذلك الجريدة بشـــكل وافر ومستفيض ، بل بعض القضايا العامة التى تشغل بال المثقفين أى الجامعيين أنفسهم ترجع الى المفهوم الأساسى الذى تقوم الجامعة عليه والى فهم الدولة لمهمتها العلمية والسياسية •

ومشكلة الجامعة تتلخص أساسا فى انخفاض مستواها العلمى وفى تشتتها الفكرى وفى عزلتها السياسية • وذلك يرجع أساسا الى الحالة التى عليها التعليم الآن والى مناهج التدريس المتبعة داخل الجامعة والى نظرة الدولة للجامعة والجامعيين •

أولا ــ مهمة الجامعة العلمية :

اذا كانت مهمة الجامعة الأولى مهمة علمية فان انخفاض مستوى التعليم بها لا يسمح بالقيام بهذه المهمة • ويرجع انخفاض مستوى

كتب هذا البحث فى باريس فى يونيو ١٩٦٦ وكان أحد البحوث المقدمة من وفد الدارسين المصريين فى فرنسا للمؤتمر المبعوثين الذى عقد بالاسكندرية فى أغسطس من نفس العام لمناقشة الرئيس جمال عبد الناصر فى قضايا الأمة المصرية بعد الاجتماع العاصف الذى عقد فى باريس بين الطلاب المصريين فى أوربا والمشـــير عبد الحكيم عامر اثنـــاء زيارته لفرنســـا اثر عودة العلاقات بين مصر وفرنسا بعد قطعها منذ الاعتداء الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ . وبعد سماع الرئيس عبد الناصر بما دار بهذا الاجتماع قرر دعوة الطلاب لمناقشتهم فى مصر . وقـــد كان التفكير فى رسالة الجامعة عنصرا مستمرا منذ هزيمة يونيو حتى الآن . انظر مقالاتنا : « رسالة الجامعة »، « مناهج التدريس والعلاقات الداخلية فى جامعاتنا » ، « برنامج شباب أعضاء هيئة التدريس » فى قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فكرنا المعاصر ، ص ٢٠٨ ــ ٢٣٤ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٦ . وأيضا الدراسة التالية : « الجامعة والوطن » ، وهـــذا المقال أول ماكتبت باللغة العربية قبل عودتى من فرنسا فى صيف ١٩٦٦ وقبل التحاقى بالجامعة .

التعليم الى أسباب معينة يمكن تلمسها فى الاستاذ وفى الطالب وفى مناهج التدريس المتبعة ، فحول هذه الاقطاب الثلاثة تدور مشكلة الاصــلاح الجامعى •

(أ) الاســتاذ : الجامعة أساسا ليست بناءها ولا ضخامة عدد مناصبها أو طلبتها بل الاستاذ • فمتى وجد الاستاذ وجدت الجامعة • وطالما عرفت الجامعات عن طريق الاساتذة الذين درسوا بها • فهم الذين يضعون تاريخها حتى ولو كانت جامعة صغيرة فى بلد صغير • فقد عرفت جامعة كونجزبرج عن طريق كانط ، وجامعتا بينا وبرلين عن طريق فشته وهيجل ، وجامعة فريبورج عن طريق هوسرل وهيدجر • والاستاذ ليس هو منصبه بل فكره ، وفكره مرتبط بتكوينه وعمله ، السبب الاول اذن لانخفاض مســتوى التعليم بالجامعــات المصرية هو انخفاض مستوى اساتذتها الذى يرجع الى نقص فى التكوين او فى التطوير • فقد نشأت الجامعات المصرية اولا من محبى العلم والثقافة على اكتاف صفوة محددة وافراد معدودين وجدوا فى ذلك شهرة لهم • وكان الاتصال بالخارج عن طريق الثقافة الأوروبية او بعثة دراسية شرفا وميزة بل وسيلة للحصول على مغنم مباشر • وازدادت شهرتهم لدخولهم فى جدل فكرى بل وفى خصام شخصى لا غرض له الا بيان قدرة كل منهم وعلمه واتهام خصمه بعكس ذلك خاصة فيما يتعلق بالدراسات النظرية • وكان هذا حال الرعيل الأول من الجامعة • وأتى رعيل ثان كثر عدده فقلت شهرته ، واتصل بالخارج عن طريق البعثات التى مازالت تعتبر ميزة وشرفا • وقفوا عند مستوى رسائلهم ، وانشغلوا بالمنافسة على المناصب ، ونسوا تكوين جيل ثالث بعد أن تركزت الوظائف الجامعية فى مناصب لهم ــ استاذ كرسى واستاذ مساعد ــ وقلت وظائف المدرسين تدريجيا حتى تلاشت او تكاد حتى اصبح من العسير البحث عن جيل ثالث لم يتكون اللهم الا من بعض افراد معدودين اثروا التكوين بجهدهم الخاص • فاذا كان الجيل الاول قد اثار عدة مشاكل وفتح عدة طرق يسرت للجيل الثانى توجيها نسبيا اتى الجيل الثانى اما مرددا لما حصله

او مدعيا الابتكار والخلق وجاءت ماساة الجيل الثالث التى نعانيها نحن اليوم •

فضعف السنوى الحالى لاساتذة الجامعة راجع اذن لعدم امكانية التطوير بعد مرحلة التكوين النسبية • وان المسئولية لا تقع كلها على الظروف الخارجية بل على عاتق الاساتذ نفسه الذى كان يمكنه تكوين مكتبته اثناء وجوده بالخارج او الاتصال الدائم بالمكتبات التى عرفها والحصول على المراجع بطريق شخصى او مراسلة اساتذته ومن تعرف بهم حتى يتم الاستمرار فى تكوينه أو ان يحاول الاطلاع عندما تتيح له الظروف الى السفر الى الخارج من جديد دون التأليف السريع عن طريق الترجمة أو النشر غير المحقق ، أو بتكوين جمعيات علمية لها نشاطها ونشراتها ومجلتها ، فالعمل الجماعى أضمن وسيلة ان لم تكن للتطوير فعلى الاقل للمحافظة على المستوى العلمى • وحتى تكون المسؤولية كاملة فان تهيئة امكانيات التطوير عن طريق الدولة أمر لابد منه وذلك يتأتى بالطريق الآتية :

١ — الاتصال بالخارج اما عن طريق الخروج ثانية على فترات متعددة مرة كل ثلاث واربع سنوات مما يتيح للاستاذ الاطلاع على احدث المؤلفات فى ميدانه ومما يحفظه من عدم التكرار امام طلبته بل ويحثه على النقد والبحث والتاليف لغرض علمى محض دون نظر لترقية أو لمنصب ، وما أكثر الجامعات التى تود ذلك • وربما لا يكلف الدولة ذلك اذا تم عن طريق تبادل الاساتذة الذى يتم عن طريق الجدارة الشخصية والاختصاص لا عن طريق الوصول والتوسط •

٢ — تطوير مكتباتنا التى ترجع مراجعها الى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى ، وذلك ما توده جميع المكتبات بالخارج • بل ان شراء الكتب الأجنبية بطريق شخصى أصبح عسيرا بل ومعدوما • وطالما تشكو المكتبات الخاصة بالخارج عن عدم امكان تزويدها بالمراجع العربية • وطالما شكا المثقفون بالداخل من عدم وجود ما يمكن ان يشترى بالمكتبات الخاصة • فبدل تبادل نشرات الاعلام التى لايقرؤها الكثير يمكن تبادل

الكتب العلمية والثقافية التى تخدم الباحثين ويكون فى ذلك خير دعاية • وهناك كتب تنفذ • فان لم تسارع المكتبات الجامعية فى شرائها فلن يمكنها ذلك باضعاف ثمنها • وهناك اشتراكات فى كتب تظهر • فان لم تبادر مكتباتنا فى الاشتراك فلن يكون لها نصيب فيها • يكفى الاتصال بالمبعوثين فى الخارج حتى يمكن الاستعلام منهم وتهيئة ذلك عن طريقهم دون ارسال وفد يكلف الدولة الكثير ، وقد لايستطيع عمل شيء • وخير ضمان لوصول كل المؤلفات لمكتباتنا هو الارتباط بشكل رسمى مع دور النشر الكبرى فى العالم لموافاة مكتباتنا بالجديد دائما •

٣ ــ دعوة الاساتذة الاجانب فترة معينة للتدريس بالجامعات المصرية وللقيام بحلقات بحث • وذلك مما يوفر على الدولة ارسال عشرات من المبعوثين لمدة مهما طالت فهى قصيرة بالنسبة لفرع التخصص • وذلك ما يوده كثير من الاساتذة فى الخارج مع تهيئة الجو العلمى لهم حتى لا يفقدون اكثر مما يعطون • وقد كان ذلك سنة للجامعات المصرية للرعيل الاول • بل كانت الصلة الفكرية بين الجامعة المصرية والجامعات بالخارج خاصة جامعة باريس اقوى من صلة بعض جامعات شمال افريقيا بها •

٤ ــ دعوة الاساتذة المصريين الذين بالخارج والذين آثروا عدم العودة بل والذين قد غيروا جنسيتهم بالرغم منهم • فقد تمتعوا ببعثات دراسية وبمنح مالية من الدولة او حتى الذين درسوا على حسابهم الخاص وآثروا عدم الرجوع لاسباب ليست مالية فقط بل ايضا وأساسا لاسباب سياسية او علمية ، كل منهم يود ان يكون حرا فى رايه دون أن يقبل فكرا رسميا مفروضا عليه • كل منهم يود أن يكون فى مكان تخصصه • فاستاذ العلوم يود معملا لا مكتبا ، ويود تطبيق ابحاثه لا حفظها فى الادراج ، وان خيبة الامل التى تصيب عددا من المبعوثين بعد عودتهم هى السبب الاساسى فى تلمس الفرصة للخروج من جديد فى مهمة علمية ثم ايثار عدم الرجوع ، فالاساتذة المصريون الذين يدرسون فى الجامعات الاوربية يمكن دعوتهم والاستفادة بهم فى تطوير الجامعات المصرية بعد تذليل كل العقبات التى تحول دون رجوعهم •

٥ ــ اعادة النظر فى الكادر الحالى الجامعى داخل اطار الخطه العامة للتنمية وعلى ضوء سياسة جـديدة للاجور تقوم على تقويم موضوعى للوظائف على اختلافها • فالمجتمع الاشتراكى قائم على الفلاح والعامل • واستاذ الجامعة هو عامل للفكر بل وعامل فى الحقل والمصنع بجوار عمله الثقافى مع ان دخل استاذ الجامعة اقل من دخل العامل الماهر فى بعض الاحيان ، واقل دائما من دخل الفنان • بل وان عكوف الاساتذة على الدروس الاضافية لزيادة دخلهم قد يقلب مهمة الاستاذ الفكرية الى وظيفة التدريس على حساب البحث وتكوينه المستمر • فماذا يمكن للاستاذ ان يقوله فى عشرين ساعة او اكثر اسبوعيا ان لم يكرر نفسه ويكتف بالسطحيات ؟ ومتى يمكنه التحضير أو البحث اذا كان يقضى نهاره فى الالقاء ؟ وذلك كله راجع لعدم وجود سياسة ثابته للاجور كجزء من التخطيط العام للدخل القومى •

٦ ــ زيادة هيئة التدريس خاصة المدرسين والمعيدين الاكفاء وذلك لان النقص الحالى فى اساتذة الجامعة يجعل الاستاذ يقوم بمهمة عشرة حتى خارج نطاق اختصاصه • فبدل ان يدرس فى تخصصه يدرس كل شىء لملأ الفراغ الموجود امـا لنقص طبيعى فى هيئة التدريس او لنظام الاعارة للجامعات العربية الاخرى دون نظر الى عدم كفاية الاساتذة بالجامعات المصرية او حتى ارسال الاكفاء منهم الى الخارج وذلك لان نظام الاعارة يخضع فى غالب الاحيان بل ودائما الى الكسب المادى الذى يعود على الاستاذ المعار • والتغلب على ذلك لا يتم الا عن طريق التوســع فى تكوين هيئة التدريس عن طريق البعثات خاصة الجامعية منها او عن طريق دعوة الاساتذة من الخارج للاشراف على حلقات البحث او عن طريق تنظيم الدراسات العليا بالجامعـات وخلق المعاهد المتخصصة لذلك كمعهد لتاريخ العلوم او لتاريخ الاديان او للدراسات الفلسفية •

٧ ــ العمل الجامعى داخل الجامعة يقوم به الاساتذة ، كل طائفة فى اختصاصها ، فلا تكفى مجلة الكلية او الجامعة بل لابد ان يكون

لكل مرع نشاطه .لمستقل ســـواء فى العلوم الطبيعيـــة أو فى العلوم الرياضية او فى العلوم الانسانية مع مراعاة مستواها العلمى وامكانيه نشرها مع اللغة العربية باحدى اللغات الاجنبية حتى يمكن مساهمة الجامعات الاجنبية فى تطويرها وامدادها باحــدث النظريات العلمية والتيارات الفكرية •

٨ ــ أعادة النظر فى قوانين ولوائح نظام البعثات فقد يكون هو المسؤول الأول عن انخفاض المستوى العلمى للجامعة وذلك لان البعثات هى التى تؤهل لخريج الجامعة ان ينتسب الى هيئة تدريسها • فمقاييس الاختيار للبعثة لايجب ان تكون الدرجات فى الليسانس والتى يمكن الحصول عليها عن طريق حفظ المقررات المعطاة وتكرارهـــا ولكن بالنظر الى الابحاث التى يقوم بها الطالب اما قبل ترشيحه او بعده فى مدة يوضع اثناءها تحت الاختبار والتوجيه • ومتى اثبت الطالب جدارته يمكنه ان يقوم بالبحث الممكن عمله بالجامعات المصرية قبل ســفره حتى اذا ما وصل الى مقر بعثته يكون قد تم استعداده الفعلى ، ويكون قد وفر على نفسه وعلى الدولة مدة سنتين تضيع غالبا من مدة البعثة فى التكوين الاولى بل المبدئى للباحث ايا كان فيما يتعلق باللغات الاجنبية القديمة او الحديثة او بالثقافة العامة حتى يمكن تركيز مدة البعثة اساسا فى البحث والتخصص • وكذلــك يجــب ان تكون موضوعات البعثات مدروسة ومخططة بحيث تسمح بتكوين الطالب اثنــاء بعثته كما تسمح بالاستفادة منه بعد رجوعه • وكثيرا من موضوعات البعثات خاصة النظرية منها يمكن دراستها فى مصر • بعد ذلــك يرسل الطالب للخارج لمزيد من الثقافة او لتطوير ابحاثه التى سبق له القيام بها ؛ واخيرا يجب تجديد المشرفين على نظام البعثات بل وتغيير معظمهم ممن تنقصهم الخبرة والدراية ووضع من يلمسون الموضوع عن قرب او ممن عاصروا مشاكله وعدم تركها لمن وصلوا الى ذلك عن طريق الاقدمية أو الترقية الادارية • وكثير من الموضوعات تقرر دون معرفة سابقة بمكان البعثة او مدتها او الامكانيات المطلوبة لها او حتى الغرض

منها • ناهيك عن البطء المطلق بل عدم الرد احيانا على طلبات المبعوثين • وكثيرا ما ياتى الرد بتجديد عدة اشهر بعد انقضائها بستة اشهر او عام • ويكفى زيارة عابرة للمشير حتى تجاب الطلبات كلهـا ان لم تكن على الفور فعلى الاكثر فى أسابيع معدودة •

(ب) الطـالب : تتركز مشاكل الطالب وقت القبول بالجامعـة واثناء دراسته وبعد تخرجه ، فنظام اختيار طلاب الجامعة وتكوينهم السابق ثم توجيههم يعد مسئولا عن سبب انخفاض المسـتوى العلمى للجامعة • فاذا كان التكوين السابق مرتبطا بنظام التعليم العام فى المرحلة الأخيرة (انظر بحث التعليم العام) فان اختيار الطالب يتم عن طريق المجموع كما هو الحال الان فى نظام البعثات مما يعطى أولوية لجامعة على أخرى او لكلية على اخرى او حتى لفرع آخر وهو تفضيل لا اساس له • فيضطر الباقون الذين لا يحصلون على المجموع المطلوب الى التحول خارج الجامعات فى وظائف ايا كانت بل وفى التدريس أو الى السفر الى الخارج مما ادى الى وجود جمهور غفير من الطلبة الذين يدرسون بالجامعات الاوروبية • ونظرا لعدم تمكنهم من اللغة ونظرا لظروف المعيشة فى الخارج وضعف امكانياتهم المادية فان كثيرا منهم لا يتم دراسته الجامعية • والسبب الاول فى ذلك هو نظام القبول فى الجامعات المصريه الذى لا يستطيع استيعاب خريجى المدارس الثانوية • وحتى الذين تقبلهم الجامعات خاضعون لتوجيه مكاتب التنسيق التى لا تراعى فى كثير من الاحيان رغبات وميول الطالب بل الاماكن الخالية فى كل كلية وفى كل قسم • فلابد اذن من اعادة النظر فى نظام القبول والاختيار حتى يمكن للطالب الدراسة بالجامعة وفق ميوله واتجاهاته بل واستعداداته •

والمدة التى يعيشها طالب الجامعة اثناء دراسته ـ اربع سنوات على الاقل ـ ليس غرضها الحصول على وظيفة لكسب العيش بعدها ولكن تكوين للمثقف والمواطن • فهدف الجامعة هـو البحث والفـكر لا التخرج للحصول على شهادة مما يؤدى الى سيول من الخريجين

تطرق ابواب الوظائف حتى الممتازين منهم • وليس الحل هو ايجـاد الوظائف لهم بل فى توجيه الخريجين خاصة الذين نبتوا جدارة فى البحث العلمى اثناء حياتهم العلمية بالجامعة والاستمرار فى الدراسة والتفرغ للبحث والاحصاء والنشر • فمشاكل الخريجين تتمثل أولا فى الانقطاع عن الجامعة وذلك ما يكن تفاديه عن طريق الاستمرار فى البحث العلمى وعن طريق تكوين هيئة للخريجين تضم جمهور المثقفين يمكن توجيههم لمحو الامية سنة بعد التخرج أو فى العطلات الصيفية •

(ج) مناهج التدريس : يرجع انخفاض مستوى التعليم ثالثا الى مناهج التدريس المتبعة القائم معظمها على التلقين والحفظ لا على البحث والتفكير • فالدراسة بالجامعة لا تتم عن طريق القاء محاضرة من مجهول تسمعها مئات سالبة ولكن عن طريق حلقات بحث صغيرة يديرها استاذ معروف عنه اتجاه معين فى دراساته ، ويشترك فيها عدد محدود من الطلبة للبحث والمشاركة والتوجيه يقوم الطالب اثناءها بالبحث والعرض • فتكون الجامعة بذلك فترة أعداد للدراسات العليا • فيجب استبدال بمحاضرات الاستاذ التى ليست الا أخبارا أو فكرا شخصيا النصوص والكتب المقررة بلغات اجنبية حتى يتم للطالب عمل برنامجه ومقرره بنفسه فى حدود البرامج العامة وحتى يتمكن من اللغات الحديثة بجانب اللغات القديمة • وان كثيرا من الجامعات الحديثة لا يوجد بها مدرجات عامة بقدر ما توجد بها حجرات للبحث التى توجـد غالبا فى قاعـات المكتبات •

ثانيا ــ وحدة التعليم الجامعى وخلق الثقافة الوطنية :

كثيرا ما يعد الدارسون الجامعات المصرية الاربعـة القـاهرة وعين شمس والاسكندرية واسـيوط ثم يضيفون الجـامعة الازهرية باعتبارها جامعة مستقلة لها مشاكلها ومواضيعها بل وبناؤها الخـاص بالنسبة للجامعات المصرية الاخرى مع ان مشكلة الجامعة واحدة سواء ما يخص الجامعة العصرية او الجامعة الازهرية ، بل ان هذه الثنائية توحى بان الجامعة المصرية لاصلة لها بالدين وان الجامعة الازهرية

غير مصرية لاهم لها الا الدين وهذا فى الحقيقة وهم لا واقع له . وأن كل المحاولات لاضافة الدين الى الجامعة المصرية او اضافة العلوم الحديثة الى الجامعة الازهرية ما هو الا حل لمشكلة وهمية وتفاديا لوضع تاريخى معين املته الظروف دون ان يكون له اى اساس شرعى او عقلى • فمشكلة الجامعة مشكلة واحدة • وهذا ما يقصد بوحدة التعليم الجامعى • فاذا كنا نقاسى من ثنائية اللغة ــ العامية والفصحى ــ مما يؤدى الى تشتت فى القول والبحث بل وفى القراءة والكتابة فان ثنائية النظم الجامعية تؤدى الى ثنائية فى الثقافة والحضارة لا اساس له • فالحضارة الاسلامية تدرس فى الجامعات المصرية كشريعة فى الحقوق ، وكفلسفة وآداب ولغة وحضارة فى الآداب ، بل ويمكن تدريسها ايضا كاقتصاد وسياسة فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، وكعمارة فى الهندسة ، وكرياضة فى العلوم • فالدراسات الاسلامية جزء من المادة التى تدرس بالجامعات المصرية • وان قطع هذا الجزء منها وجعله مادة لجامعة مستقلة بحجة التفرغ والتخصص والتعمق لا يؤدى الا الى البتر والجمود والسطحية يستحيل من بعدها اضافة الدراسات الحديثة التى تدرس بالجامعات المصرية بحجة التطوير والتجديد والاصلاح ، فلا فرق بين كلية الطب بجامعة القاهرة وكلية الطب بالجامعة الازهرية مثلا • فالطبيب الاول ليس ناقصا فى دينه ولا فى ثقافته • والطبيب الثانى ليس زائدا فى دينه ولا فى ثقافته • حتى اذا كان غرض الجامعة الازهرية هو نوع من التبشير الجديد الاكثر فاعلية فتكفى لذلك الخدمة الانسانية التى يؤديها الطبيب او المهندس او المدرس دون اخذها وسيلة لتبرير زيادة أخرى مفروضة • وما يقال فى كلية الطب يقال أيضا فى سائر الكليات العملية او النظرية ، فالدين اذن ليس مناقصة ولا مزايدة بين جامعتين ، فالجامعة واحدة ، ونظامها واحد • والجامعى مثقف وطنى واحد • فاذا كان توحيد المرحلة العامة فى التعليم قد تم فيجب ايضا ان يتم توحيد التعليم الجامعى • فان ثنائية التعليم المعنى من اسباب تشتت الثقافة الوطنية بل والعقلية • وان تأميم التعليم

الخاص او التعليم الاجنبى او على الاقل اشراف الدولة عليها هدفه الأساسى هو وحدة الثقافة الوطنية • وان وحـــدة التعليم الجامعى لها اهميتها بل وضرورتها ليس فقط فى تكوين الشخصية العلمية بل ايضا فى خلق الثقافة الوطنية • فداخل الجامعات الوطنية وخارجها لم تتعد الثقافة بعد مرحلة الترجمة او النشر ، الترجمة الصريحة للاخبـــار والترجمة المقنعة مع ادعاء الخلق والابتكار ، فالجامعات الوطنية ــ بعد عزلها عن كل الاتجاهـــات الفكرية والسياسية ــ تقوم بدور خطابى يتحول فيه الفكر بل ومصالح الامة الى خطاب اهم ما يقصده هـــو تجانسه الذى يرمى الى اثبات براعة كاتبه فى التحليل والتأليف • وكثيرا ما تعالج الموضوعات بطريقة عابرة سطحية بتقليد من هذه المدرسة الفكرية او تلك • بل وكثيرا ما تخرج الموضوعات عن الجدية فهناك المجتمع الاشتراكى ، والفلسفة الاشتراكية ، والقـــانون الاشتراكى ، والعلم الاشتراكى •• الخ • وفى غالب الاحيان لايوجد للخطاب أية فاعلية فى جمهور القراء الذين يعلمون جيدا المقاصد الحقيقية للكتاب وما يرمون اليه • اما فى الاوساط الدينية فيغلب على الدين تفسير منزل يعطى الجانب الالهى اولوية بل افضلية على الجانب الانسانى وكان الدين قد أوحى به اعلاء لقدر الله وليس تأكيدا لقيمة الانسان ، وتفسير يمينى بل اقطاعى ورجعى يؤكد وجود الطبقات الاجتماعية وتفاوتها بحجة الرزق المقدر ، ومازال يرى فى الاشتراكية الحادا وكفرا مما يؤدى الى التحالف مع الرجعية ومع الاستعمار ، وتفسير قائم على التأييد والرضا لا على المبادرة والخلق ، فكلما أتى تيار جديد نادى به المثقفون الثوريون تحقيقا لمصالح الامة قام الدين بالتأييد حتى ولو ايد فى مرتين متتابعتين اتجاهين مختلفين بل ومتضادين • فتاييد الرأسمالية بالامس سابق على تاييد الاشتراكية اليوم • دور الجامعة اذن هو اعاده خلق الثقافة الوطنية الاصيلة القائمة على اساس نظرى محكم وعلى فاعلية حقيقية • والدين جزء منها بل والمحرك لها خاصة فى هذه المرحلة التى مازالت الامية هى الصفة الغالبة على المواطنين بل والذى باستطاعته

اذا تحول الى وعي ثقافي ثوري ان يملأ الفراغ الفكرى والسياسى الحالى بالرغم من كثرة القول والتوجيهات •

ثالثا ــ استقلال الجامعة :

واستقلال الجامعة شرط اساسي لوجودها الفعلى وتفادى عزلتها عن الحياة القومية سواء استقلالها الادارى أو الفكرى او السياسى •

ويتمثل الاستقلال الادارى فى الانتخاب الحر المباشر لرؤساء الاقسام ولعمداء الكليات ولمديرى الجامعات دون اى تدخل من الدولة فى تعيين هذا او ذاك والذى يخضع غالبا لاهواء السلطة التنفيذية فى الرضاء او السخط دون أى مقيــاس موضوعى آخر يتمثل فى القدرة الذاتية او الجدارة العلمية او الاستقلال الفكرى بل غالبا ما كانت هذه المقاييس سببا فى عزل الستاذ داخل كليته ان لــم تكن سببا فى عزله خارج جامعته وتحويله الى مرفق اخر • ويتمثل الاستقلال الادارى ثانيا فى الغاء نظم الحراسة الجامعية فى كل صوره • فان كان قد تم الغاء نظام الحرس الجامعى الرسمى حول الجامعة فيجب ايضا الغاء نظام الحراسة المدنى داخل الجامعة والذى يسبب كثيرا من القلق فى نفوس الطلبة بل وفى ممارستهم لمهمتهم كجامعيين فى صراحتهم الفكرية والتزامهم السياسي والذى من شأنه الغاء هــذا « الجلاد الابدى » الذىيعيش فى نفس كل مواطن والذى يتخذ وسيلة لتخويف البعض والى سلبية البعض الاخر • ويتمثل الاستقلال الادارى ثالثا فى تعاون مدير الجامعة مع محافظة المدينة التى بهــا الجــامعة لتخطيط المدينة وتهيئتها وامدادها وفقا لمشاكل الجامعة واحتياجاتها •

والاستقلال الفكرى للجامعة شرط اساسى للقيام بمهمتها العلمية والسياسية • وذلك لان الحرية الفكرية التى يحرص عليها الاســتاذ الملتزم والتى يمارسها الطالب ترفض اساسا وكمبدأ كل مذهب فكرى او اتجاه سياسى مفروض عليه من الخارج • فالاستاذ ليس « قالبا » تصنعه الدولة لصب اساتذة المستقبل بل مفكر حر يرى ، يبحث مع

طلبته وأمامهم • وكثيرا ما تضيع الاتجاهات الفكرية والنظم السياسية ، وتفقد جدتها ـ والتى فى الغالب ما تكون هى الحل الوحيد للمرحله الحالية التى يمر بها المجتمع ـ عندما تفرضها الدولة بعد تبنيها لها ، خاصة بعد تعيين مفكرين يفكرون للاخرين وموجهين سياسيين يرشدونهم بل ويقاس كل فكر وكل سلوك على هؤلاء الموظفين • فالاستقلال الفكرى للجامعة شرط لمناقشة كافة الاتجاهات الفكرية والسياسية دون اى نظر لتقييم الدولة خطأ او صوابا فعن طريق المناقشة والتفكير والاقتناع الشخصى يتم تكوين المثقف الواعى أولا داخل الجامعة الذى لا يمكن تكوينه عند تبنى تيار فكرى معين وقمع كل التيارات الاخرى اما بالتخويف او الفصل او العزل النهائى • وان المعارضة السرية لأخطر فكريا وسياسيا من المعارضة الصريحة العلنية • وغالبا ما تنقلب المعارضة السرية الى محاولات انقلاب بل والى مؤامرات ان لم يسمح لها بالمعارضة الصريحه • وان أول عهد بالمعارضة السرية قد يؤثر على طبيعة الفكر والممارسة السياسية مما يظهرها بشكل عدوانى ، وذلك ما يمكن تلاشيه عن طريق تجمع كل القوى الفكرية الثورية وكل الاتجاهات السياسية التقدميه فى نطاق المناقشة الصريحة والعمل الجماعى • وبالرغم من توجيه الضربت الى معظم الاتجاهات الفكرية والسياسية مرة الى هذا ومرة الى ذلك فان روح الصراحة الفكرية والالتزام السياسى مازالت موجودة عند المثقفين الثوريين • وما فات ، بعد ثلاثة عشر عاما على قيام الثورة ، يمكن اللحاق به الآن •

والاستقلال السياسى للجامعة نتيجة لاستقلالها الفكرى • فتتول انشغالها بالبحث والفكر تتعود على النقد الذاتى وبيان ما قد يخفى على الدولة نتيجة لانشغالها الدائم فى البناء • بل ان الجامعة يمكنها التوجيه والقيادة وبيان اسلم الطرق وانفعها لتحقيق اهداف المجتمع • وان تاريخ الجامعة السياسى ليشهد على صراحتها الفكرية وعلى التزامها السياسى • فقد كانت الجامعة الطليعة الواعية للقيادات الوطنية وللمشاركة الفعلية فى التحرر وفى مقاومة الاحتلال كما حدث فى حرب القنال فى ١٩٥١ • وان الدراسة النقدية لتاريخ الثورة الاخيرة ، وتلمس اوجه الخط

لا يتم الا عن طريق التفكير النقدى الذى يمكن للجامعة ان تقوم به • ويقوم النقد الذاتى على حرية البدأ فى العمل دون انتظار توجيهات او تعليمات تجعل من الانسان وطنيا او مفكرا او ناقدا • فبدل ان تأخذ الجامعة موقف المتفرج انتظارا لاشارة النقد يمكنها ان تبادر الى ذلك من نفسها • ولا يتم ذلك الا من خلال تنظيم عمل جماعى داخل الجامعة يتمثل فى تكوين تنظيم سياسى يجمع طليعة المثقفين الثوريين • فداخل الجامعة يتم تكوين المثقف لا المفكر فحسب بل السياسى ايضا ، اذ ان مهمة الجامعة فى التكوين السياسى لا تقل عن مهمتها فى التكوين العلمى • فالمواطن هو المثقف الثورى • وان الوعى السياسى يغلب فى بعض الجامعات على المستوى العلمى ، ويغلب الطابع الثورى للمثقف على مهمته العلمية • والتنظيمات السياسية الموجودة الآن داخل الجامعات المصرية ان هى الا صورة مصغرة لنفس التنظيمات الموجودة خارجها فى الشكل العام للدولة • اذ انها نظم مفروضة تجمع كل الطلبة بلا استثناء ولا قيد تحت اسم واحد هو شعار يطلق على الرأسمالى والاشتراكى ، على الرجعى وعلى التقدمى ، على السلبى والايجابى بل على الخائن والوطنى فى وقت واحد • وذلك قد يسبب القضاء النهائى على كل تنظيم سياسى ، اذ انه قائم على استحالة وجود وحدة فى النظرية بل وفى الهدف والقصد • وهذا من شأنه ضياع الجهد وتهبيط العزيمة والقضاء على كل عمل ايجابى للعناصر الوطنية التقدمية سواء داخل الجامعة ام خارجها ، اصبحت التنظيمات السياسية داخل الجامعة لا تغرى السياسى الملتزم والعامل الجاد بل اصبحت تعيب الجامعة اكثر ما تشرفها •

ويمكن للجامعات ان تقوم بمهمتها السياسية الفعلية فى تكوين طليعة المثقفين الثوريين الذين باستطاعتهم تكوين القاعدة الشعبية — ممثلة فى الاتحاد الاشتراكى العربى — بعد عزل جميع العناصر الاقطاعية والرجعية والسلبية — والمحافظة على الاتجاه التقدمى وهو الطابع الغالب الآن ، والدفاع عما انجز منه والمناداة بخطوات اوسع

نحو الاشتراكية • ويمكن لها ايضا القيام بتحقيق وحدة العمل العربى فى الاتصال بالمثقفين الثوريين بالجامعات العربية الاخرى وذلك لان تحقيق الوحدة العربية لا يتم الا عن طريق توحيد كل الاتجاهات التقدمية الثورية فى العالم العربى • والمثقفون الثوريون فى الطليعة لا عن طريق سياسة مؤتمرات القمة ومهادنة قوى الرجعية والاستعمار فى المنطقة • وقد ظهرت المانيا كدولة واحدة اولا داخل الجامعات الالمانية • ويمكن للجامعات ايضا المساهمة فى وضع اساس نظرى لحركات التحرر فى العالم الثالث بل وضع أسس لفلسفات فى التاريخ تضمن له استمراره ووجوده الفعلى •

واخيرا فان تحليلا لتاريخ الجامعة هو احدى الوسائل لايجادها • فالجامعة هى تاريخها الممثل فى مدارسها الفكرية والسياسية ، والممثل فى مهمتها فى خلق الثقافة الوطنية ، وتحقيق الاهداف القومية ، وهو ممثل أيضا فى تقاليدها • وجامعاتنا حديثة العهد ، ومازال تاريخها يمكن سرده عن طريق الشفاه • تاريخها مرتبط بصفوة المجتمع الأولى خاصة عندما كانت اهلية ثم بالنضال القومى بعد تبنى الدولة لها • والآن ومنذ قيام الثورة تعكس جامعتنا حال المثقفين وشكل الثقافة فى المرحلة الحالية ، بل وقد عرفت التيارات الفكرية والسياسية عن طريق الجامعات التى نشأت بها ، فهناك مدرسة ماربورج فى الفلسفة ، ومدرسة توبنجن فى التفسير ونقد الكتب المقدسة ، ومدرسة هيدلبرج فى التربية الدينية ، وندوة فينا فى المنطق • ويمكن للمطابع الجامعية المساهمة فى خلق ذلك التاريخ اما عن طريق نشر مجموعات من المطبوعات باسم الجامعة اما فى التاليف او الترجمة او النشر كما هو الحال مع طبعات اكسفورد فى الدراسات الادبية او عن طريق نشر مؤلفات الاساتذة وتبنى الجامعة للمؤلفات التى لها تيارات فكرية واضحة • يمكن اذن تطوير المطابع الجامعية بالدرجة التى تصبح من اهم وانشط دور النشر • وما يقال فى المطابع الجامعية يمكن ان يقال ايضا فى قاعاتها خاصة قاعة الاحتفالات التى يمكن ان تساهم كموعد لقاء للتيارات الفكرية والمنظمات

السياسيه كما حدث اخيرا بشأن منظمة الوحدة الافريقية ومؤتمرات عدم الانحياز • وان قسما يطلقه طلبة الجامعة وقت انتسابهم اليها وساعة تخرجهم منها ـ كما هو الحال فى كلية الطب ـ يمكن به تذكرة الجامعيين بمهمتهم فى الصراحــة الفكرية والتزامهم السياسى داخل الجامعة وخارجها •

تلك قضايا عامة يفكر فيها جمهرة المثقفين بشأن جامعاتهم ان لم تعرض بشكل اعادة النظر فى اللوائح والقوانين فعلى الاقل تمس المفهوم الاساسى للجامعة ، وعلاقة الدولة بها • وهذا ما يعنية المثقفون بالاصلاح الجامعى •

الجامعـــــــة والوطـــــــن

لم تكن الجامعـات فى تاريخهـا الطويل فى الغرب والشرق على السواء نبتا مزروعا من الخارج على نحو مصطنع باعتبـارها أحدى مقومات الدولة الحديثة وأحد مظاهرها مثل العلم والنشيـد الوطنى والمقعد فى الامم المتحدة بل كانت جزءا من تاريخ الشعوب ، وأحـد مصادر حركتها الثقافية • لذلك ارتبطت اسماؤها باسـماء البلدان أو العواصم أو المدن أو الأقاليم الجغرافية مثل : الجامعة السورية ، الجامعة الأردنية ، الجامعة التونسـية ، الجامعة الامريكية ، جامعة باريس ، جامعة برلين ، جامعة القاهرة ، جامعة صنعـاء ، جامعة الجزائر ، جامعة بغداد ، جامعة الكويت ، جامعة قطر ، جامعة الخليج ، جامعة الامارات •• الخ • ونظرا لارتباط الأمة الاسـلامية بدينهـا وتراثها فقد نشأت الجامعات فيها منتسبة الى الاسـلام وليس الى الجغرافيا ، فنشأت الجامعات الاسلامية قديما فى القاهرة ، والقيروان ، وفاس ، لنشر الثقافة والعلوم الاسـلامية • فكانت جامعة الأزهر • وجامعة الزيتونة ، وجامعة القرويين •• الخ • كما نشأت الجامعات الاسلامية حديثا فى الرياض ، وجدة ، ومكة ، والمدينة المنورة تجمع بين الثقافة الاسلامية وجغرافية المدن[1] •

وكان التعليم الجامعى كله يدور حول الفنون الحرة السـبعة ، النحو والبلاغة والأدب فى مجموعة ثلاثيـة ، والحسـاب والهندسـة والموسيقى والفلك فى مجموعة رباعية من أجل تخريج أدباء أو علماء •

كتب هذا البحث فى مايو ١٩٨٥ اثناء وجودى بجامعة الامارات العربية المتحدة أسـتاذا زائرا فى الفصل الدراسى الثانى وكمقدمة نظرية للبحث الميدانى الذى أجرته الجمعية الاجتماعية من « الجامعة والمجتمع » والذى أشرف عليه د. حسن همام من كلية الخدمة الاجتماعية . وبعد التخفيف من بعض عباراته أمام عديد من الاسـاتذة الوطنيين أو المعارين تم نشره . والفقرات المحذوفة من الادارة الجامعية موضوعة بين قوسين كأدلة على عقلية الرقيب ، ونشر فى يوليو ١٩٨٥ .

(١) تعتبر أقدم جامعة فى العالم هى جامعة الأزهر التى انشئت فى القرن الثالث الهجرى تلتها جامعة الزيتونة وجامعة القيروان . واقدم جامعة اوربية هى جامعـة بولونيا فى اواخر القرن الثانى عشر .